أول قصة لحياة رسول الله مزينة بالرسوم

أحمد البتانوني

وحي السيرة

اختارت وزارة المعارف هذه القصة للمدارس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لِلّهِ ، والصَّلاةُ والسلامُ على رسول الله .

وَبَعْدُ : فَهٰذا كتابُ « وَحْيِ السِّيرَةِ » أَوْ قِصَّةُ سيِّدنا محمد رسولِ الله ، حاولْتُ فيه أن ألتقطَ صُوَراً واضحةً للنبيِّ ، تُبَيِّن أطوارَه في جميعِ مراحلِ حياته ، وتُسَجِّل إشراقَ نَفْسِه في كلِّ حالاتِه .

فَصَوَّرْتُهُ في ضَعْفِه وقوَّته ، في فَقْرِه وغِناه ، في سِلْمِه وحرْبِه ، في شبابِه وكُهولتِه ، مُتَتَبِّعاً ذلك الشُّعاعَ الباهرَ ، الذي ينبعث من نفسِه الطَّاهرة وقلبِه الكريم .

ولا أَزْعُمُ أنني أحَطْتُ بنفسه التي وَسِعَتِ النَّاسَ جميعًا ، ولا بقلبِه الذي رَحِمَ الأصدقاءَ والأعداءَ على السَّواء ، وإنَّا لَنَعْجِزُ عن أنْ نُصَوِّرَ أنفسَنا الَّتِي في جُنُوبِنا ، فكيفَ بنَفْسِ رسولِ الله ؟ !

وإنَّما هي صُوَرٌ خَاطِفَةٌ ، الْتُقِطَتْ له لا على سبيل الحَصْر ، وإنما عَلَى سبيلِ المثالِ .

وجعلت حَياتَه صلَّى الله عليه وسلم قِصَّةً متماسكةً ، تتسلْسَلُ صُوَرُها واحدةً بعد أخرى ، تَسَلْسُلَ الحياةِ الإنسانيَّةِ ، وَبَنَيْتُها على التاريخ الصحيحِ ، وليس فيها من نَسْجِ الخيال إلاّ ما دَعَتْ إليه الحاجةُ من التَّلْوِينِ

والتظليل ، وغلبَ ذلك فى الجزء الأوّل من حياته التى سبقت النبوّة ، وهو مع ذلك لا يُناقِضُ حقائقَ التّاريخ فى شىء .

وقد ظهرَ بجوار صورته الكبرى ، صُوَرٌ لبعضِ أصحابه ، وبعضِ أعدائه ، لأنها وقعَتْ فى جوّ صورته ، واتّصلَتْ بها ، فلَمْ أَشَأْ إبعادَها .

وجعلْتُ ما نطقَ به الرّسولُ حقًّا فى أقواسٍ صغيرة « » وما عدا ذلك مما نُسِبَ إليه ، فأجْرَيْتُه بلسانِ حالِه لا بلسانِ مَقالِه .

وقصَدْتُ من هذا الكتاب أنْ أُقدِّمَ لشبابِنا المتعطِّش للثقافةِ الدينيةِ والخلقية نموذجًا حيًّا ، تُعْتَبَرُ حياتُه مِثالاً للإنسانيةِ العُلْيا ، وتُعْتَبَرُ نفسه أجْمَعَ النفوسِ للفضائلِ ، وأبْعَدَها عن الرذائل ، فى أسلوبٍ سهل قصصىٍّ على نحوِ ما يقرأ ويَشْتَهِى .

وأَوْدَعْتُ فى الكتابِ جملةً صالحةً من أدبِ الرسول الكريم ، وبلاغتِه العاليةِ ، التى تَسْمُو على ما أَلِفْناهُ مِنْ كلامِ النّاس ، لتكونَ غذاءً أدبيًّا وروحيًّا لِمَنْ شاءَ ذلكَ .

وزَيَّنْتُه بالرُّسومِ الجميلةِ الّتِى تزيدُ فى شوْقِ القارئ ، وتُوَضِّحُ ما يدورُ بخاطرِه من خَيالٍ ، والرَّسْمُ فَنٌّ من فنونِ البيان .

وأَرْجو أنْ يَتأَسَّى شبابُنا بهذِهِ السِّيرةِ الطّاهرةِ ، ويَسْلُكَ مَسْلَكَها فى بِرِّها وتَقْواها .

إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإصْلاحَ ما استَطَعْتُ ، وما تَوْفيقِى إلا باللهِ ، عليه توكَّلْتُ ؟

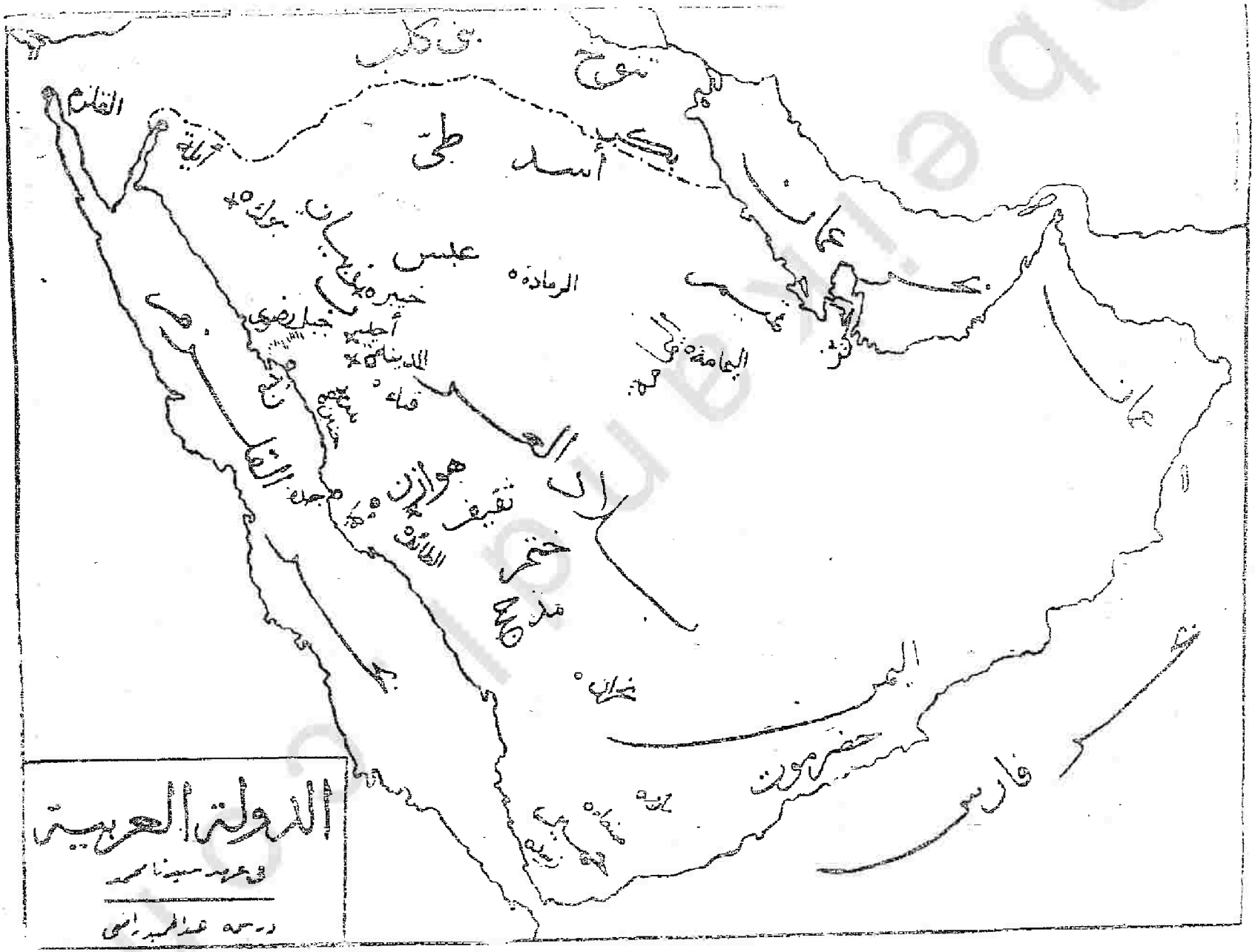
الدولة العربية
في عهد سيدنا محمد
رسمه عبد المجيد يافي
الشام
بنو كلب
تنوخ
بكر
أسد
طي
عبس
الرمادة
البحرين
اليمامة
مكة
الطائف
المدينة
خيبر
وادي القرى
تبوك
جبل الثلج
هوازن
ثقيف
الأزد
خثعم
مذحج
نجران
اليمن
حضرموت
عمان
فارس

قال سارح :

لا أزالُ أذكرُ ذلك اليومَ الذى لقيتُ فيه محمّدًا لأوّلِ مرّةٍ فى مَضارِبِ[1] « بنى سَعْد » . وكنتُ قد استَرْضَعْتُ فيهم ، وتَبَدَّيْتُ[2] بين رُبُوعهم ، وقضيت عندهم زُهاءَ[3] سَبْعةِ أعوام ، لم أذهبْ فيها إلى مكّةَ إلاّ مرّتَيْن ، حيثُ رأيت أهلى ، وتعلّقْتُ بأذيالِهم ، وناشَدْتُهم[4] أن أبقى بينهم ، ولكنّهم رَدُّونى إلى البادية ، فعُدْتُ إليها مُتثاقِلاً .

فلقيتُ محمداً وهو غُلامٌ ، فِى أَدْنَى[5] من سِنِّى قليلا ، فاجتذبنى بطَلْعَتِهِ النّاضِرَةِ ، وَبَسْمتِهِ السّاحِرةِ ، وهَيْئَتِهِ التى تَرِفُّ عليها مخايِلُ[6] الذَّكاء ، ودلائلُ النُّبْلِ ، ووجدتُ من نفسى اندفاعاً للحديثِ معه ، فتعارَفْنا ، فإذا هُوَ من « مكّةَ » أيضاً ، قد جاء لمثل حالى ، فتوثّقَتْ صداقتُنا ، وتألّفَتْ قلوبُنا ، وأصْبَحْتُ بعد ذلك اليوم ، لا أَجِدُ الهناءةَ ، إلاّ فى ظِلِّه ، ولا الراحةَ إلاّ فى مَثْواه[7] .

وأَلِفْتُ أمّه « حَلِيمَةَ[8] » التى تَحْضِنُه وأَلِفَتْنى ، وَوَجَدْتُ فى أخته « الشَّيْمَاءِ » ووالدِه « الحارِثِ » أَهْلاً ، وخلَطُونى بأنفُسِهِمْ من أَجْلِ محمدٍ فنَسِيتُ بهم أَرْبابَ[9] مَثْوَاىَ ، وسائرَ أهلى ، فما كنتُ أرجعُ إلى بيتى

---

(١) خيام . (٢) طلبت البادية : وهى الصحراء . (٣) قرابة . (٤) سألتهم .
(٥) أقل . (٦) علامات . (٧) بيته الذى يسكنه .
(٨) أمه من الرضاع وكذلك أخته وأبوه . (٩) أصحاب منزلى الذى أنزل فيه .

إلاّ لِأَقْضِيَ فيه ساعةَ نزوى ، أوْ أنالَ بعضَ طعامي ، وكثيرًا ما كنتُ أنالُهُ مع محمدٍ والشّيماء ، وأجدُ في ذلكَ لذّةً لا أتمتّعُ بها في بيتي .

* * *

وكانت للشّيماء غُنَيْماتٌ ترْعاها ، فكنتُ وعمداً نذهبُ معها إلى ذلكَ المَرْجِ[1] الفسيحِ ، ونُسَرِّحُ أبصارَنا بَيْنَ الأرضِ والسّماءِ وما خلقَ اللهُ ، ونرى الأرضَ كيفَ تتبرّجُ[2] في الربيعِ ، فتنشرُ أعلامَها ، وتلبسُ وشْيَها[3] وتُرَصِّعُ صدْرَها بالأزهارِ الناضرةِ ، والوُرُودِ والرّيْحانِ . ونراها أحْيانًا تتجرّدُ مِنْ زينتِها ، وتُخْفيها في باطنِها ، كأنّها تخافُ اشتِمْلاجَها[4] ، فإذا ما آنَسَتْ[5] غفْلةً من الرُّقباءِ ، وارْتَشَفَتْ[6] قطراتٍ من ماءِ السماءِ ، أظهرَتْ ما أخْفَتْ ، ونَشَرَتْ ما طوَتْ .

فكُنّا نلْهو ونَرْتَعُ ، ونُداعِبُ الغُنَيماتِ ، ونتوثّبُ حوْلَها مثلَ الفَراشِ الطائرِ ، ونَرْكُضُ[7] في الوِدْيانِ مِلْءَ قُوَّتِنا ، ونتسلّقُ التِّلالَ والهضابَ ، ونَهُشُّ[8] الأشجارَ على الأغنامِ ، لتأكلَ من أوراقِها .

ولقدْ وَضَعْتُ يدِي مرّةً على عُشِّ طائرٍ ، فأمسكْتُ بهِ ، وجِئْتُ أعْدو إلى صاحِبَيَّ ، أُباهِيهما[9] بما قدَرْتُ عليه ، وسبَقْتُ إليه .

فهشّتِ[10] الشّيماء لي وطرِبَتْ ، وعدَّتْهُ صيْدًا سَمِينًا ، نتّخِذُ مِنْهُ طعامًا

---

(١) المرعى . (٢) تكشف عن جمالها . (٣) ثوبها المنقوش . (٤) استراقها .
(٥) أبصرت . (٦) شربت (٧) نجري . (٨) نخبطها بالعصا ليتساقط ورقها .
(٩) أفاخرهما . (١٠) فسرت.

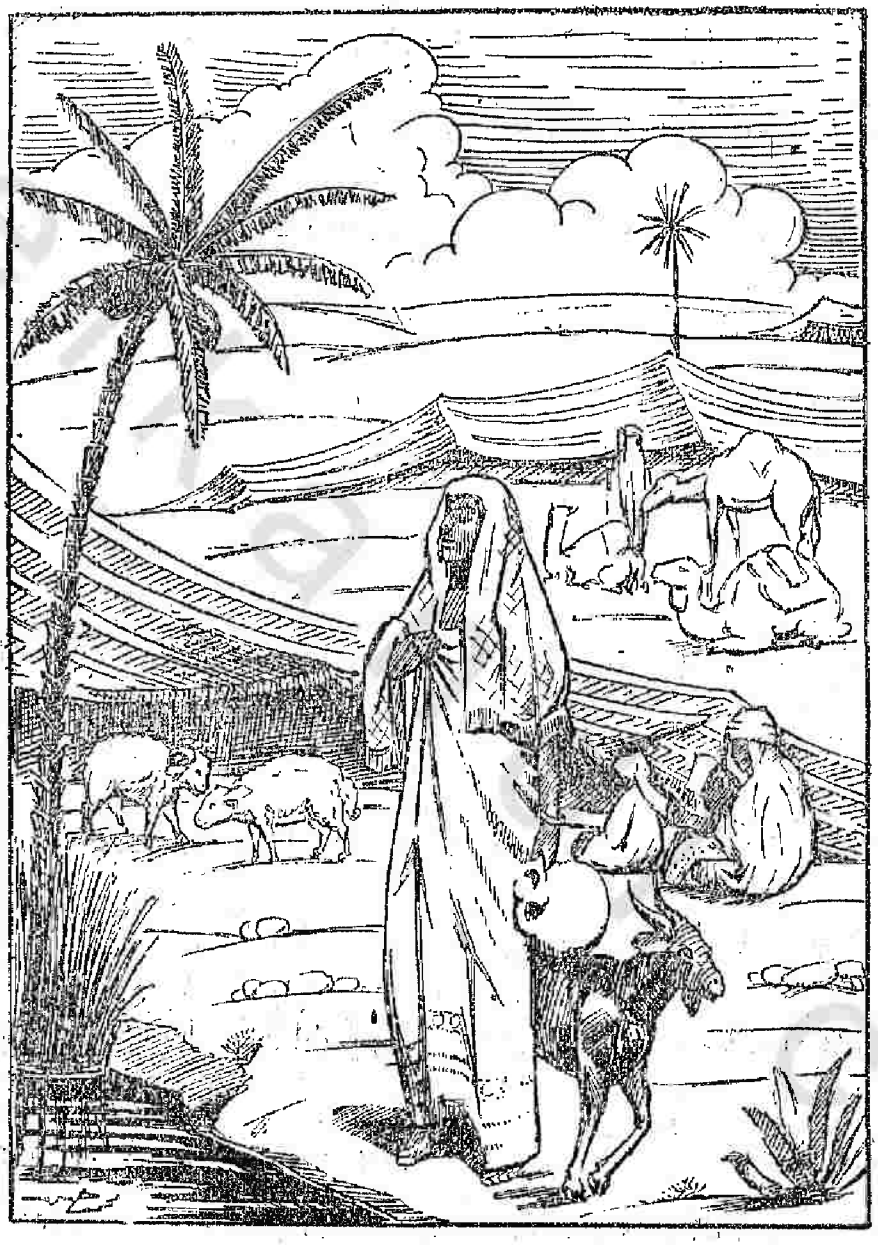

الحياة فى البادية

آنفاً[1] أمّا محمّدٌ فرأيته قد تغيّر وجهه ، واحمرّت عيناه ، وزوى[2] ما بين حاجبيه ، وبدا عليه غضبٌ لم أعهده فى خُلقه .

ولم أدرِ ما جنيت حتى أستحقّ منه هذا التغيّر ، فساءلت نفسى : ألإنى سبقته إلى صيده ، وكان يتمنّى أن يكون هو الصائد الظافر ؟ أم لأنّه رأى ضآلة المصيد فى يدى ، وغلبة التباهى على نفسى فازدرانى[3] ؟ أم لأمرٍ غير هذا وذاك .

ثم نظرتُ إلى وجه محمد ، فإذا بدمعةٍ حارّةٍ تلفظها عينه ، وتسيل على خدّه ! فكفكفها[4] بيده ، ثم قال :

لك الله ياسارح[5] ! أىّ قلبٍ ذلك الّذى بين جنبيك ! ؟ ذلك الّذى يُفرّق بين الطائر وولده ، وبين الطائر ووطنه ، وبين الطائر وحياته ! إنّها ثلاث جرائم لا يقدر على أدناها إلاّ الظالم الغشوم[6] ! أعدمتك الرّحمة ؟ ألا ظلّ لها فى قلبك ؟ ! إنّها لو كانت فى حجرٍ لتفجّر ماء ، ولو كانت فى حديدٍ للان ليانا ! أتودّ أن يُفرّق إنسانٌ بينك وبين سائر أهلك .. !!

وما وصل إلى هذا حتى رأيتُ أضلعى تتقصّف[7] ، ونفسى تتقوّض وتنزوى[8] ، حتى لتكون أصغر من نفس ذلك الطائر الضئيل !

ووددتُ لو ابتلعتنى الأرض ، حتّى لا أرى من محمدٍ ذلك الوجه الّذى

---

(١) شهيا . (٢) قبض . (٣) احتقرنى . (٤) ردها .
(٥) ماأقساك . (٦) الشديد الظلم . (٧) تتحطم من الحزن . (٨) تتضاءل .

رأيته ، فتخاذلت[1] أصابعي التي قبضت على الطائر ، وانطلق يغدو شاكراً ذلك الفتى الرحيم .

فأشرق وجه محمد ، وصحت سماء نفسه[2] ، وانقشعت عنه تلك السحابة القاتمة ، وعادت إليه نفسه المهينة اللينة .

وأخذت أسائل نفسي : كيف لم أحس بما أحس به محمد ، وأرحم الطائر رحمته ؟ ولم وسع قلبه هذا الحيوان الضعيف ، ولم يسعه قلبي ؟

فقلت : لعل قلب اليتيم الذي شعر بفجيعة الولد في والده ، وأحس مرارتها ، قوّى فيه هذا الشعور بالرحمة .

فهو لا يريد حتى أن يتجرع[3] مثل كأسه المرة ، ولعل قلبه رقيق شفيف ، كالمرآة الصقيلة المجلوة ، وقلوب الناس على اختلاف ، فمنها خزف ، ومنها أحجار ؟

يا لشقاء نفسي إن كان قلبي من الصم الصلاب[4] !

---

(١) ضعفت .
(٢) صحت السماء : صفت وخلت من السحاب .
(٣) يشرب .
(٤) الأحجار القاسية .

قَدْ يَضِيقُ صَدْرُ الإنسانِ بِمَكانٍ فيودُّ أَنْ يُفارِقَه ، ويرى السَّعادَةَ فِي الإفْلاتِ[١] منه ، والشقاءَ فِي البقاءِ فيه ، ثم يَعْرِضُ بعضُ الأمرِ ، ويدورُ الزّمان ، فإذا المكانُ البَغِيضُ أصبحَ حبيباً ، وإذا البقاءُ فيهِ مُتْعَةُ النَّفْسِ ، وقرَّةُ العَيْنِ .

هؤلاء « بَنُو سَعْدٍ » طالَما تَشَهَّيْتُ أَنْ أُفارِقَهم ، وأرجِعَ إلى بلدِي ، فأترُكَ أَطْلالَهم الدَّاثِرَةَ[٢] ، وصحراءَهُمُ القاحلةَ[٣] ، وبيوتَهُمُ المتداعِيَةَ[٤] ، وحيواناتِهم العِجافَ[٥] الهزيلةَ ، إلى مَكَّةَ ذاتِ الظِّلِّ الوَرِيفِ[٦] ، والخيرِ الكثيرِ ، والقصورِ العاليةِ ، والحضارةِ الزاهيةِ .

ولما انْعَقَدَتْ عُرَى الصداقةِ بينى وبين محمدٍ ، واتصلَتْ رُوحِى بِرُوحِهِ ، حُبِّبَ إلىَّ المكانُ الَّذِي يُقِيمُ فيهِ ، فإذا الوُجوهُ الشَّنِيعَةُ[٧] القَاسِيَةُ التى كنتُ أَجْتَوِيها[٨] ، أراها ناضرةً باسِمةً . وإذا السَّماءُ الكاشِرَةُ التى تُقَلِّبُنِي بينَ بَرْدِها وحَرِّها أراها وادِعَةً حانِيةً ، وإذا الصحراءُ المُقْفِرَةُ إلاّ مِنْ وَحْشِها وَشَوْكِها أراها مَرْجًا نَضِيراً ، تُنْبِتُ الزَّهَرَ ، وَتُخْرِجُ الثَّمَرَ ، وَمَراحًا[٩] لِلنَّسِيمِ الطَّلْقِ ، وَالهواءِ العَلِيلِ .

وإذا « بَنُو سَعْدٍ » الذين يُحِبُّهُمْ محمدٌ وَيحبُّونَهُ ، يُصْبِحونَ لِي أحبابًا ،

---

(١) الانطلاق . (٢) آثار بيوتهم القديمة . (٣) المجدبة .
(٤) الحقيرة المتساقطة . (٥) الضعاف . (٦) الممتد .
(٧) الغليظة الدميمة . (٨) أكره النظر إليها (٩) مهبا .

وإذا بى أنسى شيئاً فشيئاً مكة وأهل مكة ، وأرضى بحياتى الجديدة كل الرضا ، لا أبغى عنها بديلاً .

وإنى لفى يوم وأنا أسعد ما أكون حالاً ، إذ هبط علىّ والدى فعانقته وعانقنى ، وما استراح قليلاً ، حتى نظر إلىّ نظرة رفيقة ، وقال :

« لقد آن لك ياسارح أن ترتد إلى بلدك ! » .

وتطلع إلىّ ليرى أثر كلماته فى نفسى ، وانتظر منى قبولاً وشكرًا ، ولكنه نسى أنه قطع بتلك الكلمات نياط[1] قلبى ، فجبتها خناجر[2] تمتد لتقطع حبال السعادة التى وصلتها بصديقى ! فغام[3] وجهى ، ووقفت الكلمات على لسانى ، وخانتنى عبرة[4] سقطت من عينى ، حسبها والدى عبرة حنان واشتياق لأمى ، وفرح بلقاء أهلى ، فربت[5] على ظهرى ، وشكر لى رقة قلبى ، وقال :

« هيا إلى رواحلنا ! »

فانفجرت باكيًا ، وقلت : أما الآن فلا

فأخذه العجب ، وسألنى : ماذا تقول ؟

سارح : لا أريد رحيلاً :

ألست أنت الذى سألتنى أن تبقى بمكة ، وتشبثت[6] بها لا تبغى لها فراقاً ؟! فما دهاك[7] اليوم ؟

---

(١) عروق قلبى . (٢) سكاكين . (٣) تغير وعلاه كالغمام . (٤) دمعة .
(٥) مسح وضرب بخفة . (٦) تعلقت . (٧) أصابك

بمارخ : قَدْ كَانَ ذٰلِكَ مَرَّةً ، وَالْيَوْمَ لاَ . أَلاَ تَجِدُنِي الآنَ صَحِيحَ الْجِسْمِ نَشِيطًا ، سَلِيمَ النَّفْسِ مُنْتَعِطًا ، وَهٰذَا مَا أَرَدْتُمُوهُ لِي بِهٰذَا التَّبَدِّي[1] ، فَبِاللهِ إِلاَّ أَطَلْتُمْ أَيَّامَ عَافِيَتِي ، وَمَدَدْتُمْ فِي حِبَالِ سَعَادَتِي ! .

: مَا أَسْرَعَ مَا صِرْتَ حَكِيمًا يَا غُلاَمِي ! وَلٰكِنْ أَيْنَ كَانَتْ حِكْمَتُكَ فِيمَا مَضَى ؟ أَلاَ مِنْ سَبَبٍ لِهٰذَا التَّحَوُّلِ الْبَادِي ؟ تَكَلَّمْ وَلاَ تَخَفْ شَيْئًا ! .

سارح : وَلاَ أُرِيدُ أَنْ أُفَارِقَ مُحَمَّدًا بَعْدَ مَا أَلِفْتُهُ وَأَلِفَنِي

— : وَمَنْ مُحَمَّدُكَ هٰذَا الْعَزِيزُ عَلَيْكَ ؟

سارح : إِنَّهُ وَلَدُ « عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ » .

— : إِنَّهُ إِذَنِ الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ؛ أَظُنُّهُ ابْنَ عبدِ اللهِ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ . رَحِمَ اللهُ وَالِدَهُ ! كَانَ زِينَةَ الشَّبَابِ جَمَالاً وَعِفَّةً عَاشَ كَالزَّهْرِ ، وَاخْتُضِرَ مِثْلَهُ[2] !

وَلٰكِنْ قُلْ لِي يَا سَارِحُ : أَوَ تَرْحَلُ مَعَ مُحَمَّدٍ إِنْ رَحَلَ إِلَى مَكَّةَ ؟

سارح : أَكُونُ مَعَهُ لاَ أَسْأَلُ أَيْنَ حَطَّ[3] رَحْلَهُ !

---

(١) المعيشة فى البادية .
(٢) مات فى شبابه وهو كالزرع الأخضر .
(٣) استقر .

— : مَا أَشَدَّ مَا أَثَّرَ فِيكَ ذٰلِكَ الْغُلَامُ الْيَتِيمُ ! قُمْ إِلَيْهِ وَأَخْبِرْهُ بِرَحِيلِنَا ، وَسَلْهُ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا .

قال سارح : فَذَهَبْتُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَأَخَذْتُ أُزَيِّنُ لَهُ الرِّحْلَةَ ، وَالْعَوْدَةَ إِلَى الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ ، فَقَالَ لِي : وَلٰكِنَّ قَوْمِي لَمْ يَأْذَنُوا لِي .

وَسَمِعَتْنِي « حَلِيمَةُ » أُبَادِلُهُ الْحَدِيثَ ، فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ ، وَجَاءَتْ إِلَى أَبِي ، فَلَمَّا رَآهُ وَالِدِي حَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَبَّلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَسَأَلَ حَلِيمَةَ أَنْ تَسْمَحَ بِهِ لِيَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ .

فقالت حليمة : إِنَّكَ إِنْ سَأَلْتَنِي وَلَدًا مِنْ أَوْلَادِي أَعْطَيْتُكَ إِيَّاهُ ، أَمَّا هٰذَا فَلَا ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ الْخَيْرَ إِلَّا مُنْذُ رَأَيْتُهُ ! حَمَلْتُهُ إِلَى بَلَدِي ، وَأَنَا فِي خَصَاصَةٍ(١) وَسُوءِ حَالٍ ، فَحَمَلْتُ الْغَيْثَ(٢) وَالْخِصْبَ الْمَرِيعَ(٣) فَنَبَتَ رِيشِي(٤) ، وَدَرَّتْ مَاشِيَتِي(٥) ، وَتَمَوَّلْتُ وَتَأَثَّلْتُ(٦)

فَكَانَتْ لِي غُنَيْمَاتٌ ضَعِيفَةٌ هَزِيلَةٌ ، فَلَمَّا حَلَّ مُحَمَّدٌ عِنْدَنَا نَمَتْ وَسَمِنَتْ ، وَمَلَأَتْ بَيْتَنَا سَمْنًا وَجُبْنًا ، وَخَيْرًا كَثِيرًا .

وَمِنَ النَّاسِ مَيْمُونٌ(٧) الطَّلْعَةِ ، مُبَارَكُ الْغُدُوَاتِ وَالرَّوْحَاتِ(٨) فَإِنْ أَخَذْتَهُ مِنِّي ، أَخَذْتَ الْمَاءَ عَنِ الرَّوْضَةِ(٩) فَحُلْتَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ

---

(١) ضيق معيشة . (٢) المطر . (٣) الدائم الكثير . (٤) تحسنت حالى
(٥) كثر لبنها . (٦) أصبحت ذات مال وثروة . (٧) مبارك .
(٨) تحل البركة حيثما يسير . (٩) البستان

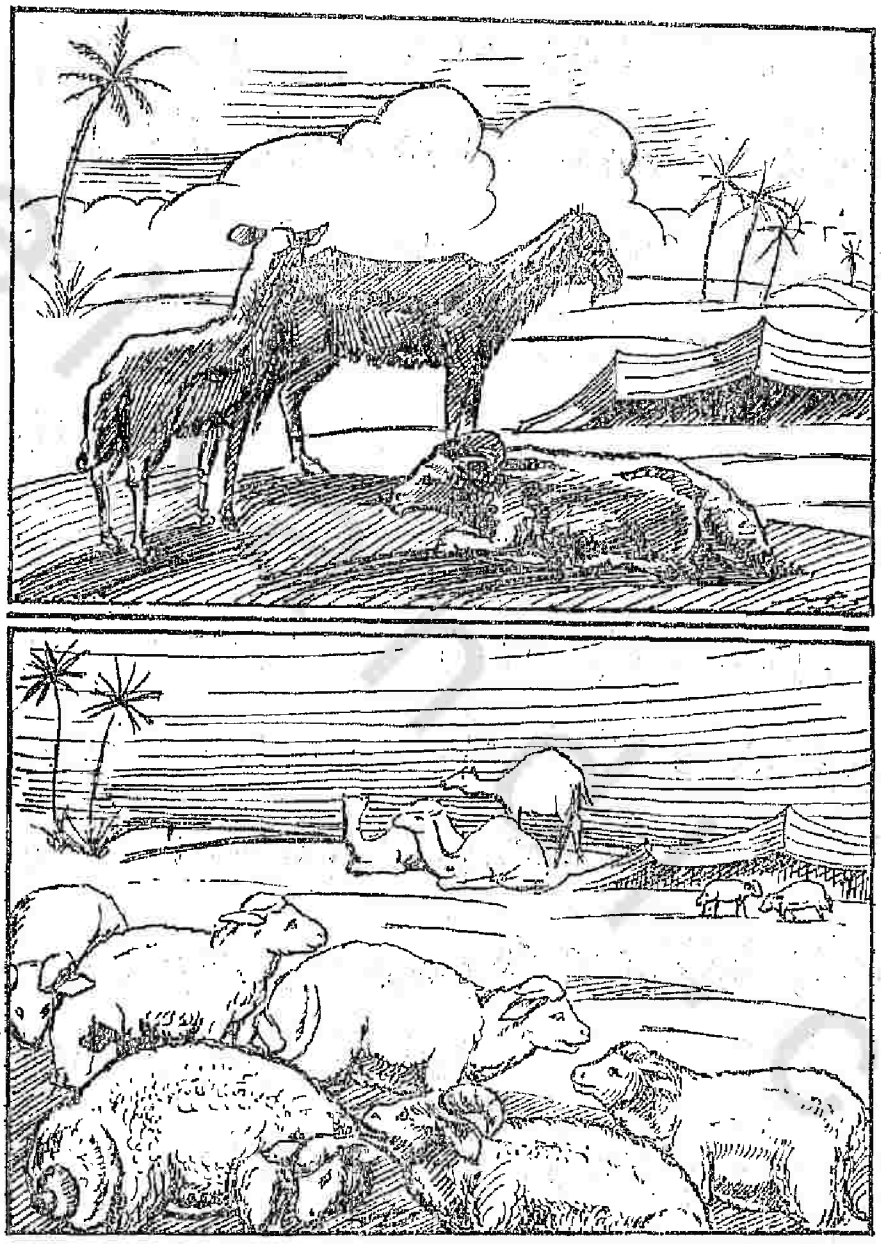

غنيمات حليمة سمنت بعد ضعف

حَيَاتِهَا ؛ أَخَذْتَ مِنَ الشَّمْسِ ضِيَاءَهَا ، وَمِنَ الزَّهْرَةِ عِطْرَهَا وَبَهَاءَهَا ؛ وَلَا يُرْضِيكَ أَنْ تَفْعَلَ هٰذَا ! !

— مَا أَشَدَّ حُبَّكُمْ لِهٰذَا الْغُلَامِ !

فَلَمَّا اسْتَيْئَسَ وَالِدِي ، وَهَمَّ أَنْ يَرْجِعَ أَدْرَاجَهُ[1] وَحْدَهُ ، لَمَحَ رَاكِبًا قَادِمًا مِنْ طَرِيقِ مَكَّةَ ، يُبَدِّدُ[2] السَّيْرَ . فَلَمَّا تَبَيَّنَهُ عَرَفَ أَنَّهُ أَحَدُ أَعْمَامِ مُحَمَّدٍ ، وَاسْتَوْضَحَهُ[3] سَبَبَ حُضُورِهِ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ جَاءَ لِيَأْخُذَ مُحَمَّدًا ، وَيَعُودَ بِهِ إِلَى أَهْلِهِ .

وَتَجَدَّدَ الْحَدِيثُ بَيْنَ حَلِيمَةَ وَبَيْنَ عَمِّهِ ، وَلَمَّا عَرَفَتْ أَنَّهُ رَاجِعٌ بِهِ لَا مَحَالَةَ[4] ، وَجِمَتْ[5] وَاسْتَسْلَمَتْ ، وَتَسَاقَطَتْ دُمُوعُهَا غَزِيرَةً سَيَّالَةً ! وَلَمَّا أَدْرَكَ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ مُفَارِقٌ وَكْرَهُ[6] الَّذِي دَرَجَ فِيهِ ، بَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ ! وَقَامَ إِلَى حَلِيمَةَ يُعَانِقُهَا ، وَإِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ يُوَدِّعُهُمْ خَيْرَ وَدَاعٍ !

وَخَرَجُوا بِهِ يَقُولُونَ : سَلَامٌ عَلَيْكَ مَا حَنَّ طَيْرٌ إِلَى فَرْخِهِ[7] !

وَمُحَمَّدٌ يُجِيبُهُمْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَهْلَ بَيْتٍ طَيِّبِينَ .

ثُمَّ رَكِبْنَا ، وَدُمُوعُ الْقَوْمِ تُشَيِّعُنَا ، وَاتَّجَهْنَا صَوْبَ[8] مَكَّةَ .

---

(١) من حيث جاء . (٢) يسرع السير . (٣) سأله وضوح . (٤) لابد .
(٥) حزنت . (٦) عشه . (٧) سلام عليك دائما . (٨) جهة .

لَمْ تَكُنْ « مَكَّةُ » قَدْ اسْتَدْعَتْ مُحَمَّدًا لِتُهَدْهِدَهُ[١] وَتَسْتَرْضِيَهُ ، وَتَمْسَحَ دُمُوعَ الْيُتْمِ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَتُزِيلَ عَنْهُ وَحْشَةَ الِاغْتِرَابِ وَالِاكْتِئَابِ[٢] ، بَلْ كَانَتْ قَاسِيَةً عَلَيْهِ بِحَوَادِثِهَا الْمُوجِعَةِ ، الَّتِي انْهَالَتْ عَلَى قَلْبِ ذَلِكَ الْغُلَامِ الرَّقِيقِ .

أَجَلْ لَقَدْ اسْتَقْبَلَتْهُ أُمُّهُ « آمِنَةُ » حِينَ عَوْدَتِهِ فِي أَحْضَانِهَا ، وَأَشْبَعَتْهُ لَثْمًا وَعِنَاقًا ، وَنَظَرَتْ إِلَى مَخَايِلِهِ وَقَدْ تَفَتَّحَتْ ، وَمَلَامِحِهِ وَقَدْ أَفْصَحَتْ[٣] ، فَذَكَرَتْ فِيهِ زَوْجَهَا الْعَزِيزَ ، الَّذِي فَقَدَتْهُ فِي أَيَّامِ عُرْسِهَا وَحُلَاهَا ، وَالَّذِي مَا عَاشَ بِجِوَارِهَا إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، أَذَاقَهَا فِيهَا حُبَّهُ ، وَنَقَشَ فِي قَلْبِهَا رَسْمَهُ ، وَوَضَعَ فِي أَحْشَائِهَا وَلَدَهُ ، ثُمَّ غَادَرَ هٰذَا الْعَالَمَ إِلَى الدَّارِ الْأُخْرَى .

وَكُلَّمَا نَظَرَتْ آمِنَةُ إِلَى وَلَدِهَا هَاجَتْ[٤] ذِكْرَاهَا ، وَتَلَفَّتَتْ بِقَلْبِهَا إِلَى الْفَقِيدِ الْعَزِيزِ !

فَعَزَمَتْ عَلَى أَنْ تَقْضِيَ حَقَّ زِيَارَتِهِ « بِالْمَدِينَةِ » ، وَتَقِفَ عَلَى قَبْرِهِ ، وَفِي يَدِهَا سِرُّهُ ؛ وَسُلَاسَةُ نَفْسِهِ[٥] .

---

(١) لتلاطفه . (٢) الحزن . (٣) بانت وظهرت

(٤) ثارت . (٥) خلاصة نفسه وهو ولده .

وَالْمَيْتُ وَإِنْ كَانَ تَحْتَ الرَّجَامِ[١] ، يُحِسُّ مَا يَطُوفُ بِهِ مِنْ حَبِيبٍ ، وَمَا يَخْفِقُ[٢] حَوْلَهُ مِنْ قُلُوبٍ ! !

وَأَفْضَتْ بِنِيَّتِهَا إِلَى « عَبْدِ الْمُطَّلِبِ » جَدِّ مُحَمَّدٍ ، فَهَاجَتْ شَجِيًّا[٣] ! إِنَّهَا ذَكَّرَتْهُ بِوَلَدِهِ الْحَبِيبِ إِلَيْهِ ، الَّذِي ذَبُلَ قَبْلَ أَوَانِهِ ، وَاخْتُطِفَ فِي رَيْعَانِهِ[٤] !

ذَكَّرَتْهُ وَلَدَهُ الَّذِي طَلَبَ الْمَجْدَ وَالْمَكْسَبَ الْحَلَالَ ، فَهَجَرَ عُشَّ الْحَبِيبَةِ وَالزَّوْجَةِ الْفَتَانَ ، بَعْدَ لَيَالٍ مَعْدُودَةٍ مِنْ زَوَاجِهِمَا ، وَسَافَرَ إِلَى الشَّامِ مُتَاجِرًا ، لِيَعُودَ إِلَيْهَا وَفِي يَدَيْهِ الْعِزُّ وَالْغِنَى ، وَيَقْضِيَ حَيَاتَهُ مَعَهَا فِي أَمْنٍ وَرَغَدٍ .

وَلَكِنَّ الْمَنِيَّةَ رَصَدَتْهُ[٥] ، فَاقْتَنَصَتْهُ فِي الْمَدِينَةِ ، فِي أَثْنَاءِ رُجُوعِهِ ، وَتُوُفِّيَ تَحْتَ عَيْنِ أَخْوَالِهِ مِنْ « بَنِي النَّجَّارِ » وَرَجَعَ الرَّكْبُ إِلَى مَكَّةَ يَنْعَى عَبْدَ اللهِ زِينَةَ الْأَصْحَابِ !

تَذَكَّرَ « عَبْدُ الْمُطَّلِبِ » كُلَّ هَذَا فَسَقَطَتْ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعَةٌ كَبِيرَةٌ ، فَاضَتْ مِنْ قَلْبِهِ الرَّبِيعِ ، وَنَفْسِهِ الْمُحَطَّمَةِ !

وَنَظَرَ إِلَى آمِنَةَ فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَكْسِرَ قَلْبَهَا الْغَضَّ[٦] ، وَيَرُدَّهَا عَنْ قَصْدِهَا ،

---

(١) القبور . (٢) يضطرب . (٣) حزينا .
(٤) شبابه . (٥) راقبته . (٦) اللين .

وإنَّ ذِكْرَياتِ الأحْبابِ لَتُحْيِي القلوبَ ، فلا أقلَّ من أنْ يُبْقِيَ على ذِكْرَى الفقيدِ حَيَّةً في قلبها ، ليُسْعِدَ بها تلك الفتاة الوَفِيَّة ! .

أجَلْ ، إنَّ الشُّقَّةَ[1] بين مكَّةَ والمدينةِ لَبَعِيدَةٌ ، وإنَّ خَوْضَ الصحراءِ المترامِيةِ لا يُطِيقُه إلاَّ القَوِيُّ الصَّبُورُ .

وَإنَّهُ لَيُشْفِقُ على آمنةَ أن تتحمَّلَ وَعْثاءَ[2] السَّفرِ ، ونَصَبَ[3] الطَّريق ، ولكنَّه يُشْفِقُ عليها أيْضًا أنْ يَرُدَّها عَنْ قَصْدِها ، ويُحَطِّمَ كِبْرِياءَها . وَإنَّهُ يَوَدُّ مِنْ قَرارةِ[4] نَفْسِهِ لو سارَ معها ، وزارَ فِلْذَةَ[5] كبدِهِ ، وَذَرَفَ[6] على قبرِه ما تَسْمَحُ بهِ عَيْنُه الجامدةُ[7] الواهِنَةُ[8] ! ولكنْ كيفَ لِشَيْخٍ مِثْلِه ناهزَ[9] الثمانينَ أنْ يَخُوضَ عُبابَ الصحراء ؛ والصَّحْراءُ بَحْرٌ لا يَقْوَى على سَبْحِها إلاّ الفِتْيانَ الشِّدادُ . إذَنْ فلا أقلَّ مِنْ أنْ يُحَمِّلَ حَفِيدَه[10] محمدا ما أعْياه[11] أنْ يحمِلَه ، وَأنْ يُرْسِلَه وأُمَّه وجارِيَتَهُ إلى عبدِ الله ، مع قَرابةٍ مِنْ أهْلِه .

* * *

ووصَلَتْ آمنةُ المدينةَ ، ونزَلَتْ عِنْدَ « بني النَّجارِ » أخْوالِ «عبدِ المطلب» وَدَبَّتْ أقْدامُ محمدٍ فيها ، وما دَرَتْ ماخَطَتْ في طُرُقاتِها ، وماذَا يَدْرِي الإنْسانُ مِمَّا تَخُطُّهُ أيْدِي الغُيُوب ؟ !

---

(١) المسافة . (٢) متاعب . (٣) تعب . (٤) باطن .
(٥) قطعة . وهو ولده . (٦) دمع وأسال .
(٧) البخيلة بالدموع . (٨) الضعيفة . (٩) قارب .
(١٠) ولد ولده . (١١) أعجزه .

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَرَاحَا مِنْ سَفَرِهِمَا ، رَغِبَا فِى زِيَارَةِ « عبدِ اللهِ » فَخَرَجَ مَعَهُمَا رَهْطٌ[١] من « بنى النَّجار » لِيَدُلَّاهُمَا عَلَى قَبْرِهِ ، وَيُسْعِدَاهُمَا[٢] على التَّذَكُّرِ وَالْبُكَاءِ ، وما كانَا فى حاجَةٍ لِمَنْ يَدُلُّهُما عليه ، فَطِيبُ[٣] تُرَابِ الْقَبْرِ دَلَّ عَلَى القَبرِ . كيفَ لايَهْتَدِيانِ إلى الحبيبِ ، وفى القَلْبِ نارُه ، وفى العينِ نُورُه ؟!

وَوَقَفَا إزاءَ القَبْرِ ، فَخَرَّتْ[٤] آمنةُ راكِعةً عليه باكيةً ! أما محمدٌ فَرَدَّدَ النَّظَرَ فى بُقْعَةِ الأَرْضِ الضَّيِّقَةِ الَّتى عَلاهَا النُّصُبُ[٥] والَّتِى سَلَبَتْهُ أَباهُ ، فَلَمْ تَجْعَلْهُ يُدْرِكُ مَعْنَى الْأُبُوَّةِ فى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ ، وَإِنَّمَا جَعَلَتْهُ يُدْرِكُهَا رَحْمَةً شَائِعَةً فى الحياةِ !

يُدْرِكُها فى الطَّائِرِ الذى يَحْنُو عَلَى فرخِه ، ويَزُقُّهُ من فمِهِ ، فلا يُفرِّقُ محمدٌ بينَهُما . يُدْرِكُها فى الشجرةِ الَّتى تَمُدُّ فى جُذُورِها ، لِتُغَذِّىَ غُصُونَها وأوراقَها ، فلا يَحُولُ محمدٌ دونَ غايتِها . يُدْرِكُها فى ماءِ السماءِ الذى يَنْزِلُ رَحْمَةً لِلنَّاسِ ، فلا يَسْتَأْثِرُ بِهِ دونَ العالمينَ . يُدْرِكُها فى العلائقِ الَّتِى تَرْبِطُ الأَقوياءَ بالضُّعفاءِ ، والسَّادةَ بالخَدَمِ والموالِى ، فلا يكونُ أبدًا إلَّا رَحِيماً ، فيهِ مَعْنَى الْأُبُوَّةِ لِكُلِّ ذِى كَبِدٍ رَطْبَةٍ[٦] ، أو كلِّ ما يَحْمِلُ أَثَرًا ولو ضَعِيفاً مِنْ آثارِ الحياةِ !

---

(١) جمع . (٢) يساعدهما . (٣) رائحته الطيبة .
(٤) سقطت . (٥) الحجر المنصوب . (٦) حيوان .

وذرف محمد بعض ماء شئونه[١] ، وأخذ بيد أمه عائداً إلى « مكة » ومعه مولاته[٢] « بركة » .

واشتكت آمنة فى أثناء الرجوع ألماً ، وفعل فيها الهم فعله ، فتخاذل[٣] جسمها ، واجتوت[٤] الطعام والشراب ، فحزن محمد عليها أشد الحزن ، ولصق بها ، وحاول جهد الصغير أن يخفف عنها ما أصابها ، فأخذ يداعبها لتغفل عن شكواها ، أو يغفل المرض عنها .

فقد كان يتيماً من والديه ، وذاق مرارة اليتم من شخص ما رآه أبدا ، فكيف لو ذاقه مرة أخرى من أمه التى أحبها ملء فؤاده ، والتى ملأت عليه الدنيا ، فراها أباً وأماً !

وبلغ الكتاب أجله ، وقضت آمنة فى طريقها عند « الأبواء[٥] » ! وشقت لها جاريتها « بركة » لحداً[٦] غيبتها فيه ، ونصبت عليها حجرا ، حتى لا تسفى[٧] قبرها الرياح ، فلا يهتدى إليها من شاء زيارتها .

أما محمد الذى رأى أمه تدفن أمام عينه ، فإنه شعر فى ذلك اليوم أنه تجرع اليتم حقا ، فتصدع[٨] قلبه الصغير ، وذاب دموعاً قانية[٩] ألهبت خدوده ! ثم سكن إلى نفسه ، وتدبر فعل ربه الذى حرك أمه لتزور حبيبها ، وتقضى هناك نحبها[١٠] ، ليموت كلاهما غريباً عن مكة شهيدا !

---

(١) الشئون : مجارى الدمع . (٢) جاريته . (٣) ضعف . (٤) كرهت .
(٥) قرية بين مكة والمدينة ، وهى أقرب إلى المدينة . (٦) قبرا . (٧) تذهب به
(٨) تحطم (٩) حمرا . (١٠) تموت .

ماتَ عبدُ الله شهيدَ الكَسْبِ والعَمَلِ ، وماتَتْ آمنةُ شهيدةَ الحبِّ والوَفاءِ ! فقالَ فى نَفْسِهِ : مادامَ هذا فِعْلَ اللهِ ، فعلامَ أَغْضَبُ ؟ ومَنْ يَدْرِى فلعلَّ اللهَ يُهَيِّئُ لِى أَنْ أموتَ غريباً عن مكةَ شهيداً ، كما هيَّأَ لِأَبَوَىَّ مِنْ قَبْلُ !

وكأنَّما استراحَ لهذهِ الفكرةِ ، فعادَ إلى مكَّةَ يَتَجَرَّعُ هَمَّهُ فى سكون !

* * *

وكلَّما أُزْدادَ خَطْبُ[1] محمدٍ ، أزدادَ حُبُّ عبدِ المطلب له ، فهُوَ وَإِنْ رُزِئَ[2] فى أبَوَيْهِ صَغيراً ، إنَّ له فى قلبِ جدِّهِ الشيخِ لَكُنُوزاً من العَطْفِ والمحبةِ ، تُخَفِّفُ عنْه ، وتُسَرِّى[3] عن فُؤَادِهِ ! وإنَّ مايراهُ عنده من الإكبارِ والتعظيمِ ، والمحبَّةِ والتَّدْليلِ ، لَيُعيدُ إلى نفسِهِ صفاءَها و إشْراقَها .

فمحمدٌ هُوَ الغلامُ الوحيدُ الَّذى يَجْلِسُ عَلَى فَرْشِ جدِّهِ ، ويتوسَّدُ ذراعَه فى نَوْمِهِ ، ويسيرُ معهُ فى طُرُقاتِ مكةَ ، ويتَّخِذُ مَقْعَدَهُ بجوارِه فى أَنْدِيتِها ولا يكادُ يُفارقُه ساعةً من نهارٍ ، حتَّى لَيَغْلِبُ عليهِ ابْنُ عبدِ المُطَّلِب .

وكلَّما شعرَ عبد المطلبِ أنَّه يُغالِبُ الكِبرَ ، ويزْدادُ كلَّ يومٍ ضَعْفاً ، تألَّمَ ، لافراقِ هذه الحياةِ ، فهو شَيْخٌ عاقِلٌ ، وحكيمٌ مُجَرَّبٌ يَعْرِفُ أن فِراقَها حَقٌّ ، والموتَ كأسٌ تدورُ لابُدَّ مِنْ شَرابِه .

---

(١) مصيبة . (٢) أصيب . (٣) تخفف .

ولكنَّهُ يألمُ لمحمدٍ الصغيرِ ؛ يألمُ أنْ يُذيقَهُ اليُتمَ ثالثَ مرَّة ، ولمْ يستكملْ أعوامَه الثَّمانيةَ ، ويخشَى على زهرتِهِ الغضَّةِ أنْ تتصوَّحَ[1] بعدَ فراقِه ، وعلَى كبدِهِ الرَّطبةِ أنْ تحترقَ لبعادِه ! ويحسُّ أنَّ لهُ شأنًا لابدَّ أنْ يبلُغَه ، ويخشَى أنْ تحسدَهُ قريش ، وتنالَ منْ فتاها ، ثمَّ يخافُ أنْ يخذلَهُ أهلُهُ ، ويخلُوا بينَهُ وبينَ عدوِّه .

وجاءتْ سكرةُ[2] الموتِ ، واجتمعَ حولَهُ أبناؤُهُ ، ودمعتْ عينُهُ ، وأشارَ إلى محمدٍ منْ بينهمْ ، فألصقَه بكبدِه ، ووصَّى بنيهِ أنْ يكونوا لهُ منْ بعدِه ، ثمَّ فاضتْ روحُهُ تحتَ عينِ محمدٍ وسمعِه !

فبكَى الغلامُ ما شاءَ لهُ البكاءُ ، ثمَّ اصطبرَ ما شاءَ لهُ الصَّبرُ ! ذلكَ مافعلتْهُ مكَّةُ بهِ ، وذلكَ ما استدعتْهُ إليهِ من بنِي سعدٍ .

---

(١) تذبل .

(٢) شدة .

مات عبدُ المطلب سيِّدُ قريش ، وخلَّفَ محمداً فى كفالةِ عمِّهِ « أبى طالب » فورِثَ أبو طالب منهُ المروءةَ والسُّؤْدُدَ[١] ، والمجدَ الباذخَ[٢] ، ولم يَرِثْ منهُ غِنًى موْفُورًا ، وعَيْشًا رَغِيداً[٣] . أجَلْ ، لقد وَرِثَ شهامَةً ، وعَيْشاً كَفافا[٤] .

وعاشَ محمدٌ فى بيتِ كافِلِهِ وَلِيِّ من أوْلادِهِ ، فقدْ فسَحَ له صدْرَهُ ، وراعَى فيهِ وَصاةَ وَلِيِّهِ ، وذِكْرَى شقيقِه .

وشبَّ كأحْسَنِ الشَّبابِ ، وَوَدَّ أنْ يَعْمَلَ بيدِهِ ، لِيُساعِدَ عَمَّه ، وَيَكْسِبَ رِزْقَه بِجِدِّهِ ، فأخَذَ يَغْدُو ويَرُوحُ[٥] بِقِطْعَةٍ مِنَ الغَنَمِ لِعَمِّهِ ، يَرْعاها فى ظاهرِ مكَّةَ ، وَرَغِبَتْ طائفةٌ مِنْ أهلِهِ أن يَرْعَى لهم ، فلمْ تأخُذْه العِزَّةُ بأنْ يُخَيِّبَ رجاءَهم ، فصارَ له سَرْحٌ كبيرٌ[٦] ، يَقْطَعُ بِهِ الوادِيَ ، وَيَمْلَأُ ما بَيْنَ شِعابِهِ[٧] ، وصارَتْ لهُ دَوْلَةٌ من الحيوانِ ، يُدَبِّرُ أمورَها ، ويَقُومُ عَلَى كبيرِها وصغيرِها .

قال سارح : وكنْتُ أرْعَى سَرْحًا لِأهْلِى فى أحَدِ المَراعِى وَدَفَعَنى حُبِّى لمحمدٍ أنْ أضُمَّ عَمَلِى إلى عملِهِ ، وَأخْلِطَ غنَمِى بِغَنَمِهِ .

---

(١) السيادة والشرف . (٢) الرفيع . (٣) معيشة سعيدة .
(٤) لايزيد عن الحاجة . (٥) يذهب ويرجع . (٦) مايرعى من الماشية .
(٧) طرقه .

قضينا أياماً سعيدة هانئة ، نسرح بهذه الأمة من الحيوان الأعجم[١] ، نخرج بها خماصاً ظماء[٢] ، فنوردها الأماكن الخصبة ، والرياض الناضرة ، والأشجار المورقة ، والوديان العشبة ، والغدران المترعة[٣] ، لنمتعها بغذاء موفور ، وشراب سائغ .

إن تعبت من السير أرحناها ، وإن بردت جللناها[٤] ، وإن مرضت عالجناها ، وإن اعتدى عليها عاد وقفنا لها ردها[٥] ، وأشهد أني ما رأيت كمحمد براً بها ، وراعياً لكبيرها وصغيرها ! إنه ليأخذ من القرناء للجماء[٦] ومن الكبيرة للصغيرة ، ويسع قلبه كل ما تقع عليه عينه !

والراعي الحق حارس يقظ ، وملاك رحمة ، ينبغي له ألا يغفل لحظة عن رعيته ، فإنه مسئول عنها ، فكم من شاة تدعو راعيها ليساعدها عند مخاضها[٧] ، فإذا ما افتقدته تحملت آلامها ، وألقت ذا بطنها[٨] ، شاكية غفلة راعيها !

لذلك ما كنت أرى محمداً إلا مشغولاً برعيته ، عارفاً كل فرد فيها ، وحاجة نفسه ومطامعه .

وفي الحيوان كما في الناس طبائع وميول تتفاوت ، فمنه القانع الراضي باليسير ، ومنه الطامح[٩] لما عند غيره ؛ ومنه الوقور الحليم ، ومنه الخفيف

---

(١) الذي لا يتكلم . (٢) جائعة عطشى . (٣) الجداول المملوءة بالماء .
(٤) غطيناها بما يدفئها . (٥) حمى وملاذا . (٦) القرناء : ذات القرون بخلاف الجماء .
(٧) ولادتها . (٨) ولدها . (٩) المتطلع .

السَّفيهُ ، ومنه اليَقِظُ الفَهِمُ الذى يَقْصِدُ أطيبَ المراعى ، وَيَزْوَرُّ[١] عَنْ غُثَائِه[٢] ، ومنه الذِّئبُ البليدُ الذى يأكلُ ماتحتَ أقدامِه لا يتعدَّاهُ إلى غيرِه ، ولو كانَ أشْهَى الطعامِ عَلَى مَدَى بَصَرِه !

ومِنْهُ مَنْ لا يَهْنَأُ له السَّيْرُ إلاَّ على حِفَافِ[٣] الصخورِ المُرْهَفةِ ، وشِعافِ[٤] الجبالِ المُحَدَّدةِ ، ولا يَسِيرُ إلاَّ مُتَوَثِّباً رَاتِماً[٥] ، وقَدْ تُخْطِئُهُ وثَبَاتُهُ فيقَعُ فى خُرْقِ جبلٍ ، أو يَتَرَدَّى[٦] فى جُبٍّ[٧] ، فتَنْدَقُّ عُنُقُه ، أو تنكسِرُ ذِراعُه ، فيسيرُ على ثلاثٍ يتَنَزَّى[٨] تَنَزِّيَ الغُرابِ !

وإنَّ كثيراً من الرُّعاةِ الغِلاظِ القلوبِ ، لتَأْخُذُهم حُمَّى الغيظِ من ذلك الحيوانِ المنكوبِ ، فيَبْطَحونَهُ[٩] على الأرضِ ، ويُصْلونَهُ أسْواطَ عذابٍ ، أو يَرْجُمونَه[١٠] بأحجارٍ غِلاظٍ ! كأنَّهُمْ بذلك يَشْفُونَ غَيْظَهم ، وما يَدْرُونَ أنهم يُضَاعِفُونَ بَلاءَه[١١] ، وَيُعَجِّلونَ مَمَاتَه !

وأمَّا محمـــدٌ الرحيمُ فكنتُ أراهُ يُسْرِع لذلكَ الحيوانِ الضعيفِ ، فَيُقِيلُه[١٢] من عِثَارِهِ ، ويَمْسَحُ ظَهْرَهُ بيدِه ، ويتعرَّفُ داءه ، ويَصْنَعُ له من عِيدانِ الشَّجرِ جَبائِرَ رَقِيقةً ، يَرْبِطُها إلى ذِراعِه المكسورةِ ، ويُمْسِكُها بِعَجِينةٍ من الطِّينِ اللاَّزِبِ[١٣] ، يُثَبِّتُها بخيوطٍ مِنَ الحَشيشِ المَتِينِ .

---

(١) يبتعد . (٢) يابسه . (٣) جانب، وحرف
(٥) لاعبا . (٦) يسقط . (٧) بئر لاماء فيها .
(٩) يلصقونه بها . (١٠) يرمونه . (١١) ألمه .
(١٣) اللزج المتماسك .

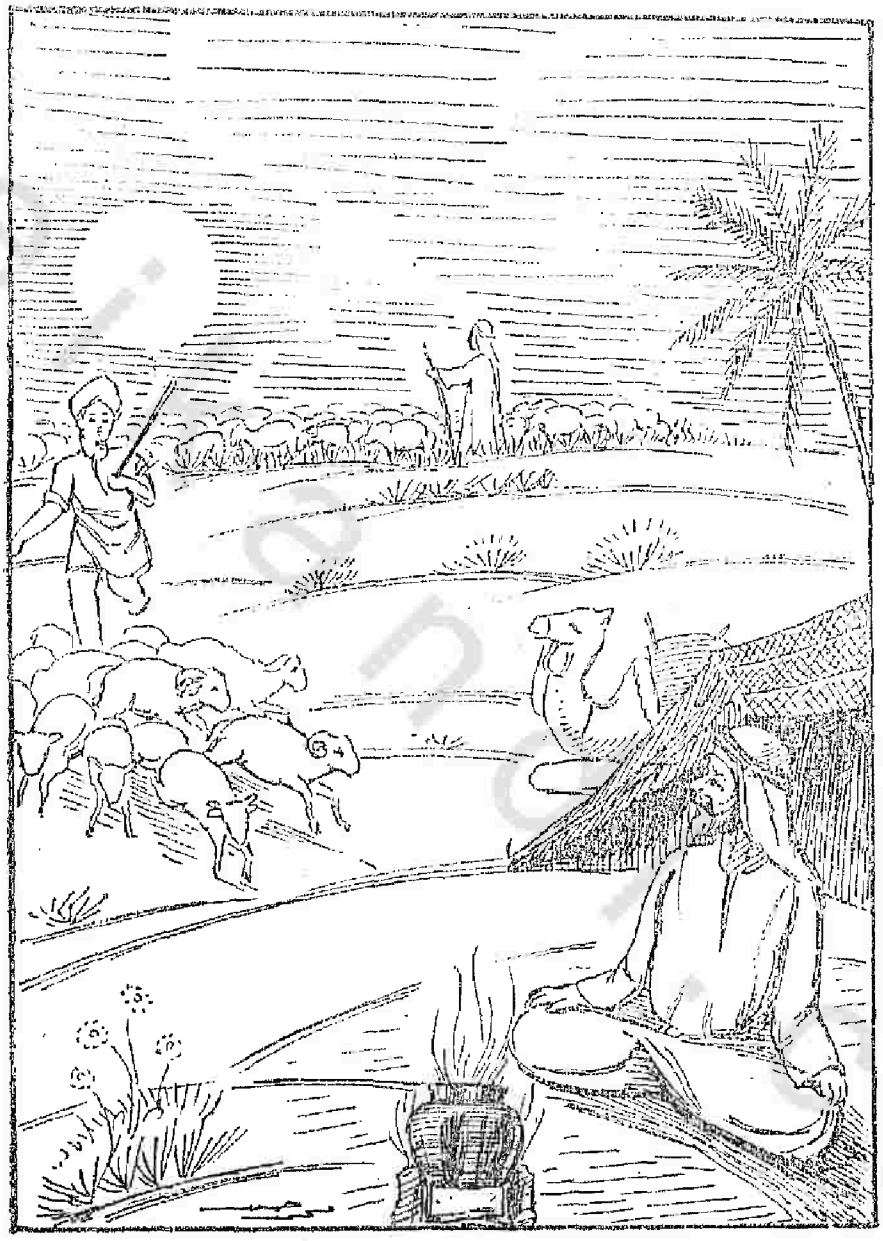

حياة المراعى فى البادية

فما هِيَ إلاَّ أيامٌ ، حتى ترتدَّ إليه سلامَتُهُ ، ويَبْرأَ من عِلَّتِه ، ليَعُودَ سيرتَه .

وكنتُ أرَى الرُّعاةَ يُصِرُّونَ[1] الشِّياهَ المُطْفِلَةَ[2] بِرَبْطِ ضُروعِها بِسَبائِبَ[3] من صُوفِها ، لِيَحُولوا بَيْنَ طِفْلِها وَلِبانِها ، فتَسْعَى الصِّغارُ المَحْجوبةُ عَن أُمَّاتِها ، تَلْتَمِسُ المَرْعَى اليسيرَ مِنَ الأرضِ تَفْشَأُ بِهِ[4] جُوعَها ، وَإلاَّ هلكَتْ صَبْرًا[5] ! أمَّا هُمْ فيَقْتَسِمونَ بِدَرِّها[6] ، وَيَمْلَئُونَ بيوتَهُمْ إقِطًا[7] وسَمْنًا !

لكنَّ محمداً الرحيمَ ، حاشَا لِقَلْبِه أنْ يَحُولَ بَيْنَ الأمِّ وَأبْنائِها ، وأنْ يَغْتَصِبَ مِنْها أرْزاقَها ، فقَدْ كنتُ أراهُ مُؤَرَّقًا[8] الهمُّ إنْ آنَسَ فى أحَدِ رعيَّتِهِ جُوعًا ، ولا يَطِيبُ خاطِرُهُ ، إلاَّ إذا أشْبَعَهُ بِيَدِه ، وقامَ يَتَوَثَّبُ غِبْطَةً ونَشاطا !

لِذلكَ طابَتْ رَعِيَّةُ محمَّدٍ ، وسَمِعَ أهْلُ مكَّةَ جَميعاً بأمَانَتِه ، وَيَقَظَتِه ، وَرَحْمَتِه ، فأرْسَلُوا إليه أغْنامَهم ، وسألُوه أنْ يَرْعَى لهم ، فسَالَ[9] الوادِى برَعاياهُ ، وهَنِئَ محمدٌ عيْشًا : وقَرَّتْ عَيْنُه أنْ غَدا يأكلُ من عَمَلِ يَدِه .

وكُنَّا نئُوبُ[10] فى آخِرِ اليَوْمِ إلَى حَظيرةٍ فِي ظاهِرِ مَكَّةَ ، نَدَعُ فيها

---

(١) يربطون ضروعها . (٢) ذات الأطفال . (٣) رقائق . (٤) تصرف .
(٥) جوعا . (٦) لبنها . (٧) جبنا . (٨) مشتغل .
(٩) امتلأ وفاض . (١٠) نعود .

أغنامنا ، ويَبيتُ أحَدُنا أو كِلانا في حِراستِها ، حتَّى إذا أسفَرَ النهارُ أسمَناها[1] في المراعي المَطْوَلةِ[2] ، واختَرْنا لها أطيَبَ البقاعِ .

وفي لَيْلةٍ قرَعَ سَمْعَنا ضَرْبُ دُفوفٍ[3] ، ونَغَماتُ مَزاميرَ ، فثارَتْ في نفسي نشْوَةُ[4] الفِتْيانِ . وعزَمْتُ عَلَى أنْ أتْبَعَ الصوتَ ، عسَى أن يُسْلِمَني إلى لَهْوٍ يُمْتِعُ نَفْسي ، ويُثْلِجُ فُؤادي .

فاستأذَنْتُ محمداً أنْ أنصرفَ إلى حَيْثُ سَمِعْتُ ، وأرْجِعَ إليه مَوْهِناً[5] ، فرَضِيَ ، وما كانَ بالشَّخْصِ الَّذي يُنَغِّصُ عَلَى رَفيقِ مِزاجَه .

فسِرْتُ إلى دُرُوبِ مكَّةَ ، حتَّى وقفْتُ على الدارِ ، فإذَا هِيَ تتوهَّجُ نُورًا ، وَإذَا فِيهَا مَزامِيرُ داودَ ، وما أفْضَيْتُ إلى فِنائِها حتَّى رأيت جمعاً من قريش ، يتساقَوْنَ الرحيقَ[6] ، ويتمتَّعونَ برقَصاتِ القِيانِ[7] الحسانِ ، وهِيَ تتثَنَّى كالأغصانِ ، والفِتْيانُ يغمِزونَ لهنَّ بعُيونِهم ، وَيُنْشدونَ فيهنَّ غَزَلَهُمْ ، والفَتَياتُ يُبادِلْنَهُمُ اللَّهْوَ والغَزَلَ ، فتارةً يتدَلَّلْنَ ويتمَنَّعْنَ ، وتارةً يُقبِلْنَ عليهم طامعاتٍ في أرْبابِ الثَّراء .

وكنتُ قَدْ ذهَبْتُ لِأُشارِكَ الفِتْيانَ لَهْوَهُمْ وَعَبَثَهُمْ ، فلَمَّا رأيْتُ الغَزَلَ فاحِشاً ، والنَّظَرَ بَذيئاً ، انصرَفَتْ عنه نَفْسي ، وجَلَسْتُ بِرُكنٍ مِنَ المجلسِ ، أرَى ولا أتكلَّمُ ، وَأَنْقُدُ القومَ ولا أُشارِكُ في أفعالِهِمْ ، ولَبِثْتُ حتى انقضَى

---

(١) أطلقناها . (٢) الندية . (٣) طبول . (٤) طرب
(٥) في آخر الليل . (٦) الخمر . (٧) الجوارى .

الهزيع[1] الأوسط من الليل ، وانفض السامر على أن يعود إلى اجتماعه فى الليالى المقبلة .

فعولت[2] فى نفسى على أن أزين لمحمد ما لا قيت ، وأزيد[3] فيما شاهدت ، وأوسوس[4] له حتى يسمر مع القوم ، لأنظر ما يبدى وما يعيد[5] فمحمد فتى من قريش ، ولكنه نسيج وحده[6] فى أخلاقه ؛ أتراه يقر لهوهم ، ويدلى فيه بدلوهم ، أم يفعل مثل ما فعلت ، أم يزيد عنى أشياء ؟!

وما زلت بمحمد أفتله فى الذروة والغارب[7] ، وأتمهد له بالحراسة إلى أن يثوب ، حتى بلغت منه ما أريد .

* * *

ومضى إلى مكة ، وأخذ الليل ينطوى[8] ، وطال انتظارى لرجوعه ، وأنا فى أثناء ذلك . يتنازعنى الفكر فى محمد ، وما حمل فى ليلته هذه ؛ أتراه مال لإحدى الفتيات ، فبات يروى شفتيه من شفتيها ، كما تفعل قريش جميعا ، أم أخذته سنة[9] فى المجلس فنام حيث جلس ، وانفض السامر[10] ، وبقى فى نادى القوم ؛ وتزاحمت على الهواجس وتبلبل[11] الفكر ، وطال الليل ثم طال ، ثم أسفر الصباح ، وارتفعت الشمس ، فإذا محمد يقبل على محييا

---

(١) الجزء (٢) عزمت . (٣) أبالغ . (٤) أزين .
(٥) مايفعل أولا وآخرا . (٦) لانظير له . (٧) أمكر به . (٨) ينحنى .
(٩) غمضة خفيفة . (١٠) المحتفلون ليلا . (١١) اضطرب

فأظهرتُ له بَشاشةً[١] واغتباطاً ، لأبسُطَ من نفسه ، حتى يحدِّثَني ويُطيلَ الحديثَ ، ولا يُخفي عنِّي شيئاً .

فقال : « خرجتُ فلمَّا جئتُ أدْنَى[٢] دارٍ مِنْ دُورِ مكَّةَ ، سمعتُ غِناءً وصوتَ دُفوفٍ ومزامِيرَ ، فقلتُ : ماهٰذا ؟ قالوا : فلانٌ تزوَّجَ فُلانَةَ ، فلهَوْتُ بذٰلكَ الصَّوْتِ ، حتَّى غلبَتْني عَيْني فنِمْتُ ، فما أيقظَني إلا مَسُّ الشَّمْسِ » .

فقلت : وَيْحَكَ[٣] ! وأينَ لهَوْتَ بذلكَ الصَّوْتِ ؟

قال : في خارجِ الدَّارِ .

قلت : وكانَ قدْ بقِيَ لكَ عَلَى الجنَّةِ خُطُوَاتٌ ، وترَى الحُورَ[٤] الحِسانَ ! أتراكَ لمْ تعمَلْ ؟

قال : ما رأيتُ شيئاً ، وإنَّما غلبَ النَّوْمُ عَلَيَّ فنِمْتُ ، فلمْ أصْحُ إلاَّ عَلَى حَرِّ الشمسِ !

قلت : كأنكَ لم تذهَبْ ولمْ تأتِ ! فلوْ عَلِمْتَ ماهُنالِكَ لتجشَّمْتَ[٥] أن تذْهَبَ إليْه ، ولوْ كانَ بينكَ وبينَهُ فراسخُ ، فكيْفَ وهو بجوارِكَ ؟ وما أُحِبُّ أنْ أُحْرِمَكَ ماتمتَّعْتُ بِهِ ، فلا تنسَ أنْ تذهبَ اللَّيْلةَ ، وحَذارِ[٦] أنْ يلعَبَ النَّوْمُ بعَيْنِكَ .

---

(١) سرورا . (٢) أقرب . (٣) رحمة لك
(٤) الجميلات . (٥) لتحملت . (٦) احذر .

وذهبَ محمدٌ ثانيةً ، ولكنْ حيثُ ذهبَ أوّلَ مرّةٍ ، ذهبَ لينامَ في خارجِ الدّارِ ويمحُو على حرِّ الشّمسِ ، وعادَ إلى لمْ يرَ شيئًا ، ولم يسمعْ شيئًا ، فأدركتُ أنّهُ مصروفٌ عنْ كلِّ ما يشينُ[1] الشّبابَ ، وأنّ اللهَ يبغي من وراءِ ذلكَ أمرًا ، فلمْ أحاولْ بعدَ ذلكَ إغراءَهُ[2] وإغواءَهُ[3] .

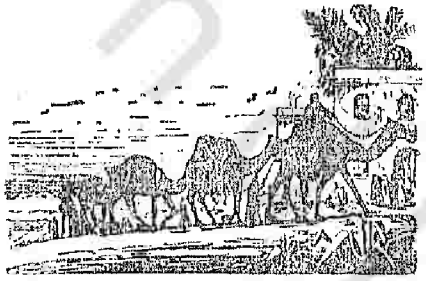

(١) يعيب . (٢) تحسين الشيء له . (٣) ضلاله .

وسمع أبو طالب أنّ قافلة[١] قريش تُزمع[٢] السّفر إلى الشام فى رحلة الصّيف ، وأنّ « خديجة بنت خويلد » السّريّة النّبيلة تبحث عن رجل أمين ليسافر بتجارتها على أن تعطيه جملين أجرًا .

فذهب أبو طالب إليها يعرض عليها محمداً ، على أن ينال أجره أربعة جمال .

فقالت خديجة : إنّك لو جئت فى ذلك لشخص غريب لفعلت ، فكيف بالقريب الحبيب ؟

ورغبت السيّدة فى أن تكرم محمداً وتعينه فى سفره ، فأرسلت معه غلامها « ميسرة » ليخدمه فى طريقه .

قال سارح : وجمعت تجارة لى ، وسرت فى قافلته .

فلمّا فصلت[٣] العير عن مكّة ، أغذّ[٤] القوم مطاياهم ، وأنضوا[٥] ركائبهم كى يكونوا أوّل من يدخل قرى الشام ، وأوّل من يفوز بالبيع السّريع ، والرّبح الباهظ .

أمّا محمد فلم يرض أن يفعل بإبله ما يفعل القوم ، ومشى قصدًا[٦]

---

(١) الجماعة المسافرة . (٢) تريد . (٣) خرجت .
(٤) أسرع . (٥) أتعبوا . (٦) مشيا معتدلا .

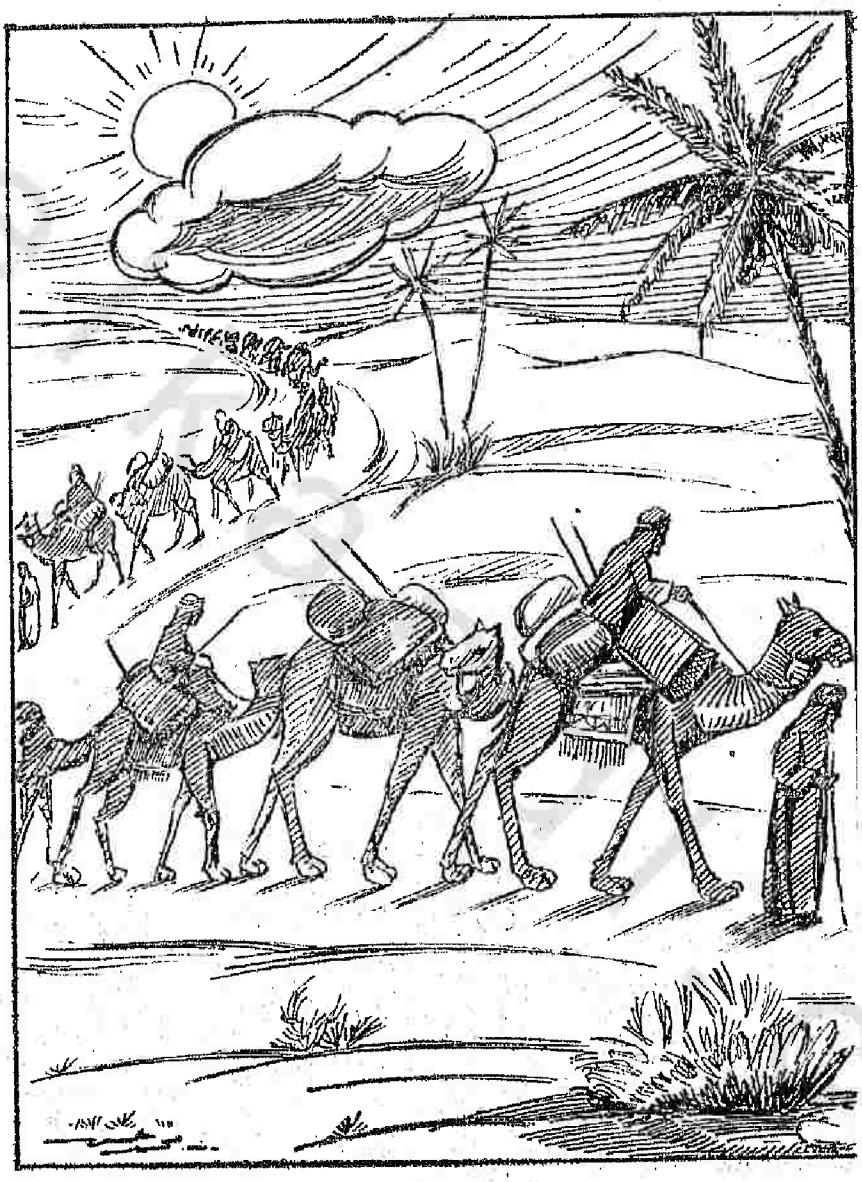

قافلة قريش

وأخذ يقول : كيف نحمل الركائب على الصعب ، وفيها الهزيل والمريض ؟ .

« إن المنبت[1] لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » ، وكيف أحمل أصحابي على أن يسيروا هذا السير ، وينضوا أنفسهم ، ولا يخلو الركب من مجهود[2] أو ضعيف ، أفنقذف بحياة أصحابنا لنحظى برمح موهوم ؟ ألا « إن الضعيف أمير الركب[3] » نسير بسيره ، ونحط رحالنا عند مشيئته ، وما كتب الله لنا من رزق ، فلن يفوتنا أبدا .

فاختارت طائفة من القافلة أن تسير مع محمد ، واستبق الأكثرون ، يسوقهم حرص مهين[4] !

وسرنا نتمتع بحديث محمد وحنانه ، وإنه ليرعى كبيرنا وصغيرنا ، ويتفقد متاعنا ودوابنا ، فيخفف عن المريض حتى يبرأ ، ويتعهد الجريح بالعلاج حتى يشفى ، ويداعب النشيط ليزداد نشاطه ، ولقد كنت أعرف أن السفر التاصب[5] قطعة من العذاب ، يستفزه[6] الحليم ، ويضيق من صدر الكريم ، فتمر به لحظات يخرج فيها عن طوره[7] ، وتسوء حاله بين أصحابه أما محمد فبقيت له نفسه الصافية ، وصفحته الناضرة ، فما حزبنا[8] أمر إلا رجعنا إليه نلتمس المخلص ، فنجد الحل الموفق ، والأخ المحمول .

---

(١) المنبت : الذى يحمل دابته على السير فوق طاقتها ، فتسقط منه وتبرك .
(٢) متعب . (٣) يكون كالأمير فى جماعته ، حيث يراعون ضعفه ، ويشفقون عليه .
(٤) ذليل حقير .
(٥) المتعب . (٦) يثير . (٧) حاله . (٨) اشتد بنا .

جعلَ مِن قافِلَتِنا أُسْرَةً كالجَسَدِ الواحدِ بأعْضائِهِ ، كلٌّ مُضْطَرٌ يعملُ ، وفي هذا العملِ حياةُ الجسدِ ورَغَدُهُ .

فكُنَّا إذا حَطَطْنا رِحالَنا ، وأَرَدْنا الطَّعامَ ، سعَى كلُّ فردٍ منا ليعملَ عملاً ، فهذا يجهِّزُ لنا مأْكلَنا ، وذاكَ يَغْسِلُ الآنيةَ ، وذلكَ يقومُ بالطَّبْخِ . أما محمد فيأخذُ العملَ الّذي أُبَيِّنُهُ لِتَعَسُّرِهِ وتَصَعُّبِه ، فكَمْ مرَّةً صعِدَ إلى شِعافِ الجبالِ ، أو هبطَ إلى بطونِ الأَوْدِيةِ ، يَحْتَطِبُ[1] مِمَّا تُنْبِتُ الصحراء ، ثمَّ رجعَ إلينا وعلَى ظهرِهِ حُزْمَةٌ منَ الحطَبِ ، وإنَّ أَيْدِيَهُ الرَّقيقةَ لَتَدْمَى[2] جِراحًا !

وكُنَّا إذا ضَرَبْنا خيامَنا في هَدْأَةِ[3] اللَّيلِ ، أوْ في الهاجرةِ[4] ، وجعَلْنا منَّا مَنْ يَحْرُسُ ومنَّا مَنْ ينامُ ، واختارَ كلُّ فردٍ ساعةَ حِراسَتِه ، أَخذَ محمدٌ مانكصَ[5] عنه الآخرونَ ، فقامَ علينا قوْمَةَ الحَدِبِ الشَّفيقِ . ولمْ يكُنْ يُفرِّقُ بينَ سَيِّدٍ في الرَّكْبِ ومَسُودٍ ، فَمَيْسَرَةٌ له راحَتُه وهناءَتُهُ ، كسَيِّدِه سَواء ! .

فلا عجَبَ أنْ رأَينا المَوالِيَ[6] قدْ أحبُّوا محمداً ، وأَفْرطُوا[7] في حُبِّه ، ورأَوْا فيهِ مالَمْ يرَوْا فِينا ، وتنازَعوا على مَرْضاتِه وخِدْمَتِه ، فكانَ يأْبَى إلاَّ أنْ يَعْمَلَ مِثْلَهُمْ ؛ ويَخْدُمَ خِدْمَتَهُمْ ، ويردِّد : « سَيِّدُ القَوْمِ خادِمُهُمْ » .

---

(١) يطلب الحطب . (٢) يسيل دمها . (٣) سكون .
(٤) وقت اشتداد الحر . (٥) تأخر . (٦) العبيد . (٧) بالغوا .

ووصلنا إلى قُرَى الشَّام ، وعرضنا وعرَضَ محمدٌ ما نَحْمِلُ من تجارة ، فتَفَرَّسَ[1] القومُ فينا ، ثمَّ وقَفُوا عَلَى محمد ، واستَعْرَضُوا ما معه ، وصَدَّقَهُمْ محمدٌ الحديثَ ، فليسَ كلٌّ مايَحْمِلُ من السُّيوفِ يَمَانِيًا[2] ، ولا كلٌّ مايحمل من الوَشْيِ صَنْعَانِيًا[3] ، ولا كلُّ جَزْعٍ من ظَفَارِ[4] ، ولا كل تَابِلٍ[5] من الهِنْدِ ، ولا كلُّ عاجٍ من الحَبَشَةِ . فلمْ يَزْعُمْ لهم مازعَم الأقوامُ ، فرأَوْا شخصاً عربيًّا غريباً ، وقُرَشِيًّا فريدًا ، لايجْرِى لسانُه بتَزْوِيرٍ[6] ، ولا يخدَعُهُمْ بِأَيْمَان ، وباطلِ بُرْهان ، فتسابقُوا إليه ، وابْتاعوا مامعه ، وأرادَ أن يشترىَ محمد من بضاعتهم ما يَنْفُقُ[7] فى أسْواقِ الحجازِ واليمنِ ، فَصدَّقوهُ القولَ كما صَدَقَهم ، وحَمَّلوه طُرَفَ[8] الشام ، وتُحَفَ فارسَ والرُّوم .

ورَأَى « مَيْسَرَةُ » بعَيْنِه ما فعلَ محمدٌ ، فازْدادَ له حُبًّا ؛ وبه إعجاباً ، وفعَلْنا أصحابَ محمدٍ كما فعَلَ ، ورَغِبْنا فيما رَغِبَ فيه ، فراجَتْ بضاعَتُنا ، وتَحَفَّفْنا مِن تِجارتنا ، وربِحْنا أضعافَ ما كُنَّا نربَحُهُ فى سابِقِ أَيَّامِنا ، ورَجَعْنا مَعَ النَّاسِ إلى مكةَ .

* * *

وَسَبقنَا « مَيْسَرَةُ » إلى خديجةَ ، فَقَصَّ عليها ماشاهدَ بِعَيْنِه ، وَسمِعَ

---

(١) تطلعوا بأعينهم . (٢) من اليمن . (٣) من صنعاء باليمن .
(٤) ظفار : مدينة كبيرة باليمن . والجزع : خرز جميل مخطط . (٥) المواد الحريفة كالفلفل .
(٦) بتحسين غير الحسن . (٧) يروج (٨) تحف .

بأذنه ، وحكى لها من أخلاقِهِ الكريمةِ ، وأمانتِهِ الرَّاجحةِ ، فطابَتْ نفسُها ، وتهلَّلَتْ بِشْرًا لِمَقْدَمِهِ .

وما كاد محمدٌ يدخلُ عليها حتى تلقَّتْهُ تلقِّيَ الكريمِ للكريمِ ، والقريبِ للقريبِ ، فنزلَ عندها أهلاً ، وأعطاها مارزقَهُ اللهُ به ، وحدَّثها حديثاً قَصْدًا[1] ، فأثنَتْ عليهِ خديجةُ ، وقامتْ إلى مِرْبَدِ[2] إبلِها ، فساقَتْ لهُ عشرةَ جِمالٍ طابَتْ بها نفسُها ، كيْ يأخذَها محمدٌ جزاءَ أمانتِهِ وإخلاصِه ، وأبَى محمدٌ أنْ يأخذَ إلاَّ ماعاقدَها عليهِ ، وقنِعَ منها بأربعةٍ ، وخرجَ مِنْ عندِها راضيَ النَّفْسِ مَرْضِيًّا .

أما محمدٌ فحمِدَ اللهَ الَّذي أعانَهُ ليَجْزِيَ مَنْ أحسنَ إليه إحساناً بإحسانٍ ، فأجْرَى على يديه الرزقَ السابغَ[3] ، فأفادَ واستفادَ ، وشكرَ اللهَ الذي علَّمَهُ التجارةَ ، والتَّكسُّبَ بها ؛ وشكرَ لتلكَ السيدةِ فضيلتَها ، إذِ اختارتْهُ من فتيانِ قُرَيْشٍ ، وضاعفتْ بِرَّهُ وأجْرَه ، ثم شاءتْ أنْ تَزيدَهُ ، وتُسْبِغَ عليه رِزْقَه .

لاشكَّ أنها سيدةٌ بِنْتُ ساداتٍ ، مِنْ أطْهَرِ أُرُومةٍ[4] وأشرفِ خُؤُولةٍ وعُمومةٍ ، ثم هُوَ لا يَنْسَى حَفاوَتَها[5] به ؛ وحُسْنَ استقبالِها له ، وجميلَ تَشْييعِها[6] عندَ خروجِهِ من حَضْرَتِها ، فزادَ حَمْدًا للهِ أنْ هَداهُ لِصالحةٍ من الصَّالحين .

---

(١) معتدلا وسطا .
(٢) حظيرة الإبل ومناخها .
(٣) الكثير الواسع .
(٤) أصل .
(٥) احتفالها .
(٦) توديعها له .

أمّا خديجةُ فقد انطبعتْ صورةُ محمدٍ فى نفسِها صافيةً نقيّةً ، كاملةً مُكمّلةً ، فهى لا تَنْسى ما حدّثها به غلامُها ، وما بدا منهُ من آياتِ الخُلُقِ الكريمِ بين يديْها ، ولمْ تنسَ تعفُّفَ نفسِهِ على رِزْقِهِ الكفافِ (١) ، فلمْ يقبلْ ما تبرّعتْ به له ؛ ولو كانَ أحدٌ غيرهُ لاستبقَ إليهِ استباقاً ، وطلبَ المزيد .

لا جرمَ (٢) أنّه فتى لا كالفتيانِ ، يرى الغِنَى غِنَى النّفْسِ ، لا غِنَى المالِ ، ويَرَى الحسبَ فى العملِ والكسبِ الحلالِ ، لا فى القُعودِ والتّباهى بكرمِ الآباءِ والأجداد ؛ فما أيْمنَ (٣) دارًا تؤْويه ! وما أسعدَ حليلةً (٤) تبغيه !

أجَلْ ، ما أسعدَهُ زوْجًا لصاحبتِه ، وتاجرًا أمينًا فى تجارتِه ! ويالَيْتَ الزمانَ يسوقُ لها بَعْلاً مثلَ محمدٍ ! إذَنْ لوجدَتْ سعادةَ الدنيا تتجمّعُ إليها ، ولكنْ أنّى الفتيانِ مِثْلُ محمد ، رَجاحةَ (٥) عقلٍ ، وصَباحةَ (٦) وَجْهٍ ، وسجاحةَ (٧) خُلُقٍ ؟ ! إنّه لاشكَّ فريدٌ بين النّاس .

واسْتَبعدَتْ أن يطْمعَ فيها محمدٌ ؛ فإنها وإن كانتِ الكريمةَ بِنْتَ الكرامِ ، تكبُرُهُ بخمْسَةَ عشرَ رَبيعًا ، وذلك عُمْرٌ طويلٌ ! فمحمدٌ لا يزالُ فى عَنفوانِ (٨) الشّبابِ ، وَمَيْعَةِ (٩) الصِّبا ، فى الخامسةِ والعشرينَ ؛ وأمّا هِىَ فقد دَلَفَتْ (١٠) إلى الأرْبعينَ ، وَمَضَى الكثيرُ من شَبابِها وَوَضاءَتِها (١١)

---

(١) القليل الذى لا يزيد عن الحاجة .
(٢) لاشك
(٣) ما أكثرها بركة .
(٤) زوجة .
(٥) رزانة .
(٦) جمال .
(٧) سهولة .
(٨) نضرة .
(٩) شدة .
(١٠) أسرعت .
(١١) جمالها

ومحمد بِكْرٌ[1] لا عَهْدَ له بالنِّساء ، وأمَّا هِيَ فأيِّمٌ[2] قد تزوَّجتْ برجلين مِنْ قَبْلُ ، ومَعَها أطفالٌ ؛ والفتى بالفتاةِ أولَعُ[3] ، وفي المرأةِ أزْهَدُ ؛ وقلَّ مَنْ يتَوَسَّمُ في المرأةِ أخْلاقَها ، فتَرْجَحُ[4] في عينِهِ جمالُ الفتياتِ ، وسِحْرُ الغَوانِي[5] ! ولكنْ مَنْ يَدْرِي أنَّ محمداً ليس من هذا القليلِ ، وأنَّهُ يَرْغَبُ فيمَنْ يرغبُ فيه ، ويَشْتري مَنْ يَشْتريه .

وقامَتِ الفكرةُ في رأسِها وقعَدَتْ ، وألَحَّتْ عليها أيَّاماً ، وتراءتْ لها في النَّوْمِ واليقظةِ بِصُوَرٍ وشُكُولٍ شتَّى .

قال سارح :

وأرسلَتْ خديجةُ إلى أُمِّي وكانت صديقةً لها ، وأفْضَتْ إليها بذاتِ نفسِها[6] ، وأرسلَتْها إلى محمدٍ تَلْحَنُ[7] له بأمرِها .

فلمَّا ذَهَبَتْ إليه ، أخذتْ تَسْتَدْرِجُه[8] حتى قالت :

— : ما يَمْنَعُكَ أنْ تتزوَّجَ ؟

محمد : « ما بِيَدِي ما أتزوجُ به »

— : فإنْ كُفِيتَ ذلكَ ، ودُعِيتَ إلى المالِ والجمالِ ، والشَّرَفِ والكفايةِ ، ألا تُجيب ؟

محمد : « ومَنْ هي ؟ »

— : خديجة !

---

(١) لم يتزوج .
(٢) توفي عنها أزواجها .
(٣) أشد غراما .
(٤) تزن .
(٥) الحسان .
(٦) بسرها .
(٧) تعرض .
(٨) تجره إلى الحديث

محمد : « وكيف لي بذلك ؟ »

: عَلَيَّ وأنا أفعل .

قالت أمي : فرأيته وقد تهلل وجهه واهتز بشرا ؛ فانقلبت إلى خديجة أحمل لها البشرى ، فطربت ما شاءت أن تطرب ، واهتزت في الحال وربت[1] وبدت طفلة غضة للناظرين !

وذهب محمد إلى عمه أبي طالب ، يعرض عليه أمره ، فقال :

نعم ما اخترت يا بني ، فالنجيبة كفء النجيب[2] !

قال محمد : وتزعم أنها تكفيني صداقها[3] ، ولا أرضى بذلك .

أبو طالب : أما صداقها فمحمول[4] علي ، وأنا أستوفيه منك ما شاء الله أن يعطيك .

قال سارح : فطابت نفس محمد ، وذهبنا مع رهط من عمومته إلى دار خديجة ، فوجدناها تعمر بقومها[5] ، وجلسنا إلى وليمة حافلة ، فأكلنا ما استطبنا ، فلما فرغنا من طعامنا ، قام فينا « أبو طالب » فقال فيما قال :

« الحمد لله الذي جعلنا من ذرية[6] إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتا محجوجا[7] وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس .

ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله ، لا يوزن به رجل إلا رجح[8] ،

---

(١) زادت ونمت .
(٢) الكريمة أهل لكريم .
(٣) مهرها .
(٤) أنا كفيل به .
(٥) تزدحم بهم .
(٦) نسل .
(٧) البيت : الكعبة .
(٨) زاد فضلا .

وإن كان في المالِ قلاً[1] ، فالمالُ ظِلٌّ زائلٌ ، وأمرٌ حائلٌ[2] ؛ ومحمدٌ قد خطبَ خديجةَ بنتَ خُوَيلدٍ ، وبذلَ لها منَ الصداقِ ما آجلُهُ وعاجلُهُ عشرونَ بَكْرةً[3] منْ مالي ... »

ثم جلس فقامَ منْ بعدِه « عَمْرُو بن أسدٍ » عمُّ خديجةَ ، فقالَ :

« اشهدُوا عَلَيَّ يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ أنِّي زوَّجْتُ خديجةَ بنتَ خُوَيلدٍ منْ محمدِ ابنِ عبدِ الله ، وأنَّهُ أصْدَقَها[4] كذا وكذا ... »

وانقلَبْنا[5] إلى ديارِنا مَسرُورينَ مُغْتبطينَ ، بعدَ أنْ بارَكْنا الزَّوْجيْنِ ، ودعَوْنا لهما بالتَّوْفيقِ والبَنينِ .

وانضمَّ محمدٌ إلى عُشِّ خديجةَ ، فكانَ قُرَّةَ عَيْنِها ، وثمرةَ فؤادِها ، وكانت قُرَّةَ عَيْنِهِ ، وثمرةَ فؤادِه ، ورزقهما اللهُ بَنينَ وبناتٍ ، وانطَوَى مَنْزِلُهما عَلَى أفضلِ زَوجيْنِ وأخْلَصِ حَبيبَيْنِ .

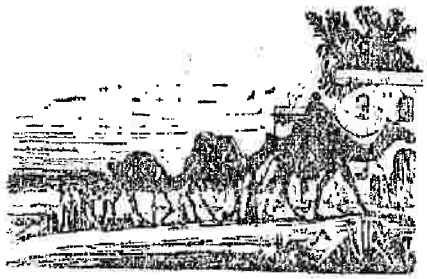

---

(١) قليل المال (٢) أمر متغير (٣) ناقة .
(٤) أعطاها مهرا (٥) رجعنا

وَآنَ لِلْمُضْجِرِ الْجَهُودِ[1] أَنْ يُلْقِيَ عَصَاهُ فِي الْوَاحَةِ الْوَرِيفَةِ[2]، وَالرَّوْضَةِ الْفَيْنَاءَةِ[3]، فَيَتَنَسَّمَ[4] مِنْهَا نَسْمَةَ الرَّاحَةِ، وَيَسْتَرْوِحَ[4] فِي ظِلِّهَا نَسِيمَ الْحَيَاةِ

وَحَنَا قَلْبُ « خَدِيجَةَ » عَلَى قَلْبِ الْحَبِيبِ، فَأَنْسَاهُ يُتْمَهُ الْمُبَكِّرَ، وَجَدَّدَ لَهُ حَنَانَ « آمِنَةَ » وَعَطْفَ « عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ».

أَجَلْ، لَقَدْ وَجَدَهَا قَدْ جَمَعَتْ مِنْ مَعَانِي الْمَوَدَّةِ وَالْوَفَاءِ، مَا لَا يَتَيَسَّرُ لِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ هِيَ بَعْدَ ذَلِكَ قَدْ بَسَطَتْ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَتِهَا، وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَمْوَالَهَا، لِيَتَسَبَّبَ[5] لَهَا، فَأَصْبَحَ مُحَمَّدٌ غَنِيًّا بِهَا، قَدْ جَمَعَ إِلَى الْحَسَبِ نَشَبًا[6]

فَمِرْبَدُ خَدِيجَةَ يَزْدَحِمُ بِالْإِبِلِ الْهِجَانِ[7]، وَمَرَابِضُ[8] غَنَمِهَا يَمْلَأُ مَا بَيْنَ جَنَبَاتِ الْوَادِي، وَالْمَالُ جَمٌّ، وَالْمَوَالِي كَثِيرٌ، وَمُحَمَّدٌ يَتَصَرَّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، تَصَرُّفَ السَّيِّدِ الْمَالِكِ، فَلَا يَرَى مِنْ خَدِيجَةَ إِلَّا عَوْنًا عَلَى الْبِرِّ، وَاسْتِبَاقًا[9] إِلَى الْخَيْرِ

* * *

(١) سالك الصحراء المتعب . (٢) الممتدة الظل . (٣) ذات الفروع الطويلة .
(٤) يستنشق . (٥) ليتاجر . (٦) مالا .
(٧) الكريمة . (٨) حظيرة الغنم . (٩) إسراعا .

وكانَ فيما كانَ خديجةَ غُلامٌ آدَمُ[1] ، شَديدُ الأُدْمَةِ ، قصيرٌ أفطسُ[2] الأنفِ ، ولكنَّه حَرِكٌ[3] خفيفُ الظلِّ ، أحَبَّ محمداً مِلْءَ فؤادِه وتفانَى في خِدمَتِه ، وجازاه الكريمُ حُبًّا بحُبٍّ ، وَوَلاءً بوَلاءٍ ، فصارَ لا يَطْعَمُ طَعامًا ، ولا يَشْرَبُ شَرابًا ، ولا يَلْبَسُ لِباساً إلاَّ أشْرَكَهُ في كلِّ ذلك .

فسألَ يومًا خديجةَ عنه : كيفَ وَصلَ إليكِ هذا الغلام ؟

خديجة : اشْتَراهُ لِي ابنُ أخِي « حكيمُ بْنُ حِزامٍ » مِنْ عُكاظَ .

— : وهلْ عرَفْتِ قَوْمَه ؟

خديجة : يَزْعُمُ أنه مِنَ العربِ مِنْ قَبيلةِ « كَلْب » اخْتُطِفَ مِنْ أهلِه صَغيراً ، وبِيعَ في الأسْواقِ حَتَّى وَصَلَ إليَّ .

— : لقد صَدَقَكِ الغلامُ ، فأخْلاقُهُ أخلاقُ عربيٍّ ، ونَفْسُهُ نَفْسُ حُرٍّ أَبِيٍّ ، وما كانتِ العربُ لِتَبيعَ أوْلادَها .

خديجة : أراكَ به يا محمدُ حَفِيًّا[4] ، هُوَ لَكَ ، وحَبْلُهُ[5] بينَ يَدَيْكَ ، فأَمْسِكْ إنْ شِئْتَ ، أوْدَعْ[6] .

— : لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بعْدَ ذلكَ أمْرًا .

ولم يَمْضِ إلاَّ زمَنٌ يَسيرٌ ، حتَّى سَمِعَ قومُ « زَيْدٍ » بأنَّ وَلَدَهُمْ عندَ محمدٍ ، فجاءوا يَسْتَنْقِذُونَه[7] ويَفْتَدونَه[8]

---

(١) أسمر .
(٢) غير مرتفع القصبة .
(٣) كثير الحركة ، نشيط
(٤) محتفلا مهتما .
(٥) مصيره ، وفك رقبته .
(٦) أبقه أو أطلقه .
(٧) يطلبون إنقاذه .
(٨) يدفعون فديته .

وكان محمدٌ يجلسُ فى المسجدِ الحرامِ ، فرأى جماعةً من الأعرابِ ، عليهم سيما[1] اليسارِ ، يستشهدُونَ الناسَ ، فأشارُوا إليه ، ويمّموا[2] شطرَه .

فلمّا وقفُوا على رأسِه ، حيّوْهُ ، وقالَ أحدُهُمْ : يابْنَ هاشمٍ ، يابْنَ سيّدِ قومِه ! أنتُمْ أهـــلُ حرمِ اللهِ وجيرانُهُ ، تفكُّونَ العانِيَ[3] ، وتطلقون الأسيرَ ، جئْناكَ فى ابْنِنا عَبْدِكَ ، فامْنُنْ علينا[4] ، وأحْسِنْ إلينا فى فدائِه .

قال محمد : ومَن هو ؟

— : زيدُ بن حارثة .

محمد : « أدْعوه فأُخيّرُه ، فإنِ اختارَكُمْ فهُوَ لكُمْ ، وإنْ اختارَنِى فوَاللهِ ما أنا بالذى أختارُ على مَنْ اختارَنِى أحدًا » .

— : لقدْ زِدْتَنا عن النَّصْفِ[5] وأحْسَنْتَ !

وسرَى البِشْرُ فى وجوهِ القومِ ، وظنُّوا أنَّ فداهم لامحالةَ[6] راجعٌ إليهم ، ينطلقِ انطلاقةَ الطائرِ مِنْ قفصِه ، وأنَّ أمَّه عما قريبٍ ستحظَى برُؤيتِه ، وتنعمُ بضمِّه وشمِّه ، فيبْرُدُ غليلُها[7] ، وترتدُّ إليها نفسُها !

وبعثوا مَنْ يستدعِى « زيدًا » ، ويهنّئُه بساعةِ فكاكِه[8] ، ورجوعِه إلى موْطنه وعشيرته !

---

(١) علامة .
(٢) قصدوا .
(٣) الأسير
(٤) تعطف وتكرم
(٥) العدل والإنصاف
(٦) لابد .
(٧) عطشها لرؤيته
(٨) إطلاق سراحه .

وجاء « زيد » فلما رأى أهله بكى ، وذهب إليهم يعانقهم ويعانقونه ! ففرح القوم بهذا اللقاء الجميل ، واستيقنوا نجاح قصدهم .

ثم وقف زيد أمام محمد قائلا : ما تريد يا مولاى ؟

محمد : أتعرف هؤلاء ؟

زيد : نعم ، هذا أبى ، وهذا عمى ، وهؤلاء عشيرتى .

محمد : « وأنا من قد علمت ، ورأيت محبتى لك ، قد جاء قومك اليوم يستنقذونك ويفتدونك ، فاختر نى أو اخترهم » .

زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى مكان الأب والعم !.

وما نطق « زيد » كلماته حتى بهت القوم وأبلسوا[1] ! ونظر بعضهم إلى بعض ، يقلبون أيديهم ، ولا يصدقون ما يسمعون ، وأخذوا يتساءلون : أترى زيد مسحوراً ينطق بلسانه مالا يعيه[2] ؟ أم غشى[3] على بصره فلا يرى آله وذويه ، أم أصابه مس من الجن[4] ، فأخذ يتخبط فى ديان من التيه[5] !

ثم صاحوا بلسان واحد ، وما أطاقوا صبرا ، ولا راعوا كرم الكريم : « ويحك يا زيد[6] ! أتختار العبودية على الحرية ؟ » .

---

(١) تحيروا .
(٢) يفهمه
(٣) غطى
(٤) خبل من الشياطين
(٥) الضلال
(٦) ويل لك .

زيد : لقَدْ رأيتُ من هٰذا الرَّجُلِ ، ما أنا بالَّذي أختارُ عليه أحَدًا ! ولو رأيتُمْ مِثْلَ ما رأيتُ ، لهانَ عليكم أنْ تفعلوا فِعْلي ، وتكونوا مِثْلي !

فلما رأى محمدٌ من « زيدٍ » ما رأى ؛ زاد إيمانًا أنَّ قلبَ الفتى حُرٌّ لاينبغي أنْ يُسْتَرَقَّ ، وأرادَ أنْ يُرْضِيَ قومَه الغاضبينَ ، فأمْسَكَ بيدِ « زيد » ؛ وسارَ به حتَّى أتَى « الحِجْرَ[1] » من المَسْجِدِ الحرام ؛ وسارَ القومُ خلْفَه ، ثم وقفَ محمدٌ وقال :

« يامَنْ حضَرَ مِنْ قُرَيْشٍ وسائرِ العرَبِ ، اشْهَدُوا أنَّ زيدًا ابْني يَرِثُني وَأَرِثُه » ، وأنَّهُ حُرٌّ أمْرُهُ بيدِه .

فلمَّا رأى القومُ ذلكَ قالوا : الآنَ طابتْ نفوسُنا ! يا زَيْدُ عليْكَ بهذا الرَّجُلِ الكريم فلنْ ترَى مِثْلَهُ أحَدًا .

ورجعَ القومُ إلى أهْلِيهِمْ يتحدَّثونَ عن فتى قُرَيْشٍ الأمينِ .

* * *

وفي يومٍ جلَسَ « محمدٌ » يتحدَّثُ مع زَوْجِه « خَدِيجَةَ » إذْ سَمِعَ طَرْقًا بالبابِ ، وإذا به يَنْفَتِحُ عن امرأةٍ أعرابيَّةٍ ، باديةِ البُؤْسِ والضَّراعةِ[2] ، في حالٍ تَسْتَدْعِي الرثاءَ ، وهيَ تقول : أينَ محمدٌ ؟

فلمَّا سَمِعَ صَوْتَها هَشَّ[3] لها ، وخَفَّ لاستقبالِها خِفَّةَ الطِّفلِ الرحيمِ

---

(١) مكان من المسجد الحرام (٢) الذلة . (٣) فرح وسر .

إلى الأمِّ الرءوم[1] ؛ وأخذ يمطرها قبلاً ؛ ويشبهها عناقاً ، وتقرّ عيناه بالدموع ، أنْ رأى سوء حالها !

ونظرت خديجةُ إليهما في دهشة مما شاهدت ، ولم يُخرجها من حيرتها إلاّ قولُهُ : ما حدث بعدي يا أماه ؟ !

قالت حليمةُ : مرّتْ علينا بَعْدَكَ يامحمدُ سنونَ شِدادٌ ، أكلت الخُفَّ والحافرَ[2] ، واصطبرْنا عليها، فدخلنا في أشدّ منها ؛ وإذا البادية قد أسفرت[3] عن حقيقتها ، وفتحت فاهها ، وشحذت[4] أنيابها ، تريدُ أنْ تُبيدَ[5] مَنْ دبَّ على ظهرها ، وتخلقَ من النَّسَمِ النابضِ[6] تلالها ورمالها ! فلما صرّحت[7] عينَاها بالشرِّ ، طِرْنا إلى تُخُومِ[8] الخضرِ ، ولاذ[9] البدوُ بظلالِ الكِرام ، فذكرتُ محمدًا ؛ فقلتُ لنفسي : انتجعيه[10] عسى أنْ يكونَ قد أمرعَ جنابُه[11] ، وسحّتْ أنواؤه[12] !

محمد : أهلاً وسهلا ، يا خديجةُ هذه أمّي « حليمةُ » التي أشبعتني ثديُها ، ونمّاني درُّها ، فما تصنعين لها ؟

خديجة : ما يصنعُ الأبناء البررةُ بالأمّهاتِ الكرام ، أنتَ يامحمدُ ربُّ المالِ ، وفضلُ الله علينا كبيرٌ ، فأعطِها ما شئتَ أنْ تعطيَها .

---

(١) الحنون . (٢) أهلكت الماشيه كلها . (٣) كشفت .
(٤) سنت . (٥) تهلك . (٦) الأحياء .
(٧) أبانت وأظهرت . (٨) حدود . (٩) لجأ .
(١٠) اقصديه . (١١) أخصب . (١٢) كثر خيره .

محمد : خُذِي يا أُمَّاه ما يُصْلِحُ شَأْنَكِ ، وَيُشْبِعُ عليْكِ النَّفْسَ ، فإنَّه مَالُ وَلَدِكِ الَّذي يُحِبُّكِ وَيَبَرُّكِ .

فأخذَتْ « حليمةُ » بِضْعَ[1] شِيَاهٍ قانِعَةً راضِيَةً ، وأخذَ محمد يَسْتَزِيدُها حتَّى أخذَتْ أربعين شاة .

خديجة : وكذلِكَ علينا راحِلَتُكَ الَّتي تَحْمِلُكَ إلى أَهْلِكَ مُكَرَّمَة .

ثم نَهَضَتْ ، وساقَتْ لها ناقةً منَ الْكُومِ الْهِجانِ[2] .

ورجَعَتْ حليمةُ إلَى قَوْمِها ، وهيَ ذاتُ غِنًى ويسارٍ ، تلْهَجُ بذكرِ محمدٍ[3] ، وزَوْجِ محمدٍ ، وتَدْعُو أن يَزِيدَها اللهُ عِزًّا وهَناءً .

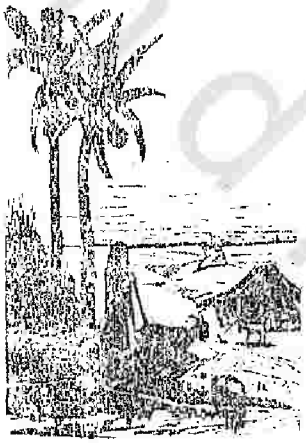

---

(١) عدد بين ثلاثة وتسعة .
(٢) ناقة كريمة سمينة .
(٣) تذكره كثيرا .

قال سارحٌ : وَاتَّصلَتْ أُسْرتى بِأُسْرةِ محمدٍ ، فكنتُ أَقْضِى فى دارِه ساعاتٍ هَنيئةً ، نتجاذبُ أطرافَ الحديثِ ، ونتَساقَى كُئُوسَ المودَّةِ ، ونستعيدُ ذِكْرياتِ الصِّبا فى مَرَحٍ ونَشْوةٍ ، وأَحْياناً كنا نَقْضِى هذه الساعاتِ فى ظِلالِ البيْتِ العَتيقِ (١) .

وَافتقدْتُ محمداً أيَّامًا طويلةً ، لمْ أَلْمَحْه فيها فى الكَعبَةِ أَوْفى طُرقاتِ مكةَ ، فذَهَبْت إليه فى دارِه ، أتعرَّفُ حالَه ، فأَخْبَرنى زيدٌ أنه مُنْذُ عَشْرِ فى جَبَلِ « حِراء » ، قد اعْتكفَ بغارٍ فيه ، وأخَذَ يتحنَّثُ (٢) بِنَجْوةٍ (٣) من العالمِ الصَّاخب .

فسَرَّنى ما علِمْتُ من حالِ صَدِيقى ، وأنَّ انقطاعَه عَنِّى لم يكُنْ لمرضٍ أصابَه ، أَوْ حادثٍ ألَمَّ به (٤) ! وبدا لى أنْ أتركَه فى خَلْوَتِه ، فلا أُعَكِّرَ عليه ساعاتِه الهنيئةَ ، الَّتى هَيَّأَها لنفسه ، فلَوْ كانَ يَبْغِى أحَدًا يُخَالِطُه ، ما بَعُدَ عن مكَّةَ هذا البُعْدَ ، ولا اعتزلَ النَّاسَ هذا الاعتزال !

وما كِدْتُ أقنعُ بهذهِ الفكرةِ وأنْصَرِفُ عَنْ طَلَبِه ، حَتَّى ثارَ فى نَفْسِى شَوْقٌ إليْهِ ، ورَغْبةٌ فى أَنْ أجلسَ إلى نَفْسِه الصافيةِ ، فى تِلْكَ الساعاتِ الخَالِيةِ ، الَّتِى تَزِيدُها صفاءً عَلَى صَفاءٍ !

---

(١) الكعبة . (٢) يتعبد . (٣) بمعزل . (٤) أصابه .

وليتُ بالشَّخص الذى يَدُلُّ على محمدٍ مَوْضِعى منه ، أو تَشْغَلُهُ عنّا بعضُ
زيارتى ، فإنّه يَعْرِف مِقْدَارَ إخلاصى له ، وثَنائى فيه .

وخرجتُ أتلمَّسُ الشِّعابَ فى فجاجِ[1] الوادى ، وسِرْتُ شمالاً زُهاءَ[2]
ساعةٍ حتى اطَّلعتُ[3] على « حِرَاء » فتَمَدَّدْتُ فيه أهْتَدِى بالمعالِمِ الّتى رسمها
لى زيدٌ ، حتى وصلتُ إلى محمدٍ .

فرأيتُه جالساً فى بابِ ذلك الغارِ ، وقد فتح عينَيْهِ على الكَوْنِ الذى حولَه ،
فما يَنْفَلِتُ منه جُزْءٌ إلاّ رُسِمَ فى عَيْنِهِ ، ووَقَعَ فى قلبه ، فبدا الكَوْنُ
مرسوماً فى عينِ محمدٍ ونفسِه ، بسمائِه وأرْضِه ، بِبَرِّه وبَحْرِه ، بنَاسِه وحيوانِه ،
بدقيقِه وجليلِه .

وأصبتُ محمداً وهو فى تفكُّرِه وتذكُّرِه ؛ فأصبتُه فى حال غيرِ حاله التى
أعْهَدُها ، أصبتُه ذِكْرَةً لا إنساناً ، وعَقْلاً طائراً مُرَفْرِفاً على ما حَوْلَه
ومَنْ حَوْلَه .

ومضتْ ساعةٌ ، ينظرُ إلىّ محمدٌ ولا يرانى ، وأخاطِبُه ولا يُجيبنى ،
فأمْسَكْتُ عن الكلامِ ، وجَمَدْتُ فى مَوْضِعى[4] ، فلا أقومُ بحركةٍ حتى
ثابَتْ[5] نفسُه إليه ، وارتَدَّتْ إلى جسمِه البشرىِّ ، فالتفتَ إلىّ يُحَيِّينى ،

---

(١) فجاج : طرق ، جمع فج . (٢) يقرب . (٣) وصلت
(٤) ثبت لا أتحرك . (٥) عادت .

وعلى وجهه دهشة المفاجأة ، فرددت تحيته بمثلها ، واعتذرت له عن زيارتي في هذه الساعة ، وقبل الكريم عذري وأغضى[1] في الحديث .

وسرح[2] محمد بصره في الكون ورددّه ، وسرحت معه البصر إليه ، فبدا لي أني ما رأيته كاليوم بهذا الجمال والجلال ! لقد عظم الكون في عيني عظماً ، قدر ما ضؤلت نفسي ضآلة !

وأشار محمد إلى « مكة » بأصبعه وقال : انظر ، هذه مكة ! فنظرت إليها فإذا هي كالنكتة السوداء في البحر المحيط ، لا يتعرفها بشر البصير إلا بعد تحديق[3] وتدقيق !

ثم قال : هذه دنيا القوم وآخرتهم ، فيها أضدادهم[4] وأهواؤهم ، وفيها فجورهم وضلالهم ، وفيها طغيانهم وكبرياؤهم ، وفيها تفاخرهم وتكاثرهم ، وإن القوم فيها ليحسبون أن الدنيا تتلفت إليهم ، وتضفي نظيرهم وشرهم ، وإنهم لأهون من ذلك .

فها أنت ذا لا تسمع الآن شيئاً من أصدائهم ، ولا ترى أثراً من أشخاصهم ، وهذه بيوتهم تبدو كبيوت النمل أو كبيوت العنكبوت ، وهي منا غير بعيد ؛ ولو شاء ربك لسخر عليهم عاصفاً من الريح[5] ، وفعل بهم ما فعل بعاد وثمود ! ولكنه لطيف بعباده رحيم .

---

(١) أعرض . (٢) أجال . (٣) إعمال النظر
(٤) ضدهم . (٥) الريح الشديدة .

وهم يزعمون أنهم أبناء إبراهيم ، ذلك الشيخ الصالح الذى بنى لهم أول مسجد[1] فى الأرض ، ليكون مثابة[2] للناس وأمنا ، وهداية إلى الله وسبيلا ؛ ولكن شرعان ما ملأته نفوسهم الخبيثة بالرجس[3] ، فأقامت فيه الطواغيت[4] ، ونصبت أحجارا وأخشابا زعمتها آلهة تقربهم إلى الله ، وسمتها أسماء ما أنزل الله بها من سلطان .

وأخذوا يطوفون بها ، ويخضعون لها ، ويقربون لها القرابين ، ويتخذون لها السدنة[5] ، والقوام من الكهنة ، ليضلوا سائر العرب ، فيفعلوا فعلهم ، ويعتقدوا أن قريشا أحب الناس إلى آلهتهم ، وأحرصها على دياناتهم ؛ فلا تزال لهم الشوكة[6] والعزة بينهم ؛ ولا تزال لهم التجارة ، والغنى والترف ؛ ولولا ذلك ما سجدت العقول الناطقة للأحجار الصامتة ، ولا عبد الإنسان حجرا قده[7] بيده من هذا الجبل ونصبه إلها .

وإلا فلماذا لم يعبدوا الجبال وهى أم الأصنام ، ولها رهبة وجلال ؟ كلا ، ولا هذه تستحق العبادة ، إنما يعبد من خلق السماء والأرض ، وخلق الجبال ! ذلك الله الحق ، وما عداه الباطل .

أترى يا سارح هذه الشمس التى تغرب كل يوم ثم تشرق ! أتراها أخلفت يوما سيرها ؟ أم تراها قطعت جزءا من طريقها ثم نكصت على

---

(١) الكعبة . (٢) حمى وملاذا . (٣) النجس والشرك .
(٤) الأصنام المضلة . (٥) الحفظة جمع سادن . (٦) القوة . (٧) قطعه طولا .

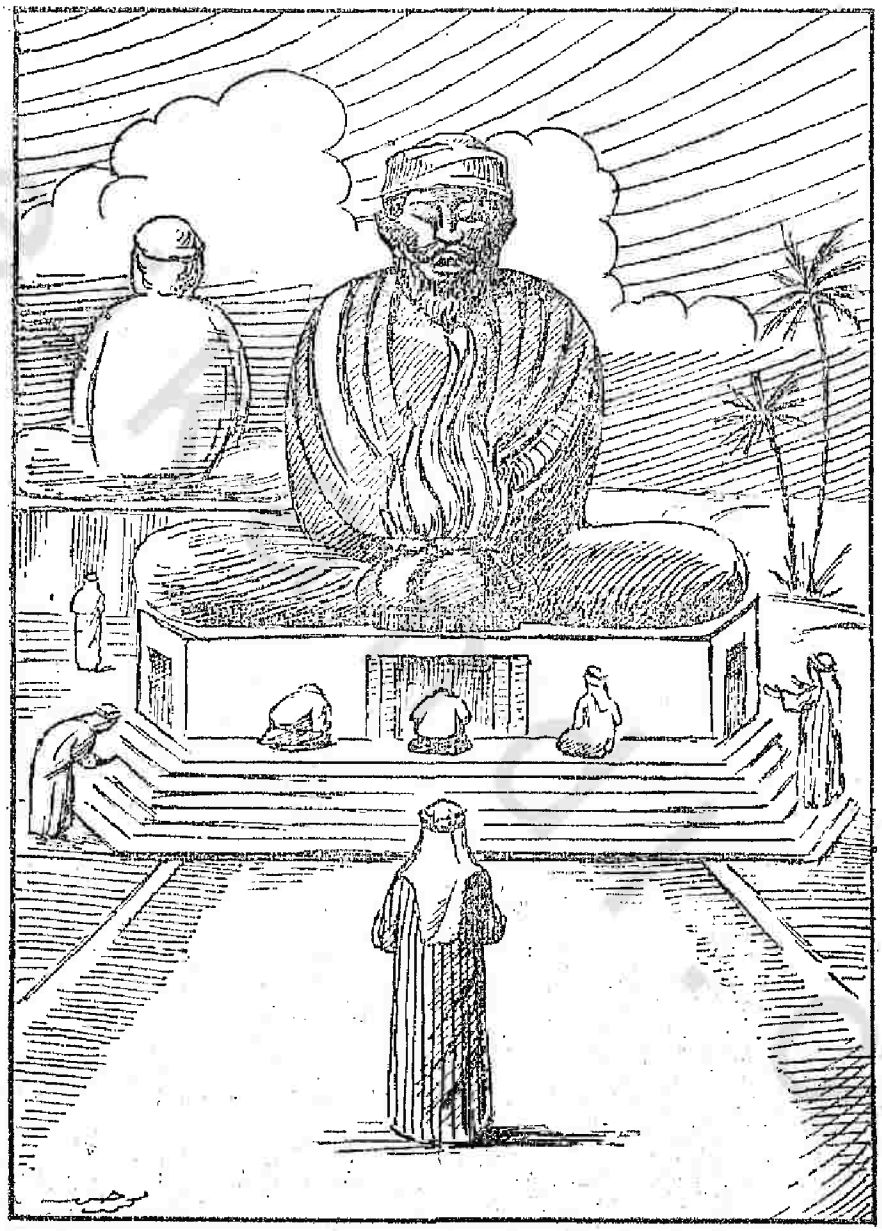

أصنام قريش

إعْقَابِها[١] ! أَمْ تَراها قد اعْتَراها[٢] الوَهْنُ[٣] والكَلالُ[٤] فَتَرَتْ ، ثم رَجَعَ إليها نَشاطُها فأَسْرَعَتْ ؟ أَمْ أنَّها تَسِيرُ فى فَلَكٍ بِحِسابٍ مَعْلُومٍ ؟

مَنْ سَيَّرَها غيرُ اللهِ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شىءٍ خَلَقَه ؟ ذلكَ اللهُ العظيمُ !

ثم إنَّكَ تراها تُنِيرُ الدُّنْيا ، وَإِنَّ أَحَدَنا لَيَصْطَنِعُ له سِراجًا ، فما هى إلَّا نَسْمَةٌ مِنَ الرِّيحِ ، فتَذْهَبُ بِنُورِه ، وأَمَّا نورها فلا تُخْمِدُه هُوجُ الأَعاصِيرِ[٥] ، ولا يُطْفِئُه الماءُ السَّكُوبُ[٦] !

مَنِ الَّذِى أَذْكَى[٧] شُعْلَتَها ، ونَظَّمَ حَرَكَتَها ، غَيْرُ ذلكَ الإِلٰهِ العظيمِ ؟ لا جَرَمَ أنَّه غيرُ الخَشَبِ المُسَنَّدَةِ ، وَلَا الأَحْجارِ الجامِدَةِ التى يَتَمَسَّحُ بها القَوْمُ ويَحْفُونَها ! فإنَّ هٰذه من خَلْقِ الضِّعافِ من البَشَرِ ، وحاشَا أن يَصْنَعَ الضَّعِيفُ العاجزُ قَوِيًّا قادِرًا !

ثم انْظُرْ ياسارِحُ إلى هذا الجبلِ ، إنَّكَ لَتَرَى فيه صَخْرًا مُتَماسِكًا ، وَقُنَنًا[٨] عِظَامًا ، ويَعْجِزُ الناسُ أَجْمَعُ ، أنْ يَخْلُقُوا خَلْقَه ، وَيَبْنُوا مِثْلَه !

إنَّهم يَبْنُونَ الدِّيارَ التى تُؤْوِيهِم ، وإنَّ أَحَدَهم لَيُجْهِدُ نَفْسَه أن يُحْكِمَ البِناءَ ، فيَضُمَّ الحجرَ إلَى الحَجَرِ ، ويُمْسِكَهُ بالآجُرِّ والشِّيدِ[٩] ، والسَّاجِ[١٠] والحديدِ ، حتَّى إذا تَمَّ بِناؤُه ، وغَبَرَتْ[١١] عليه سَنَواتٌ مَعْدودةٌ ، تَداعَتْ[١٢] أَجْزاؤُه ، وسَقَطَ أَنْقاضًا مَرْكُومَةً[١٣] !

---

(١) رجعت من حيث جاءت . (٢) أصابها . (٣) الضعف . (٤) التعب .
(٥) الرياح الشديدة . (٦) الماء المنصب . (٧) أجج .
(٨) قمما . (٩) مايطلى به البناء . (١٠) خشب صلب .
(١١) مضت . (١٢) تساقطت . (١٣) بعضها فوق بعض .

وليس كذلك هذا الجبل ، فإنه منذ خلقت الأرض يستوى على ظهرها يؤدمها حتى تبدل الأرض غير الأرض !

هذا خلق الله ، فأرنى ماذا خلق الذين يدعون من دونه !

قلت : وأين ذلك الإله يا محمد حتى أراه ؟

قال : أترى دارك التى بمكة ، وأنت منها على قيد[1] فراسخ !

قلت : لا .

قال : وإذا كان أحدنا يعجز أن يرى ما وراء الجدار ، ولا يبعد عنه إلا أشبار ، وما فى جيب صديقه الذى يلاصقه ، ولقد يبلغ الظمأ بأحدنا مبلغه ، والماء يوشك أن يمس قدمه ، فلا يحسه ولا يراه !

إذا عجز الإنسان هذا العجز ، أيطمع أن يرى الإله القوى المشرف على هذا الكون جميعا ، بما فيه من أرض وسماء ، ونجوم وجبال ، وبحار ورمال !؟

كيف تراه ، وأنت إذا وقفت على قنة جبل ، ونظرت إلى الأرض من تحتك ، راعك علو الشاهق[2] ، وبعد الأرض ، فزلزلت أقدامك ، وكدت تهوى من حالق[3] ! فمن رحمة ذلك الإله الرحيم أنه يرينا فعله ، ولا يرينا وجهه ، ولو نظر إلينا لصعقنا[4] فى سبحات أنواره[5] .

إن روح الله يا « سارح » تسرى فى كل شىء ، وتحيط بكل شىء ،

---

(١) بعد . (٢) الجبل المرتفع . (٣) مرتفع .
(٤) غشى علينا ومتنا . (٥) سبحة الله : جلاله .

دَبَّتْ فى النَّمْلةِ فتحرَّكَتْ ، وسَعَتْ إلى رزْقها وجاهَدَتْ ، ودَبَّتْ فى الطَّائرِ فطارَ مُحلِّقًا فى الهواءِ ، لا يُمْسِكُهُ الإنسانُ القَوِىُّ إلاَّ عَلَى غَفْلةٍ منه ؛ ودَبَّتْ فى الحيوانِ فرَتَعَ آوِنةً فى الغِياضِ[1] ، ذا أنيابٍ وَظُفُرٍ تَمْنَعُه[2] وتُحَرِّرُه ، وآوِنةً فى القُرَى ذَلُولاً مُوَطَّأَ الأكْنافِ[3] .

وَدَبَّتْ فى التُّرابِ فكانَ آدَمُ أبُو النَّاسِ جميعاً ، فمنهم مَنْ عَرَفَ ربَّه فخافَه وأطاعَهُ ، ومنهم مَنْ جَهِلَهُ فطَغَى وتكبَّرَ وعاداه ، ولَهَا لَهْوَ قريشٍ وسارَ سَيْرَها . فخَمْرٌ وَرِبا ، وفُسوقٌ وشِرْكٌ ، وَزُورٌ وَبُهْتانٌ .

ألاَ شَدَّ هٰذِه مِنْ رَذائل ، ألاَ « وإنَّ الخَمْرَ أُمُّ الخَبائثِ[4] » .

قال سارِحٌ : ثم سكتَ مُدَّةً ساعَةً يَبْدُو عليه الأسفُ لِمَا يَفْعلُ الضَّالُّون ، وذهبَ فى تفكيرِه ، وفَنِىَ فى مَلكوتِ ربِّه .

فتَسَلَّلْتُ من حَضْرَتِه ، ورَجَعْتُ أدْراجِى إلى مكَّةَ ، والنَّفْسُ مَشغولةٌ بِتِلكَ الرُّوحِ الطاهرةِ ، والفِكرةِ السَّاميةِ . وتَقَنَّنى مكةُ بِعَجَبِها[5] وضَوْضائِها ، فرَدَّتْنى إلى نَفْسى ، ولَفَتَتْ الطريقَ إلَى دارِى .

---

(١) الغابات . (٢) تحصنه . (٣) سلس القياد .
(٤) سبب الرذائل (٥) جلبتها .

وَمُنْذُ فَتْرَةٍ لَمْ أَلْقَ فِيهَا مُحَمَّداً ، وَإِنْ كَانَ رَسْمُهُ فِي « حِرَاءَ » لَا يَزَالُ مَطْبُوعاً فِي ذِهْنِي ، لَا يَرِيمُ[1] عَنِّي لَحْظَةً ، وَكَلِمَاتُهُ الَّتِي أَلْقَاهَا عَلَيَّ تَتَرَدَّدُ فِي نَفْسِي ، وَتَفْعَلُ فِيهَا فِعْلَهَا !

فَإِنِّي مُنْذُ جَلَسْتُ إِلَيْهِ أَكْبَرْتُ[2] مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ سَمَوَاتٍ وَأَرَضِينَ ، وَصِرْتُ أُرَدِّدُ الْبَصَرَ فِي كُلِّ ذَلِكَ لِأَسْتَدِلَّ عَلَى قُدْرَةِ الْقَادِرِ الْعَظِيمِ .

حَقّاً لَكَأَنِّي مَا أَبْصَرْتُ مَا فِيهِ مِنْ آيَاتٍ إِلَّا مُنْذُ أَطْلَعَنِي مُحَمَّدٌ عَلَيْهَا ، وَيَظْهَرُ أَنَّ إِلْفَ[3] الْإِنْسَانِ لِهَذَا الْكَوْنِ ، وَاعْتِيَادَهُ مُشَاهَدَتَهُ لَيْلاً وَنَهَاراً ، أَغْفَلَهُ عَنْ أَسْرَارِهِ ، وَأَبْعَدَهُ عَنِ التَّفَكُّرِ فِيهِ . فَلَوْ غَابَتِ الشَّمْسُ عَنَّا شَهْراً أَوْ أَيَّاماً لَتَعَلَّقَتْ بِغِيَابِهَا ، فَإِذَا رَجَعَتْ إِلَيْنَا رَدَّدْنَا فِيهَا أَبْصَارَنَا وَأَفْكَارَنَا ، وَعَرَفْنَا أَيَّةَ نِعْمَةٍ خَلَقَهَا الْخَالِقُ لَنَا . وَكَذَلِكَ السَّحَابُ وَالْجِبَالُ وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ .

وَلَقَدْ كَرَّهَ إِلَيَّ مُحَمَّدٌ بَاطِلَ قُرَيْشٍ وَأَعْمَالَهُمْ ، وَمَا كُنْتُ أَرَاهُ قَبْلَ لِقَائِهِ إِلَّا حَقّاً . فَأَنَا الَّذِي رَكَعَ أَمَامَ الْأَصْنَامِ ، وَاعْتَرَتْهُ الرَّجْفَةُ مِنْ هَيْبَتِهَا ، وَاسْتَقْسَمَ بِالْأَزْلَامِ[4] أَمَامَهَا ، فَسَافَرْتُ إِنْ أَرَادَتْ سَفَراً ، وَقَعَدْتُ إِذْ

---

(١) لا يغيب . (٢) أعظمت . (٣) تعود . (٤) أعواد من شجرة معلمة بعلامات ، تخبأ فى كيس ، ثم يستخرج منها واحد للنية التى يريدها الإنسان ؛ فيقرأ العلامة التى عليه ، ويعمل بها حسب الاصطلاحات المفهومة للناس .

أنا الذى ركع أمام الأصنام

أرادت قعودًا ، واعتقدتُ رضاها من رضا الرحمن ، وحرمتُ البُدْنَ[1] تحت أقدامها ، وروَّيتُ التراب بنجيعها[2] الأحمر الذى ترضاه الآلهة كثيرًا ! أما اليوم فقد كرَّه محمدٌ إلىَّ هذه الآلهة ، فعدتُها أحجارًا جامدةً غيرَ واعيةٍ ، تملكها العجزةُ الضعافُ أحجارًا من الجبال فأقاموها مثلهم عاجزةً ضعيفةً .

فهى لا تغضبُ ، لأنها لا تعرفُ الغضبَ ، ولا تعاتبُ لأنها تفقدُ شعورَ العتابِ ، ولا تنفعُ إلا كما ينفعُ حجرٌ مُلْقًى فى الطريقِ ، ولا تضرُّ إلا كما تضرُّ أحشابٌ وأحجارٌ !

هكذا أصبحتْ صورتُها فى عينى ، منذُ أنْ حدَّثنى محمدٌ حديثَه . فلم أعُدْ أقومُ بين يديها ، وأسبِّحُ بذكرِها بُكْرةً وعشيًّا ، وأتملَّقُ سدنتَها وأرشُوهم ليقرِّبونى إلى اللهِ زُلْفَى[3] .

وكلَّما رأيتُ الملأَ من قريشٍ يقفُ أمامَها وقفةَ المتعبِّدِ المتبتِّلِ[4] ، وأصواتُهم خاشعةٌ[5] ، ورءوسهم حانيةٌ ، شاعتْ فى نفسى بَسْمةٌ ساخرةٌ من ضلالِ القومِ وما يأفكون[6] .

أهؤلاء العربُ الذين يرْفعون من شأنِ العزَّةِ ، وتأخذُهم الأنفةُ[7] والحميَّةُ ، ينقدون أمامَ هذه الأحجارِ أفضلَ صفاتهم ، ويغفلون ضلالًا كبيرا!؟

---

(١) البدنة : الناقة أو البقرة
(٢) دمها
(٣) قربى .
(٤) التقطع عن الدنيا .
(٥) خائفة .
(٦) يكذبون
(٧) الكبر والعزة .

وَإِنْ حَقَّ لِقَبَائِلِ الْمُتَبَدِّيَةِ[1] أَنْ تَفعلَ ذلك ، فما يَحِقُّ لِقُرَيْشٍ التى تَرْجَحُ القبائلَ ، وَالَّتِى لَقِيَتْ من أَسْبابِ الْحَضَارَةِ شَيْئًا كَثِيرًا ، فَرَقَتْ تجارَتَهَا ، ونَأَثَّلَتْ[2] أَمْوالَهَا ، ورَحَلَتْ وشاهَدَتْ مافى فارِسَ وَالرُّومِ واليَمَنِ ، فأَخَذَتْ أَفْضَلَ ماعِنْدَهَا ، ولاءَمَتِ الأَكاسِرَةَ وَالدَّهاقِنَةَ[3] والقياصرةَ وَالتَّبابِعَةَ[4] ، وأَخَذَتْ سِيَاسَتَهَا وَحِكْمَتَهَا وَرَجَاحَتَهَا[5] ، وعرَفَتْ دِيَاناتِهَا ، وَاطَّلَعَتْ عَلَى كثيرٍ من عاداتِهَا .

هذه قريشٌ قَرِيبٌ منها أن تتمسَّكَ بتلكَ الأَساطيرِ[6] ، وتتمسَّحَ بهذهِ الأنْسَابِ ، وتَعْتَقِدَ أَنَّ لها قُدْرَةً فوقَ قدرةِ النَّاسِ .

أَجَلْ ! إنَّ فى ذلكَ لَسِرًّا ، وقد أبانَ محمدٌ منْهُ جانِبًا .

ذلكَ لأَنَّ قريشًا تحرِصُ عَلَى أَنْ تكونَ قِبْلَةَ العربِ وَسادَتَهُمْ جميعًا ، فإِلَى بَيْتِها يَحُجُّونَ كلَّ عامٍ مُهْطِعِينَ[7] مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[8] ، فيطوفون بِهِ ويُعظِّمون آلهتَهُ ، ويرَوْن قريشًا فى أنديتهم ؛ فيرَوْنَ حضارةً زاهيةً ، ومالاً جمًّا ، لايتمتَّعُونَ به فى باديتهمْ ، فيظُنُّون لها مُعَظِّمين ، ولأَمْرِها مُنْقَادين .

فإِذَا ماخرَجَتْ لِتجارتِها إلى الشَّامِ صَيْفًا ، وإلى اليمنِ شِتَاءً ، ما كان لِقَبِيلةٍ مِنْ قَبائلِ العَرَبِ أَنْ تتعرَّضَ لِحُمَاةِ البَيْتِ الحَرامِ ، وَسَدَنَةِ الآلهةِ العِظام ، أوتُنَافِسُها فى تجارتِها وأرزاقِها ، وإلاَّ باءَتْ[9] بِغَضَبِها وغَضَبِ آلهتِها ،

---

(١) القاطنة فى الصحارى . (٢) تأسست (٣) أشراف فارس .
(٤) رؤساء اليمن . (٥) رزانتها . (٦) الأكاذيب .
(٧) مسرعين . (٨) طريق طويل (٩) عادت .

ولم تستطع أن تفد[1] إلى مكة مع الوافدين في الموسم ، فيخمل ذكرها ، وتضيع مفاخرها ؛ فالبيت الحرام ، وهذه الأصنام هما مفخرتا قريش عند العرب ، وهما مرتزقها ، وأمان تجارتها ؛ فمن يعتدي عليها ، عد نهد قريش يعتدي على خيط حياتها وعلى سيادتها ؛ ويحاول أن يجعلها أمة في العرب كسائر الأمم التي تدين لعزتها ؛ وإنها لتريد أن يبقى لها مجدها الباذخ[2] ، وإن أسس على الباطل والبهتان !

دارت كل هذه الأفكار في رأسي ، وأنا معتمد على أحد جدران الكعبة ، أنظر أمامي فأرى باطلاً ، وأنلفت خلفي إلى الكعبة ؛ فأشاهد حقاً ؛ فأقول : هذه الأصنام بدعة قريش ، وتلك الكعبة بنية[3] إبراهيم بناها الشيخ الصالح كما يقول محمد ، لتكون أول مسجد لله في أرضه ، طاهرة مطهرة ؛ فانصرف القوم عنها ، ولطخوها بالرجس والطواغيت ؛ وما أصبح إبراهيم يخطر لهم على بال ، ولا دينه الحنيف يجري لهم في عرق .

ولما شاع الفساد في مكة ، وعم القرى والبوادي ، أخذ نفر من الناس يتحنفون[4] ، ويتلمسون طرائق إبراهيم في عبادته ؛ ولعل صديقي محمداً ، أمثلهم[5] طريقة ، وأهداهم سبيلاً . فقد عرفته منذ أن كان طفلاً ،

---

(١) تقدم .
(٢) العالي .
(٣) بناء .
(٤) يميلون إلى ملة إبراهيم
(٥) أفضلهم .

وعرفته يافعاً[1] ، وشاباً مكتملاً ؛ فما رأيتُ فيه إلا كرماً وخيراً !

* * *

وما إنْ وَصَلْتُ فى تفكيرى إلى هذا ، حتى اطَّلعتُ فرأيتُ محمداً يطوف بالبيت ، ثم وقف ينظرُ إلى الشمس بُرْهةً ، وإنَّ وجهَهُ ليتلألأ مثلها ؛ ثم يقفُ ساكناً فى صمتٍ وخشوعٍ ؛ وكأنَّهُ يدعو دعاء ؛ ثم وجدتُ سيدةً أقبلتْ ، عليها حشمةٌ ولها وقارٌ ، وتبعها « زيدٌ » و « علىُّ بن أبى طالب » وهو غلامٌ ؛ فرقَبُوا صفاً خلفَ محمدٍ فى صمتٍ وخشوعٍ مثلَهُ ؛ ثم رأيتُ محمداً يخرُّ ساجداً[2] لا للأصنام ، فليستْ أمامه أصنامٌ ؛ ويسجُد القومُ بسجودهِ ، ثم يقومُ ويعودُ لِما كانَ فيهِ ، ويسجُدُ ثانيةً ، ثم يلتفتُ يميناً وشمالاً ، كأنهُ يُسلِّمُ على مَنْ حولَه !

فلما أتمَّ ذلك خرَجُوا راجعينَ ، وتخلَّفَ زيدٌ عنهم لحظاتٍ فهَرْوَلْتُ[3] إليه لِأَلْحَقَهُ ؛ إذْ لم أُدْرِكْ محمداً ، وأصِلْ معَهُ حديثَ حِراء .

وسألتُهُ عمَّا نقلَ والدُه « محمد » وأخذَ بيدِى إلى رُكْنٍ قصِيٍّ كأنَّه يُحدِّثُنى عَنْ سِرٍّ لا يطَّلِعُ عليه النَّاسُ .

فقال : أما علِمْتَ ما أصابَ صاحِبَك ؟

---

(١) شابا .

(٢) كانت الصلاة بسجود من غير ركوع فى هذه الفترة .

(٣) فأسرعت .

: مَا عَلِمْتُ عنه شَيْئاً مُنْذُ لَقِيتُهُ فِي حِرَاءَ .

زيد : لقد حَظِيَ[1] بِمَا لَمْ يَحْظَ بِهِ أَحَدٌ من قريش ، ولا مِنْ أُمَّةِ العربِ !

: و بِمَاذَا حَظِيَ ؟

زيد : أَتُرَاكَ لَوْ أَصْبَحْتَ صَدِيقاً لِكِسْرَى أو لِقَيْصَرَ[2] ، يَحْضَانِكَ[3] وُدَّهما ، وَيَخُصَّانِكَ بِحَدِيثِهما ، ويُسْفِرانِكَ[4] إلى النَّاسِ رسولاً منهما ، فتُفْتَحَ لكَ الأبوابُ ، وتُذَلَّلَ السُّبُل ، وتُزالَ الْحُجُبُ ، أَكُنْتَ بِذٰلِكَ مُغْتَرًّا ؟ !

— : وأَيُّ عِزَّةٍ ! و إنَّ الرجلَ مِنْ قُرَيْشٍ لَيَمْخَرُ أَنَّه شَاهَدَ إِيوانَ كِسْرَى ، وما هُوَ إلاَّ لَبِنَاتٌ وَأَحْجَارٌ ! فكيفَ لو نالَ مِنْ كِسْرَى نَفْسِهِ نَظْرَةً ؟ وكيفَ لو أَصْبَحَ له صَدِيقاً وصفِيًّا ؟ إنَّهُ ما تَسَعُهُ الأرضُ ، ولكنْ ماذَا نالَ محمدٌ مِنْ ذلك ؟ أَتَرَاهُ اتَّخَذَ إِلَيْهِ سَبَبًا[5] ؟

زيد : إنَّ محمداً لا يُقِيمُ وَزْناً لِكِسْرَى ولا لِقَيْصَر ، ولا يَتَّخِذُ لهما سَبَباً ؛ وَإِنَّمَا اتَّخَذَ أَسْبَابَهُ إلى رَبِّ قَيْصَرَ وَكِسْرَى ، وَرَبِّ النَّاسِ جميعاً !

أَجَلْ ، لقدْ أصبحَ محمدٌ حبيبَ اللهِ ورسولَه إلى النَّاسِ كافَّةً[6] !

— : أَنَّى ما تَقُولُ يا زيدُ ؟! أجاء بما جاء به إبراهيمُ ؟!

زيد : أَجَلْ ، جاء لِيُجَدِّدَ مِلَّةَ إبراهيمَ ، ويُبَشِّرَ بدينه الحَنِيفِ[7] ، ويزيدَ

---

(١) ظفر .
(٢) ملك الروم .
(٣) يخصانك .
(٤) يرسلانك سفيرا .
(٥) واسطة وطريقا .
(٦) عامة .
(٧) المائل للخير .

عليه أنه ما أُرسِلَ للعرب وَحْدَهم ، وإنما لِلأحمرِ والأسودِ[1] من النَّاس !

— : وما ذلكَ الدِّين ؟

زيد : تشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ ، إلهٌ واحدٌ عظيمٌ !

— : أجَلْ ، هٰذا ما حدَّثنى عَنْه محمدٌ فى حِراء .

زيد : وتشهدُ أنَّ محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُه ، مَنْ أطاعَهُ فقَدْ أطاعَ الله ، ومَنْ عصاهُ فقَدْ عصَى الله .

— : وَإنَّه لأَهْلٌ لِرسالتِه ، وَأهْلٌ لأَنْ يُطاع ، وَلٰكِنْ كيْفَ وَصَلَ إليه هذا الدِّين ؟

زيد : لقَدْ هبطَ وَالِدِى[2] علينا مِنْ حِراء ذاتَ يومٍ ، وَدخَلَ الدارَ يرْجُفُ فُؤادُه ، وَيتصَبَّب عرقًا ، وكأنما لِحَقَهُ كرْبٌ عظيمٌ ! وَطلبَ مِنَّا فَرْشًا وَغِطاءً ، وَانْصَرَفَ عنَّا لِينامَ لا يَبْغِي مِنَّا كلامًا . وَاصْطَبَرْنا عليْه حتَّى صحَا مِنْ نَوْمِه ، وذهبَ ما عَراه .

فسألَتْهُ السيِّدةُ خَدِيجةُ عمَّا أصابَهُ ، فقَصَّ علينا حَدِيثَه ، وقال : إنِّى لعَلَى حِراء أتأمَّلُ وَأتذكَّر ، إذْ هَبطَ عَلَىَّ شَخْصٌ من السَّماء ، وَدَنا منى يقولُ : « أبْشِرْ يا محمَّدُ ، أنَا جِبْرِيلُ ، وَأنْتَ رَسولُ اللهِ إلَى هٰذِهِ الأمَّة » !

---

(١) للعجم والعرب ، أى كل الناس .

(٢) يقصد رسول الله لأنه متبناه . كان ذلك قبل أن يحرم التبنى فى الإسلام .

فَخِفْتُ منه أشدَّ الخوف ، وخشيتُ على نفسي ! ثُمَّ دنا مني ، وقال : « اقْرَأْ » .

فقلت : « ما أنا بِقارِئٍ » .

« فأخذني وغطَّني (١) بالنَّمَطِ (٢) الذي أَلَمَّ عليه ، حتَّى بلغ مني الجَهْدَ (٣) فخلَّفه ، ثم أرسلني ، وقال : اقْرَأْ ، فقلتُ ما أنا بِقارِئٍ ، فأخذني فغطَّني الثانيةَ ، حتَّى بلغ مِنِّي الجَهْدُ ، ثُمَّ أرسلني ، فقال : « اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإنْسانَ من عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » .

ثم قال : وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَى نَفْسِي يا خَدِيجَةُ .

فقالتِ : وَاللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ (٤) ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ (٥) ، وَتُكْسِبُ المَعْدُومَ (٦) ، وَتَقْرِي (٧) الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِّ (٨) .

ثم أخذته خديجةُ إلى « وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلَ » أَعْلَمِ قُرَيْشٍ بِكُتُبِ الأَنْبِياءِ ، فلمَّا سَمِعَ القصةَ من محمدٍ قالَ :

إنَّه النَّامُوسُ (٩) الأَكْبَرُ الَّذِي نَزَلَ على مُوسَى وَعِيسَى !

---

(١) ضمنى بشدة . (٢) الفرش . (٣) التعب .
(٤) الأقارب . (٥) تساعد الضعيف . (٦) الفقير المحتاج .
(٧) تطعم . (٨) النوازل . (٩) الملك .

ثم مالَ على محمدٍ يقول : « وَاللهِ لَتُؤْذَيَنَّ ، ولَتُخْرَجَنَّ مِنْ هذا البلدِ » !

محمـد : ومَنْ يُخْرِجُنِي ؟

— : يُخْرِجُكَ قومُكَ !

محمـد : « أَوَ مُخْرِجِيَّ هم ؟! » .

ورقـة : نَعَمْ ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جِئْتَ به إلاَّ عُودِيَ ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا[1] ! .

سارح : إن حديثَكَ لَمَجِيبٌ يا زَيْد ! وكيفَ الدُّخولُ فى هٰذَا الدِّين ؟

زيـد : قُلْ : أَشْهَدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، وأَشْهَدُ أنَّ محمدًا رَسُولُ اللهِ .

سارح : أَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، وأَشْهَدُ أنَّ محمدًا رسُولُ اللهِ .

زيـد : هَنِيئًا لكَ يا سارِحُ دِينُ اللهِ الإسْلام ! وَإِلَى اللقاء .

* * *

وتَرَكَنِي « زَيْدٌ » وجلستُ أُدِيرُ الفِكْرَ فيما وصلَ إليهِ محمدٌ . لقد أَصبحَ رسولَ اللهِ إلى قريش ، وإلى العربِ والنَّاسِ أَجْمعين ؛ واللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسالَته ، وإنَّها لأَمانَةٌ تأبَاهَا الجبالُ ، وَتَخِجُّ منها السَّمواتُ ، فتَوْمُهُ لُدُّ الخِصام ، مَقاوِيلُ مفاصيح ، لهُمْ أَلْسِنَةٌ حِدَادٌ[2] ؛ وفيهم عاداتٌ مَوْرُوثَةٌ أَكَّدَها الزَّمانُ ، وَقَوَّاها فِعْلُ الآباءِ والأَجْدادِ ، شَبُّوا عليها صِغَارًا ، وزَاوَلُوها كِبَارًا ،

(١) مؤيدا .

(٢) ألسنة سليطة قاسية .

ولنقل الأخشبين[1] أهون عليهم من انتقالهم عن تلك العادات الباطلة ، التي ألفتهم وألفوها ؛ فماذا يجد محمد منهم ، إذا نادى فيهم : أن الله واحد ، وهتف بهم : أن حطموا أصنامكم ، واتبعوني في ديني ! ؟ إنه ليسألهم أمرا عظيما ، لا يجيبونه إليه أبدا ! وإني لأخشى أن يستخفهم الجهل ، فينالوا منه بأيديهم وألسنتهم ؛ أو ينفوه إلى بلد سحيق ويحدث ما تكهن به « ورقة » من إيذاء وإخراج .

ثم التفت فوجدت « أبا بكر » قد جاء الكعبة فطربت له ؛ وهششت[2] للقائه ، فإني أعرفه صديقا أثيرا لمحمد ؛ ولما وقع طرفه علي مال إلي ، وجلس بين يدي .

وأرسلها نظرة إلى أغوار[3] نفسي ، ليستطلع ما فيها قبل أن يبدأ كلامه ، وينظر مدى استعدادها لقبول ما في نفسه ، وردت النظرة بنظرة مني ، أودعتها حبي له ؛ فلما آنس ذلك ، سألني : متى عهدك بصاحبك ؟

— : رأيته اليوم بهذا البيت ، وخرج عاجلا ؛ فما كلمته وما كلمني .

أبو بكر : وعلمت ما جاء به ؟

— : وما جاء به ؟ قلت ذلك متجاهلا .

---

(١) جبلين يحيطان بمكة من الشرق والغرب .

(٢) فرحت . (٣) أعماق .

أبو بكر : أصبح رسولَ اللهِ إلى النَّاس جميعاً !

— : وصدَّقتَه يا أبا بكر ؟

أبو بكر : ليتَ شِعْرِى[1] : مَنْ أُصدِّقُ إذا لمْ أُصدِّقْه ! لقدْ مرَّتْ حياةُ محمدٍ تحتَ عينى ، فما جرَّبْتُ عليه كِذْبةً قطُّ ؛ أبَعْدَ أنْ بدَا الشَّيْبُ بعارِضَيْه[2] يتكذَّبُ محمدٌ علينا وعَلَى ربِّه ! حاشا لله ، ما علِمْنا عليْهِ مِنْ سُوء !

— : إنَّكَ واللهِ لَصِدِّيقٌ ، وما تُصدِّقُ إلاَّ بالخَيْرِ . أجَلْ ، لقدْ أعْلَمنِى وَلَدُهُ « زَيْدٌ » عَلَى جُمْلَةِ دِينِه ، وآمنتُ بمحمدٍ نبيًّا ورَسُولاً ؛ وأعْلَنْتُ الشهادةَ أمامَ زَيْدٍ ؛ وإنِّى أُخْفِيها عنْ قريشٍ .

أبو بكر : وما يَحْمِلُكَ عَلَى أنْ تُخْفِىَ دينَ اللهِ ، وقد نزَلَ فى قلبِك ؟

— : ما أُخْفِيهِ إلاَّ لخيرِكمْ وخيرِ دينِكم ؛ فإنِّى أعْلمُ أنَّكمْ ستَلاقُونَ مِنْ قُرَيْش أعداءً غِلاظاً . وأنَّهمْ سَيُدَبِّرُونَ لكمْ تدْبيرًا عَظِيما ، وَيمكُرُونَ بكُمْ سِرًّا وَجَهْرًا ؛ فإذَا كتَمْتُ عنهم دِينى ، عِشْتُ بيْنَ أظْهُرِهِمْ أطَّلِعُ عَلَى سَرَائِرِهم ونَجْوَاهُمْ[3] ؛ وأُطالِعُكمْ بما يُدَبِّرون ويَمْكُرون ؛ وَقدْ أستطيعُ أنْ أخذَّلَهُمْ[4] عنكمْ ؛ أوْ أُرقِّقَ قلوبَهُم

---

(١) ليتنى أعرف .
(٢) جانبى اللحية مما يلى الخدين .
(٣) علانيتهم .
(٤) أضعف همتهم .

عليكم ؛ فاصرف عنكم شرهم ، حيث تتجهون بدينكم إلى ما تريدون ؛ وتنشرونه فى قبائل العرب ؛ فإذا ما أصبح لكم قوة وعدد ، رجعتم إليهم بدينكم أعزاء أقوياء ، فاعتبروني يوماً منكم ، وعيناً على قريش منكم ؛ واذكرني عند محمد بذلك ، فما كنت لمهده خائناً[1] ، ولا لحسن عشرته ناسياً .

فوعدني الصديق بذلك ، وانصرف إلى سبيله .

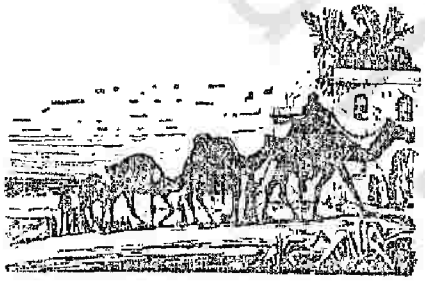

(١) خائنا .

وَارتفعتْ أصداءُ[1] هذا الدِّينِ الجديدِ الذي دعا إليه سيِّدُنا محمد في مكة وأصبحَ شُغْلَ قريش وحديثَهم ، تارةً يأخذونه فَأْخَذَ الجِدِّ ، فيتسخَّطون[2] على محمدٍ وأصحابه ، ويُوعِدُونَهم ويَنالون منهم ؛ وتارةً يأخذونه مأخذ الهَزْلِ ، فيتهكَّمون به ، ويَسْخَرُونَ من أصحابه ، ويَسْلِقونَهم بألسنةٍ حِداد .

ثم أخذَتْ قريشٌ تتنمَّرُ[3] لهذا الدِّينِ الجديد ؛ فقد هربَ الصَّفْوَةُ الفاضلةُ مِنْ شبابهم إلى دينِ محمدٍ ، وأخذوا يَدْعُونَ له سِرًّا في حماسةٍ وقُوَّةٍ ، وفارَقُوا دينَ آبائهم وأجدادِهم ، غيرَ رائينَ له[4] ، ولا عاطفينَ على ذَوِيه[5] !

وَإنَّ قريشاً مع ذلك لتقْسُو عليهم أشدَّ القَسْوةِ ، وتُغْلِظُ في مُعامَلَتِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إلى حَظيرةِ الأَوْثانِ ، فما يَزْدادونَ إلاَّ صَبْرًا على الآلامِ ، وحُبًّا فيما دُعُوا عنهُ !

فهذا « عثمانُ بن عفَّان » يُحْبَسُ ويُسَلْسَلُ[6] ، ويُضَيِّقُ عليه عَمُّه الخِناقَ ، فلا يَزْداد بذلك إلاَّ تفانِياً في دينِ اللهِ !

وهذا « سَعْدُ بنِ أبي وقَّاصٍ » تسألُه أمُّه أن يفارقَ دِينَهُ الجديدَ ،

---

(١) ذاعت أخباره . (٢) يظهرون الكراهة . (٣) تظهر العداوة .
(٤) مشفقين . (٥) أصحابه . (٦) يقيد بالسلاسل .

تخليفُ أنها لا يُظِلُّها سقفٌ ، ولا يَدْخُلُ بطنَها طعامٌ ولا شرابٌ ، حتى يَرْجِعَ إلى دينِ آبائِهِ ، وهي تَسْلَمُ أن سعدًا يُحِبُّها ويَبَرُّها ، وأنَّهُ ما خالفَ لها أمرًا . وتَخْرُجُ بالعراءِ[1] ، فتَقِفُ تحتَ الشمسِ تَصْهَرُها ، جائعةً ظمأى ، وسعدٌ يذوبُ حنانًا عليها ، ورحمةً لما يُلِمُّ بها ، ولكنْ كلُّ ذلكَ لا يَدْفَعُهُ لأنْ يعودَ إلى دينٍ باطلٍ ، فيرى أنْ تموتَ أمُّه تحتَ عينيهِ صَبْرًا[2] ، ولا يُفارِقُ محمدًا ولا دينَه !

حقًّا لقدْ أغرى محمدٌ شبابَ مكةَ الفاضلَ بدينِهِ ، وعرفَ مَنْ يختارُ لهذا الدِّينِ ، فاختارَ أنقاهم سريرةً[3] ، وأصفاهم نفسًا ، وأشرَكَهُمْ معه في عبئِهِ[4] وجهادِهِ .

أمّا شيوخُ قريش ، فقدْ رانَ[5] على قلوبهمْ ما كانوا يكسبون ، وصرفَهُمْ عنْ هذا الدِّينِ حُجُبٌ كثيفةٌ من السِّيادةِ والكِبْرِ ، ومن الفسوقِ والخمرِ ، ومما زُيِّنَ للناسِ من حُبِّ المالِ والشهواتِ .

أمّا الموالي[6] الذينَ تجرَّدُوا من زينةِ الدُّنيا ، فاندفعوا إلى هذا الدِّينِ يجدونَ في ظِلِّهِ بَرْدًا لنفوسِهِمْ التي أنهكَها الطُّغيانُ[7] ، وقُرَّةَ أعيونِهِمْ التي عافتِ الكِبْرَ والفُسُوقَ والعِصْيانَ !

---

(١) الأرض الفضاء .
(٢) جوعا
(٣) نفسا
(٤) حمله
(٥) دنس
(٦) العبيد
(٧) أذلها الظلم .

ولقد استحضرهم سادتُهم وفتنوهم [١] ، فلمعوا من الفتنة لمعان السبيك [٢] ، أنقى طبعًا ، وأتم إخلاصًا .

ولقد حدثتني نفسي أن أزور صديق وصديق محمد « خبابَ بن الأرت » وهو مولى « لأم أنمار » القرشية ، يشتغل لها بالإبادة ؛ وكنتُ وعدنا نختلفُ إليه في أوقاتٍ مضتْ ؛ فيعجبنا صدقُ لهجته [٣] إذا تحدث ، وخلوص طويته [٤] إذا والى ، وإتقانه لعمله إذا عمل ؛ وكانت مولاته عليه خبيثة ، وبصفاته معجبة .

وطرقتُ عليه داره ، ودخلتُ إلى كوره ، فرأيته مسجورًا [٥] يتلهب نارًا ، وإن فيه حدائد بيضًا كالشهب ، وما يسجره ويذكي [٦] نيرانه غيرُ مولاته « أم أنمار » ! فعجبتُ لحضرها في مصنعه ، واشتغالها بعمله ؛ ثم سألتها : وأين خبابٌ ؟

قالت : هنالك في ساحة الدار .

فحسبته مريضًا أو مشغولاً ؛ وقمتُ إليه فرأيتُ منظرًا لا أنسى بشاعته ماحييت ! رأيتُ خبابًا عاري الظهر ، مكتوفًا بسارية [٧] من سواري الدار ، موثق [٨] الأطراف ؛ وعلى ظهره آثارُ تلك الحدائد المحماة مستطيلة

---

(١) عذبوهم .
(٢) المسبوك المصهور .
(٣) حديثه .
(٤) ضميره .
(٥) مشتعلا .
(٦) يشعل ويؤجج .
(٧) بعمود .
(٨) مربوط .

مُسْتَمْرِضَةٌ ! وخَبَّابٌ فى إغْمَاءَةٍ مِنْ هذا الألمِ النَّاصِبِ ، ومَرْلانُه فى شُغْلٍ من رَحْمَتِه ؛ فهى تَزِيدُه آلاماً ، وتَقْذِفُ فى جِسْمِهِ نِيرَاناً !

فانخلَعَ قلبى لهذا المنظرِ العظيمِ ! وفكَّرْتُ فيما يكونُ قد صنعَ خَبَّابٌ ، وإنا لنَعْهَدُهُ أَمِيناً ؛ فماذا بدَا لهُ من الخِيانةِ ؟ مُطِيعًا مُخلِصًا ، فكيفَ دَخَلَهُ التَّمَرُّدُ ؟ مُؤَدَّبَ اللِّسانِ عَفًّا شَرِيفاً ؛ فليتَ شِعْرِى ماذَا عَمِلَ حتى يُدَبَّ عليه كلُّ هذا العَذابِ !؟

وَصَبَرْتُ عليه حتى أفاقَ من غَشْيتِه ، وحرَّكَ عَيْنَيْهِ ؛ فلمَّا رآنى تسابقَتْ عبراتُه[1] ، فبكيتُ لِبُكائِهِ ! وسألتُه :

ماذا جَنَيْتَ حتى وَقَفْتَ هذا المَوْقِفَ ؟

خَبَّاب : ما جَنَيْتُ غَيْرَ أنْ قلتُ . رَبِّىَ اللهُ ! سَاهًا ما ضَرَّها أنْ قلتُ :

لا إلٰهَ إلاَّ الله !

— : صَبْرًا يا خَبَّابُ !

وأدْرَكْتُ ماوقعَ فيه الصَّدِيقُ ، رقَتْ إلى رَبَّتِهِ[2] ألاينُ لها القَوْلَ ، وأُزَيِّنُ لَهَا أنْ ترْفُقَ به ، وإلاَّ فقَدَتْه كاسِباً عامِلاً ، ومارِلْتُ بها حتى عَدَتْ إلى النَّارِ فأطْفأتْها ، وقَنِعَتْ مِنْ خَبَّابٍ أنْ تَحْبِسَهُ مُعْظَمَ الأوْقاتِ فى دَارِها .

* * *

(١) دموعه . (٢) صاحبته .

ثم خرجتُ من عندها وفى النفس آلامٌ تتنزّى[١] ، وشجونٌ[٢] تتداعى !

لقد شهدتُ بعينى الآنَ مبدأ الصّراع بين الحقّ والباطل ، وإنّ الحقّ ليبدو ضعيفاً كالطفل الرّضيع ، وإنّ الباطلَ ليبدو عنيفاً كالثّكل[٣] الفليظ ، فما أقساه حين يداعبُ هذا الطّفلَ بأصبعين من أصابعه ! ، وإنّ هذا الطفل ليَصْبِرُ على أذاه ، وإنه ليرجو أن ينمو ويتقوّى[٤] ، وإنّ الباطلَ ليهرم ويتداعى[٥] ، حتّى إذا ما بلغ الطفلُ أشدّه[٦] يوماً ، جثا[٧] الباطلُ تحت قدميه ضعفاً وهواناً !

ألا ليتَ شِعْرى[٨] : أتدولُ الدّولةُ لهؤلاء الضُّعفاء ، فيأخذوا بثأرهم من الجبّارين القُساة ! ؟

وما وصلتْ أفكارى إلى هذا حتّى كنتُ أضربُ[٩] فى ضواحى مكة تحتَ وقْدةِ الشمسِ فى الهاجرة[١٠] ، فرأيتُ أمامى قوماً مُتحلّقين[١١] ، ورأيتُ فيهم « عمرو بنِ هشام » الذى كنّاه محمدٌ بأبى جهْلٍ ، وما أصدقه فيما كنّى ! فالرّجلُ فظُّ الخُلُقِ ، غليظُ القلبِ ، مملوء جهالةً .

وأردتُ أن أنحرفَ عنِ القومِ ، وأمْضِىَ لسبيلى ، ولكنْ أدهشنى خروجُهم من الظلِّ الظّليلِ[١٢] ، إلى الرّمْضاء[١٣] فى هذه الساعة ، فقصدتُ

---

(١) تتواثب وتثور . (٢) أحزان . (٣) الغليظ الجافى .
(٤) يصير فتى قويا . (٥) يتهاوى ضعفا . (٦) غاية قوته .
(٧) برك . (٨) ليتنى أعلم . (٩) أسير .
(١٠) وقت شدة الحر . (١١) صانعين حلقة . (١٢) الدائم الممتد .
(١٣) الرمل الحار بالشمس .

تعذيبهم ، فرأيتُ ضحيّةً جديدةً من ضحايا هذا الدين ؛ أُسْرةً كاملةً : أخوين وأبوين يُعذّبهم هذا الفظُّ أيّما عذاب !

« عمّارَ بنَ ياسرٍ » ، ذلك المولى الطيّب ، يُلبسه الشوقُ درعًا مضاعفةً (١) صُمّاءَ على جسده العارى ، وتصبُّ عليه الشمسُ نارَها فيتلوى ويتوجّعُ ! ويطربُ الجبّار لمنظره ، وهو يتنسّمُ ألمًا ، ويطرب القومُ معه ! وكذلك أخوه وأمّه وأبوه ، يُضاعفُ لهم العذابُ ، لأنّهم آمنوا بمحمدٍ واتّبعوه !

ويحكِ أيّتها الأسرةُ المؤمنةُ ! لقد أفرطَ القُساةُ فى تعذيبك ؛ فماتَ تحت الفتنة الأبوان الشيخان ؛ واحتملَ العذابَ ذانِكما الفتيانِ ليكونا من بعدُ مثالين فذّين (٢) لمن يخوضُ غمراتِ (٣) الجهادِ والبلاء !

وحاولتُ أن أصلَ إلى قلبِ « أبى جهلٍ » فأخطأتُه فى جسده ؛ وحاولتُ أن أستدرَّ عطفَه ؛ فما وجدتُ لديه شعورًا ينعطفُ ، ولا نفسًا تتأثّرُ ، بل وجدتُه صنمًا يتحرّكُ ، حشوُ جلدِه حجرٌ صُلْبٌ لا يَبِضُّ ولا يَلِينُ ! فولّيتُ عنه كَشْحًا (٤) ، وأخذتُ سبيلى ، وفى النفس ما فيها .

* * *

وما سِرْتُ طويلاً حتى دخلتُ فى حلقةٍ أخرى ، وإذا بطلُها « بلالُ ابنُ رباح » وجبّارُها مولاه « أميّةُ بنُ خلفٍ » ولقيتُ بلالاً مطروحًا على

---

(١) مزدوجة الزرد .
(٢) نادرين .
(٣) شدائد .
(٤) انصرفت عنه .

الأرض عارياً ؛ وإنَّ الرَّمضاءَ مِنْ تحتِهِ لتلذيبُ الحصَى ؛ وتَشْوِى كلَّ ماسَّها ؛ وعلَى صدرِ بلالٍ صخرةٌ عاتيةٌ[1] غليظةٌ ، تكاد تلتهبُ نارًا ؛ لو وُضِعَتْ عَلَى ظهرِ بعيرٍ لَقوَّضَتْه[2] ؛ وبلالٌ فى كلِّ ذلك ينظرُ إلى صُنْعِ الكافرِ نظرةَ الساخرِ المطمئنِّ لإيمانِه ؛ ولا تَنْبِسُ[3] شفتُهُ إلاَّ بكلمةٍ واحدةٍ : أحدٌ ! أحدٌ .

وكلَّما ردَّدَ هذه الكلمةَ زادَ الكافرُ عذابَه أضعافًا مُضاعفةً ؛ فالأذَى يتضاعفُ ، والرَّملُ الحارُّ يتجدَّدُ ، والصَّخرُ الجلْدُ يتراكمُ ، وبلالٌ لا يَفْتُرُ[4] عنْ قولِه : أحدٌ ! أحدٌ !

ألاَ ما أشجعَ بلالاً فى عذابِه ؛ وما أصْفَى معْدِنَهُ فى بلائِه ! ولقد تقطَّعتْ نفْسى حسَراتٍ لذلكَ المنظرِ المؤلمِ ، وكتمتُ آلامِى ؛ فنظرَ إلىّ « أُمَيَّةُ ابن خلَف » يسألنى أنْ يكونَ ذلكَ العذابُ قد نقعَ غُلَّتى[5] مِنْ هؤلاءِ الصَّابئينَ[6] .

فقلتُ له : يا أُميَّة ! ما كانَ آباؤُنا يتباهَوْنَ[7] بأنْ يؤذوا الموالِىَ والضعفاءَ ، وإنَّما كانوا يفْخَرُونَ بلقاءِ الأحرارِ ، ومنازلةِ الأقْرانِ[8] فى المَيْدانِ ؛ ماذا يفعلُ لكَ ذلكَ الضعيفُ إنْ قضَيتَ عليه ، وهوَ مِلْكُ يَمينِكَ ؟ هلاَّ ألقَيْتَ إليه بزِمامِه[9] ، وعتقْتَ رقبتَهُ ، ونظرْتَ : أيُبَدِّلُكَ شرًّا بشرٍّ ،

---

(١) شديدة .
(٢) حطمته .
(٣) تنطق .
(٤) لا يقطع .
(٥) شفى نفسى .
(٦) المنحرفين عن دين الآباء .
(٧) يتفاخرون .
(٨) الأنداد .
(٩) خليت سبيله .

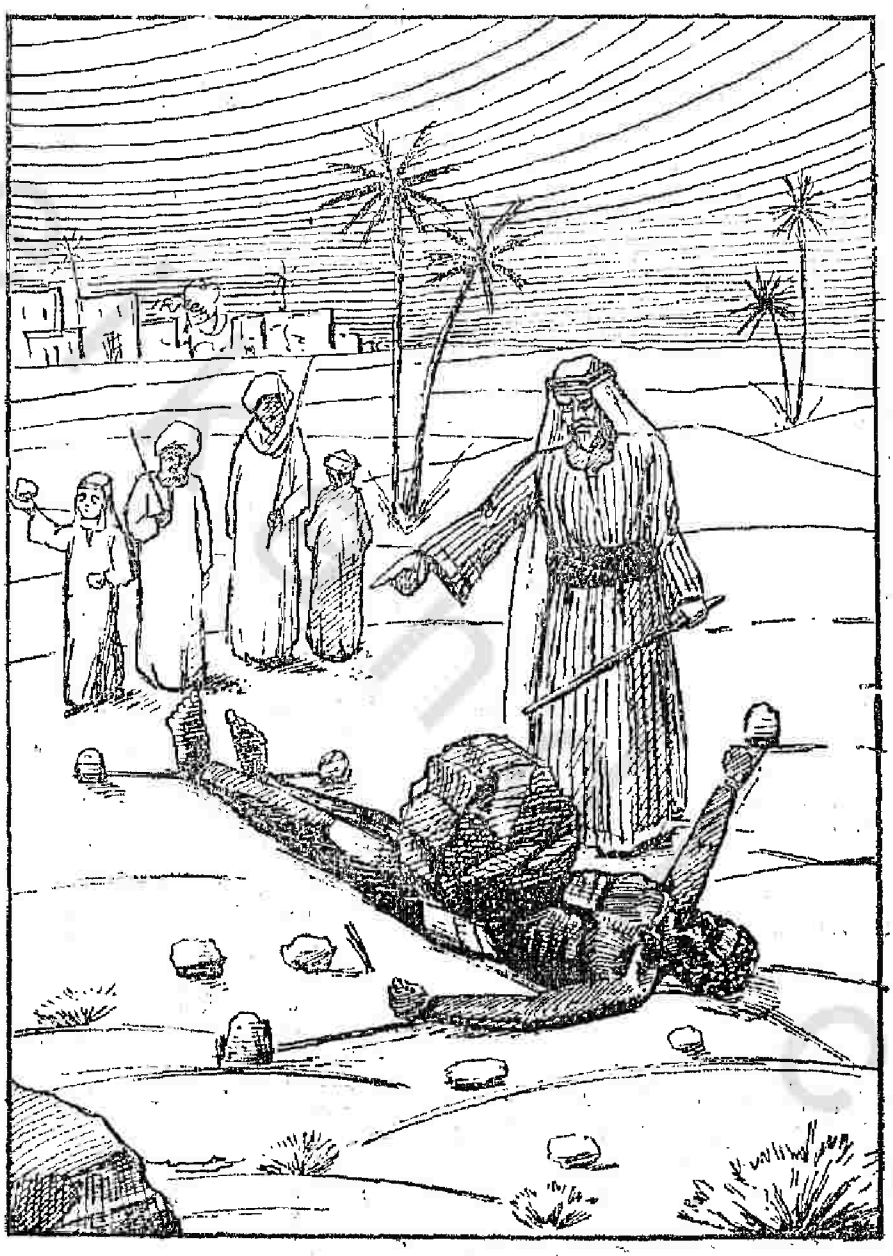

بلال تحت العذاب

وَيُصارِعُك بِمِثْلِ قُوَّتِك ، أَمْ يَقِفُ أَمامَكَ لاَ حَوْلَ له ولا قُوَّة ، كما يَفْعَلُ الآنَ ! ؟ أَجْدَرُ[1] بِكَ وَبِشَهامَتِكَ أَنْ تَلْقَى بِلالاً وَهُوَ عَنْكَ غَرِيب ، فَتَفْعَلَ فيهِ مَا يَرْوِي لَك ، وَتَتَلَقَّى منه ما يَأْتِيكَ به .

وما زِلْتُ أُوَسْوِسُ له ، حتى هانَتْ رَقَبَةُ بلالٍ فى عَيْنِه[2] ، وأَصْبَحَ فيهِ من الزَّاهِدِينَ ، ثم قَوَّضَ خَلْفَتَهُ ، ورَجَعَ إِلى دارِه يُجَرِّرُ أَذْيالَه .

* * *

ثُمَّ ذَهَبْتُ بعدَ ساعةٍ إلى المسجدِ الحرامِ ، فوجَدْتُ مُحَمَّدًا قَدْ تَوَسَّدَ بُرْدَهُ فى ظِلِّ الكعبةِ ، فَجَلَسْتُ منه غيرَ بعيدٍ ، أَسْمَعُ حديثَه ولا أُشارِكُ فيه .

وَنَظَرْتُ فإِذَا « خَبَّابٌ » يُقْبِلُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ويَكْشِفُ له عَنْ ظَهْرِه ، ويقولُ بصَوْتٍ مُهَدَّج ، وقد فاضَ الألمُ بنفسِه : « يا رسولَ اللهِ ! ألا تَدْعُو اللهَ لنا ، فيخفِّفَ مِنْ عذابِنا ، وَيُرِيحَنا مِنْ مَوالِينا ؟ ! » .

فرأَيْتُ النبي صلى الله عليه وسلم يَعْتَدِلُ فى جِلْسَتِه وكانَ مُتَّكِئًا ، وقد اسْتَطارَ وجهُهُ غَضَبًا[3] ، ويقول له

« إِنَّهُ كانَ مَنْ قَبْلَكُمْ[4] لَيُمْشَطُ أَحَدُهُمْ بِأَمْشاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ ، وَيُوضَعُ المِنْشارُ عَلَى فَرْقِ رَأْسِ أَحَدِهِمْ فَيُشَقُّ ، ما يَصْرِفُهُ ذلِكَ عَنْ دِينِه !

---

(١) أحق وأولى .
(٢) زهد فيه .
(٣) امتلأ .
(٤) أتباع الأنبياء السابقين .

وَلَيُظْهِرَنَّ اللهُ تعالى هذا الأمرَ ، حتى يَسيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ[1] ، لا يَخافُ إلاّ اللهَ والذئبَ على غَنَمِهِ » !

فلمّا أُلْقِيَ بهذا فى أُذُنَىْ خَبّابٍ ، سَكَتَ عَنْهُ الغَضَبُ ، ونَظَرْتُ خبّابًا يَسْتَبْشِرُ ويَبْكِى ويَحْمَدُ ، فيرِقُّ له النبىُّ ، ويَمْسَحُ صَدْرَهُ بيدِهِ ، فيَسْكُنُ ما يَجِيشُ فيه مِنْ آلامٍ ، ثُمَّ يَمْسَحُ ظَهْرَهُ فيَبْرَأُ ما فيهِ مِنْ جِراحٍ ! ثمّ تقدَّمَ خبّابٌ مُنْصَرِفًا إلى بيتِهِ ، قريرَ العَيْنِ لا يشكو ألمًا !

وأَخَذَ النبىُّ فى صَلاتِهِ ودُعائِهِ ، ووَفَدَ إليه أَصْحابُهُ وقد مَسَّهُمُ الضُّرُّ والْكَلالُ[2] فتَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ ، ويَبِسَتْ أَفْواهُهُمْ ، ونَحِلَتْ أجسامُهُمْ ، ورَثَّتْ[3] ثِيابُهُمْ ، مِنَ الجوعِ والسَّهَرِ والْعِبادَةِ ، والزُّهْدِ فى طَيِّباتِ الحياةِ ، فجلَسُوا بَيْنَ يديه . وأَخَذُوا يَتَزَوَّدُونَ من حَدِيثِهِ قوَّةً وإيمانًا .

* * *

وشاهَدَتْهُمْ قريشٌ يَفِدُونَ إليه ، فتَهامَسُوا بهم ساخِرِينَ ، فرغِبْتُ فى أنْ أَدْنُوَ منهم لِأَسْمَعَ حديثَهُمْ . فسمِعْتُ أحدهم يقول : قد جاءكُمْ ملوكُ الأرض ؟

فيجيبُ آخَرُ : وقد جلَسُوا حول ابْنِ « أبى كَبْشَةَ[4] » لِيَنْقُلَ إليهم حديثَ السَّماءِ .

---

(١) صنعاء حاضرة بلاد اليمن من عهد التتابعة . حضرموت : إقليم بجنوب بلاد العرب

(٢) التعب .

(٣) بليت [illegible]

(٤) أبو كبشة : كنية للحارث زوج حليمة مرضع النبى

آخر : وَيَمِلُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ أَنَّهم سيَحْكُمُونَ البلادَ ، وَيَسْتَرِقُّونَ العباد ، فلاَ كِسْرَى يَقِفُ أَمامَهُم ، ولا قَيْصَرُ يتصدَّى لهم ؟

— : وَلِمَاذَا لا يَنْتَصِرون عليهم ؟ وهَأَنْتُمْ هؤلاء تَرَوْنَهُمْ يلْبَسُون دُرُوعاً من الأَسْمَالِ[1] البالية ، ويُمْسِكونَ سُيوفاً من العِصِيِّ المُكَسَّرَةِ ! لا ، إنهُمْ يَنْتَصِرُون عليهم بِسَحَنَاتِهِمْ[2] المُغْبَرَّةِ ؛ فَيَهْرُبُ القَوْمُ من وجوههم حَتَّى لا يَرَوْهم !

— : واحَسْرَتَنا إذَا وَقَعْنَا فى قَبْضَةِ أَيْدِيهِمْ !

— : لَسْوْتُ عَلَىَّ أَهْوَنُ أَنْ أَرَى هؤلاء سادةَ مكةَ وَحُكَّامَها !

قال سارح : وأَخَذُوا فى لَغْوِهم[3] ؛ فعافتْ نَفْسِى مِنْهُمْ هذا الهُرَاء[3] ، وَتَرَكْتُهُمْ يَخُوضُونَ فى باطِلِهِمْ ، ومضَيْتُ لِسَبِيلى .

---

(١) الخرق (٢) هيئاتهم وألوانهم .

(٣) الكلام الباطل .

وَمَرَرْتُ بدار « النَّدْوَةِ[١] » مُجْتَمَعِ قريش فى صباحِ يَوْمٍ ، فرأيتُها مفتّحةَ الأبوابِ ، وَطُفْتُ بها فى مُنْتَصَفِ النَّهار ، فرأيتُ قُرَيْشًا بها ؛ وقريشٌ لاتجتمعُ فيها ، وتتركُ المسجدَ الحرامِ ، إلّا إذَا حَزَبها[٢] أمْرٌ ، أو بيّتتْ عَقْدًا[٣] . فاجْتذَبَ ذلك انتباهى ، وشَغَلَ فِكْرِى ؛ فلا تجارةٌ صادرةٌ تُجَهِّزُها ، ولا قافلةٌ آتيةٌ تَنتَظِرُها ، وتقسيمُ سِهامِها ؛ فذلك كلّه سَوَاسِيَةٌ مَعْلومةٌ للنّاس .

فدَعَتْنى رَغْبةٌ مُلِحَّةٌ فى أنْ أذْهَبَ إلى نَدْوَتِهِمْ ، وأجلِسَ بحضْرَتِهِمْ ، وأَطّلِعَ عَلَى ما يُبَيِّتُونَ ؛ فعَساهُمُ اجْتَمَعُوا ليَخُوضُوا فى محمدٍ ودِينِهِ .

وَأَلقيتُ بنفسى فى بُهْرَةِ[٤] النَّدْوَةِ ، فإذَا هى تَفْهَقُ[٥] بمشايخِ قُرَيْشٍ وَشَياطينِهم ؛ فرأيتُ فيمَنْ رأيتُ أبَا جَهْلٍ ، وأبَا سُفيانَ بنَ حَرْبٍ ؛ وأُمَيَّةَ ابنَ خَلَفٍ ، وعُتْبةَ بنَ رَبيعةَ ، وكثيرًا غيرَ هؤلاء .

وَأَصْغَيْتُ لِحَدِيثِهِمْ ؛ فتحقّقَ حَدْسِى[٦] ، وإذا الحَديثُ فى محمدٍ ودِينِهِ .

قال قائلٌ منهم : واللهِ لولاَ بَقِيَّةٌ مِنْ وَقَارٍ فى أنفُسِنا نحفظُها لأبى طالب لَهَبَرْنَا[٧] محمداً بسُيُوفِنا ، ولكنّا نأخُذُ بالحَزْمِ ، ونُبْقِى عَلَى الرَّحِمِ[٨] . فتعالَوْا يا قَوْمُ نَسْأَلُه أن يتخلّى عَنْ هذا الصّابئِ ، ونَعْرِضُ عليْهِ فَتًى مِنْ

---

(١) ناد بناه قصى لاجتماع قريش .
(٢) اشتد بها .
(٣) أعدت تدبيرا .
(٤) وسط .
(٥) تزدحم .
(٦) ظنى
(٧) قطعنا .
(٨) القرابة .

فِتْيَانِنَا ، يكونُ له عضد — وهذا ابنى أعْرِضه عليه — ويَتْرُكُنا نقتلُ الْفتْنَةَ فى مَهْدِها ، قبلَ أنْ يَسْتَشْرِىَ الدّاء[1] ، وَيَسْتَعْصِىَ عَلَى الدَّوَاء !

أبعْدَ أن سَفَّهَ عُقُولَ آبائِنا ، وَحَطَّمَ مِنْ كِبريائنا ؛ وتَهكَّمَ بآلِهَتِنا ؛ وسَخِرَ بِعقيدَتِنا نبْقِى عليهِ ؟ أوْ تأخُذُنا رَحْمَةٌ بِهِ ؟ لا يَصِحُّ هذا فى عَقلِ سَفيهٍ وَلا رَشِيدٍ .

قال آخر : قد عرَضْنا عليهِ بالأمْسِ « عِمارةَ بنَ الوليدِ » أفْتى فِتْيَانِ قريش فأباهُ قائلاً :

« أتأخذُ ابنَكمْ أغْذُوهُ لكمْ ، وأنتمْ تأخُذُونَ ابنى تقتلُونهُ ؟ » .

فرَجَعْنا مِنْ عِنْدِهِ كما ذَهَبْنا .

وَسَادَ الصَّمْتُ مَجْلِسَهُمْ بُرْهَةً حِينَما هَمَّ « عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَة » بالكلام وَشَخَصت[2] إليهِ الأبْصَارُ ، وَتطلَّعَ الجمعُ لِما يقولُ ، عسَى أنْ يأتىَ بكلامٍ فَصْلٍ يَنْعقِدُ[3] عليه أمرُهُمْ .

فقال : لَوْ كانَ الأمْرُ — يا قَوْمُ — يتعلَّقُ بِفَرْدٍ مِنَّا ، لَذهَبَ بِشَفْرةِ[4] سَيْفِى هذا ، غيرَ آسِفٍ عليه ، ولا مُبالٍ بهِ ولا بِقَوْمِهِ ، ولو كان « الوليدَ ابنَ عُتْبَة » .

ولكنَّ محمدًا كما تعلمونَ ، وَلَدُ رجُلٍ واحدٍ ، تَخَلى عنه والِدُه قبلَ أنْ

---

(١) يشتد ويستفحل .
(٢) التفتت .
(٣) يجتمع .
(٤) بحد .

قريش عند أبي طالب

يراه ، وتركَهُ فى جوارِ جَدِّه «عبد المطلب» ، وأوْصَى به هذا إلى «أبى طالب» قبلَ وَفاتِه .

ولقد حَضَرْتُ « عبدَ المطّلب » فى آخرِ عَهْدِه من الدُّنيا ، فكان خاتمةَ عملِه وقَوْلِه ، أنَّهُ نظرَ إلى أبى طالبٍ النَّظْرَةَ الأخيرةَ وقَدْ استخذنَ محمدًا ، وقالَ له : مُحَمَّد ! مُحَمَّد !

فلا عجبَ أنْ رَأَيْنَا عمَّه يخاصِمُ قومَه فيه ، وَيَقِفُ فِداءَه ؛ فإنَّ أحَدَنا ليَسْأَلُه الشَّخْصُ الغريبُ جوارَه ، فيمنحه إيَّاه ، ويقومُ يُناضِلُ[1] عنه بسلاحِه ، وَقَدْ يكونُ الغريبُ عَدُوًّا لنا ، وَاتِرًا لِقَوْمنا ، فلا نتخلَّى عنْهُ ، ولا نهْرُب من حمايته .

تلك شِيمةٌ[2] للعربِ كريمةٌ ، وخُلُقٌ وَرِثْناه عن الآباء ! فكيفَ لا نَعْذِرُ أبا طالبٍ بعد هذا ، ومحمدٌ له القريبُ الحبيبُ ؟ نزل فى جوارِهِ عنْ أبيه وأخيه . فَحَسْبُنا منه أنَّهُ لا يزالُ على دِينِ عبد المطلبِ !

فقال الجمعُ : وماذَا تراهُ يا أبَا الْوَليدِ ؟

عتبة : أرَى أنْ أتوَجَّهَ إلى محمدٍ ، فَأُفْتِلَهُ فى الذِّرْوةِ والْغارِبِ[1] ، وأعْرِضَ عليه زِينَةَ الدُّنْيا ، ومَتاعَ الحياةِ ، فعَسَى أنْ يكونَ قَدْ فعلَ ذلك إذْ رَغِبَ فى بَسْطَةٍ من العَيْشِ ، أوْ نباهَةٍ من الذِّكْرِ ، فإنْ تحقَّقَ له أمَلُهُ ، نَسِيَ ما يَدْعو إليه ، وأقْلَعَ عَنْ بِدْعَتِه .

---

(١) يدافع . (٢) طبيعة وخلق . (٣) أمكر به وأبلغ ما أريد .

— : وما تَعْرِض عليه ؟

عتبة : ذٰلِكَ شَأْنى مَعَه ، فأَقِرُّونى على ما أَفْعَل .

— : لو طَلَبْتَ مِنَّا كلَّ أموالنا لتُسْكِتَ بها لِسانَه لفَعَلْنا ، ولو جَعَلْتَه انا سَيِّدًا ، لرَضِينا له بالسِّيادةِ فِينا ، فَامْضِ لِمَا تُرِيدُ ولا تُبْطِئْ علينا !

قال سارح : ومكثْنا ساعةً دارَ فيها الحَدِيثُ بَيْنَ القومِ كلَّ مدارٍ .

أَمَّا أنا فكنتُ فى شُغُلٍ عنهم ، أُفَكِّرُ فى محمدٍ وعُتْبَةَ ، وما عَساهُ أَنْ يكونَ بينهما .

ماهِى الدنيا يَحْمِلُها « عُتْبَةُ » بينَ يديه لمحمدٍ ، وها هو العزُّ والسيادةُ . إنّه امتحانٌ لا يفوزُ فيه إلاّ أُولُو العَزْمِ[1] مِنَ الرُّسلِ ، الّذينَ يَرْغَبونَ فيما عِندَ اللهِ ، ويَزْهدون فيما عِندَ الناس ؛ أمّا رجالُ الدُّنْيا أو عَبِيدُها ، بما فيهمْ مُلوكُها وأُمَراؤُها ، فإنَّهُمْ مُسْتَعْبَدُون بمَفاتِنِها ، مُكَبَّلونَ[2] بِصَفْرائِها[3] وبَيْضائِها[4] .

فهأَنْتَ ذا اليومَ يا محمدُ تُخْتَارُ ، إمَّا الدُّنْيا وإمَّا الآخرةَ ، وإنَّ قريشاً لتَهْوَى[5] من صميمِ أفْئِدَتِها أَنْ تَزِلَّ قَدَمُكَ إليهم ، لتُشارِكَهُمْ فى دنياهم ولَهْوِهم ، فإنَّهُمْ لِزَهادتِك أَشَدُّ حَسَدا ؛ يَحْسُدونَ نَفْسَكَ الطَّيِّبَةَ الطَّاهِرةَ ، لأنَّهُمْ لا يستطيعونَ أن يَسْمُوا إليها ، ولا يَحْسُدونَكَ ذا مالٍ وجَاهٍ ، فالمالَ يَكْسِبونَ ، والجاهَ قَدْ يُصِيبُون .

---

(١) أصحاب العزائم الثابتة . (٢) مقيدون . (٣) ذهبها .
(٤) فضتها . (٥) لتحب .

وأخذتْ أفكاري تجري في مجاريها ، فلم أنتبهْ إلاَّ على وقْعِ أقدامِ « عُتْبةَ » يتخطَّى رقابَ القومِ ، ويتوسَّطُ المجلسَ .

ونظرتُ إلى وجْهِهِ ، فيا دهشتي حينما رأيتُ تباشيرَ[1] الهُدى تُشْرِق عليه بعْدَ الضلالة ! رأيْتُهُ قد رجَع بوجهٍ غيرِ الَّذي ذهبَ به ، فطمِعْتُ في أنْ يكونَ قد سطَع في نفْسِه بصيصٌ[2] من نُورِ محمدٍ ، وأخذْتُ مجْلِسي منه ، وأُذُنِي إلى فِيه ، وتحلَّقَ القومُ حولَه صامتين :

هِيهِ[3] يا عُتْبةُ ! ماذا قلتَ لمحمدٍ ، وماذا قالَ لكَ ؟

قال : تلَبَّثْتُهُ في المسجدِ فرأيْتُهُ يصلِّي صلاةً ليْسَتْ كصلاتِنا ، ويَدْعُو دُعاءً ليس كدُعائِنا ، فخِفْتُ أنْ أقْتربَ منه فيسْحَرَني ، فإذا أنا على دِينِه ، كما فعلَ بالمُسْتضْعفينَ مِنَّا . فأخذْتُ أرْمُقُه[4] على حَذَرٍ مِنْ بعيدٍ ، حتَّى إذا فرَغَ مِنْ صلاتِه ، قُلْتُ : الآنَ بطلَ سِحْرُه ، فتقدَّمْتُ إليْه ، وجلَسْتُ بيْنَ يديهِ ، وألَنْتُ لهُ الكلامَ ، عسَى أنْ يَنْفُذَ إلى قلْبِه ، فقُلْتُ له :

« يابْنَ أخِي ، إنَّكَ مِنَّا حيْثُ قدْ علِمْتَ : مِنْ خِيارِنا حسَباً ونَسباً ، وإنَّك قدْ أتيْتَ قوْمَكَ بأمْرٍ عظيمٍ ، فرَّقْتَ به جماعتَهم ، وسفَّهتَ أحْلامَهُمْ[5] ، وعِبْتَ آلِهتَهُمْ ودينَهم ، فاسْمعْ منِّي أعْرِضْ عليْكَ أُمُوراً تنْظُرُ فيها ، لعلَّكَ تقْبلُ مِنْها بعْضَها » .

---

(١) بوادر . (٢) شعاع . (٣) زدنا حديثا .
(٤) أنظره . (٥) عقولهم .

فقالَ بصَوْتٍ كُلُّه هدوء واطمئنان : « قُلْ يا أَبَا الوليدِ إِنِّى أَسْمَعُ » .

قلت : « يابْنَ أَخِى ، إِنْ كُنْتَ إِنَّما تريدُ بما جئتَ بِهِ من هذا الأَمرِ مَالاً ، جَمَعْنَا لك مِنْ أموالنا حتى تكونَ أَكْثَرنا مالاً . وَإِنْ كنتَ تُريدُ مُلْكاً مَلَّكْناكَ علينا . وَإِنْ كانَ هذا الذى يأْتيكَ رَئِيٌّ[1] منَ الجِنِّ لا تَسْتطيعُ رَدَّه عنْ نَفْسِكَ ، طَلَبْنا لكَ الطِّبَّ ، وبذَلْنا فيهِ أَمْوالَنَا ، حتَّى نُبْرِئَكَ منه ، فإِنَّه رُبَّما غلَبَ التَّابِعُ[2] عَلَى الرَّجلِ حتَّى يُداوَى » !

وما إِنْ أَتْمَمْتُ حَدِيثى حتَّى تَطلَّعْتُ إِليه لأَرَى مَوْقِعَه فى نَفْسِه ، فرأَيْتُه طيِّبَ النفسِ ، رَضِىَّ الخاطرِ ، فطَمِعْتُ فى أَنْ يَسْلُكَ سَبيلاً مما عَرَضْتُ عليه ، ويَرْجِعَ إِلى مِلَّتِنا .

وبعْدَ أَنْ سكَتَ هُنَيهةً قالَ : سمِعْتُ منكَ يا أَبَا الْوَليدِ ، فَاسْمَعْ مِنِّى .

وأَسْمَعَنِى واللهِ كَلاَمًا نقَلَنى فوْقَ أَجْنحَته من عالَمٍ إِلى عالَمٍ ، حاوَلْتُ أَنْ أَصُمَّ عنه أُذُنِى فى أَوَّله ، ولكنَّه كانَ كالسِّحْرِ ، إِنْ لم يجدْ سَبيلاً إِلى القلبِ من الآذانِ دخلَه من المَسامِّ وكلِّ مَنْفَذٍ حتى يلْعَبَ بأَوْتارِ الفؤاد ؛ فإِذا المرء مَبْهُورٌ[3] مَسْحورٌ من حُسْنِ مايَسمَعُ ، ومنْ حُسْنِ مايتَخَيَّلُ ويتصوَّرُ .

كلامٌ لو سَمِعَه الطَّيرُ لحطَّ إِليه وترك أَسْجَاعه[4] ، ولو عقَلَه الوحشُ لرَمَى بأَنْيابِه وظُفُرِه ، وتمسَّحَ بقَائِله ! حَفِظْتُ منه :

---

(١) جنى يتراءى لك .
(٢) الرفيق من الجن .
(٣) مغلوب .
(٤) أغاريده .

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ؛ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ[1] . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا[2] ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ[3] مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً[4] لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ[5] ؛ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ[6] وَحِفْظًا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . . . »

وما وَصَلَ محمدٌ إلى هذا الموضعِ مِنْ تلاوَتِه ، حتى حسِبْتُ الأرضَ تُزَلْزَلُ بنا ، وتَهْرِضُ علَيْنا حُمَمَهَا[7] ونيرانَها ، وخِلْتُ السماءَ تتساقَطُ كِسَفًا[8] مِنْ فوقِ رُءوسِنا ؛ وأنَّ قريشًا مُصْبِحَةً كقَوْمِ عادٍ حديثًا لِلْغابِرِينَ[9] !

فأمسَكْتُ بفيهِ ؛ وناشَدْتُهُ اللهَ والرَّحِمَ[10] أنْ يَسْكُتَ ، حتى سكتَ .

---

(١) مقطوع . (٢) أمثالا وأشباها . (٣) جبالا .
(٤) كاملات . (٥) سديم يشبه الدخان . (٦) بكواكب ونجوم .
(٧) كل ما احترق من النار . (٨) قطعا . (٩) الآتين .
(١٠) سألته بالله والقرابة .

واللهِ لقدْ سمعتُ قولاً ما سمعتُ مثلَهُ قطُّ ، واللهِ ما هوَ بالشِّعْرِ ولا بالكهانةِ[1] ولا بالسِّحْرِ !

يا معشرَ قريشٍ أطيعونى فاجعلوها لى ، خلُّوا بينَ الرجلِ وبينَ ما هوَ فيه فاعتزلوه ؛ فواللهِ ليكونَنَّ لكلامِه الذى سمعتُ نبأٌ ، فإنْ تُصِبْهُ العربُ فقدْ كُفيتُموهُ بغيرِكمْ ، وإنْ يظهرْ[2] على العربِ ، فعزُّهُ عزُّكمْ .

وما انتهى عتبةُ من حديثِه حتى رأيتُ القومَ يخفضُون من رءوسِهم ويتهامسُون فيما بينَهُمْ بصوتٍ فيه ضعفٌ ، وفيه تكلُّفٌ ، قائلينَ :

لقدْ سحرَكَ محمدٌ يا أبا الوليد !

فلمَّا سمعَ ذلك منهم ، نهضَ من مجلسِهمْ ، وتركهمْ لعنادِهم .

* * *

وتجدَّدَ اللَّغطُ فى النَّادى . وتجدَّدَ الكيدُ لمحمدٍ وقومِه ؛ وانطلقتِ الألسنةُ الحديدةُ ؛ وبرزتِ القلوبُ القاسيةُ ، وأمسكَ «أبوجهل» بزمامِ المجلسِ وأقسمَ على قريشٍ : ألاَّ تقومَ من مقامتِها[3] إلاَّ فتاتْ أمرًا[4] وغاظتْ عدوًّا ؛ ولابدَّ من قطيعةٍ لمحمدٍ وقومِه الذينَ يحمونَه ، فلا يكونُ بينَ قريشٍ وبينهمْ ، بيعٌ ولا شراءٌ ، ولا خلَّةٌ ولا رحمٌ إلاَّ قطعتها قريشٌ ؛ فمنِ اختارَ محمدًا قضتْ عليه بالجوعِ والحرمانِ حتى يكونَ فى الهالكين .

---

(١) كلام الكهان ، وهم من يزعمون العلم بالغيب . (٢) ينتصر .
(٣) ناديها . (٤) دبرت وأكدت .

وتمكنَ الشيطانُ من المجلسِ ، ووافقتْهُ قريشٌ الباغيةُ ، وكتبُوا صحيفةً بذلك ، وقَّعَها رُؤساءُ العشائرِ[1] ، ومضَوْا بها إلى الكعبة ، فعلَّقُوها على جِدارِها ؛ وفيها مافيها من بَغْيٍ وعُدْوان .

وانحازَ الرَّسُولُ إلى شِعْبِ[2] عمِّهِ أبي طالب ، ودخلَ معه من قَوْمِهِ مَنْ دَفعَتْهُ العَصَبِيَّةُ[3] له ، ومَنْ كَرِهَ ظُلْمَ قُرَيشٍ وعُـــدْوانَها ، وإنْ كانَ على دِينِها .

وجاعَ مَنْ في الشِّعب ، وأصابَتْهُمْ أيَّامٌ شِدادٌ ، حتَّى أكلوا أوراقَ الشَّجرِ ، وارْتَبَطُوا الأحْجارَ فوْقَ البُطونِ ، ويَبِسَتْ أجْسامُهُمْ ، وأصْبَحُوا أقْفاصًا مِنْ عِظام .

وحاولْتُ جُهْدِي أنْ أدْفَعَ بَعْضَ الطَّعامِ إليهِمْ ، ولكنَّ عينَ قريشٍ الساهرةَ ، كانَتْ تَرْصُدُ الطُّرُقَ ؛ فلا تَسْمَحُ لهمْ بِطعامٍ ولا شَرابٍ ! ، ولوْلا أنَّ عليًّا كانَ يُخاطِرُ أحياناً بنفسِهِ ، فيخرُجُ في الظلماتِ يسألُ أصحابَ أبيه أنْ يَمُدُّوهم ببعضِ الطعامِ ، ويشترُوا لهمُ اليسيرَ مِنَ الأسواقِ ، لَقَضَى عَلَى القومِ ، وكانوا حديثاً لِلْعابِرينَ .

وعَبرَتْ[4] سنواتٌ ثلاثٌ عَلَى القوْمِ المُحاصَرِينَ ، وأنَا أُحاوِلُ أن

---

(١) القبائل . (٢) ناحية . (٣) التعصب للقرابة والنسب . (٤) مضت .

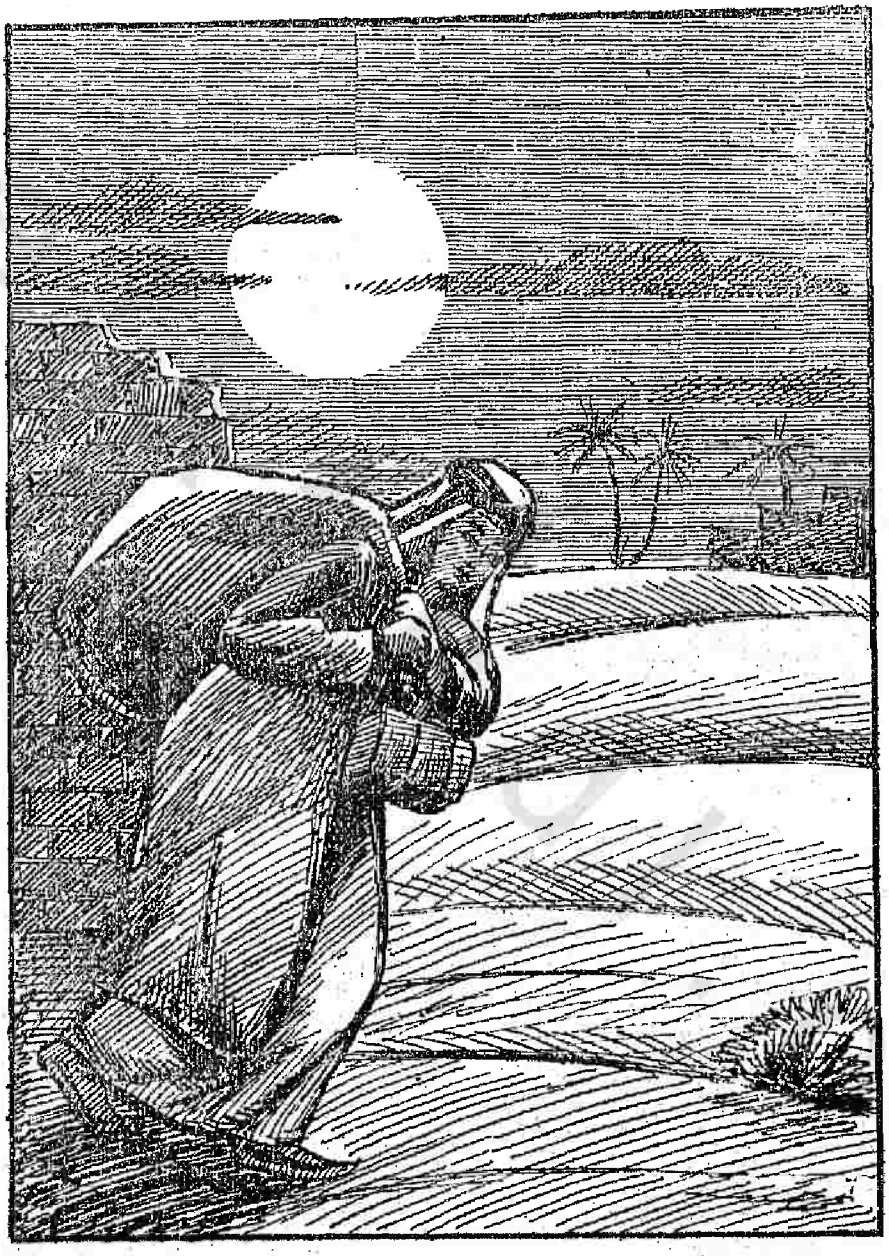

علي يحمل الطعام ليلا للمحصورين

أوْلَبَ[1] القومَ على تمزيقِ تلكَ الصحيفةِ الباغيةِ الغادرةِ ، حتى استمعَ نفرٌ[2] إلى قولي ، ورأوْا رأْيي ؛ فتعاقدْنا فيما بيْننا على أنْ نذهبَ إلى البيتِ صباحًا ، ونشقَّها على ملأٍ ومسْمعٍ منْ قريش .

وذهبْتُ أنا وزهيرُ بنُ أميةَ المخزوميّ ، والمطْعِمُ بنُ عديّ النوْفليّ ، وأبو البخْتريّ الأسديّ ، وزمْعةُ بنُ الأسْودِ الأسديّ ، وهشامُ بنُ عمْرٍو العامريّ .

فطافَ زهيرٌ بالبيت ، ثمَّ أقبلَ على الناسِ ، فقالَ :

يا أهْلَ مكّةَ ، أنأكلُ الطعامَ ، ونلْبسُ الثيابَ ، وبنو هاشمٍ والمطّلبِ هلكى ، لا يبيعونَ ولا يبْتاعون !؟ واللهِ لا أقْعدُ حتى تُشقَّ هذهِ الصحيفةُ الظالمةُ القاطعةُ !

وكانَ أبو جهْلٍ جالساً ، فسمعَ كلاماً غريبًا ، فانبرَى[3] واقفًا ، وأشارَ إلى زهيرٍ مهدِّدًا : كذبتَ لا تستطيعُ شقَّها !

فقالَ زمْعة : أنْتَ واللهِ أكْذبُ ! ما رضينا كتابتَها حينَ كُتبتْ .

وقال أبو البختريُّ . صدقَ زمْعة .

وقال المطعمُ بن عدى : صدقْتما وكذبَ منْ قالَ غيْرَ ذلك .

وصدَّقَ هشامٌ على قولِ أصْحابه .

---

(١) أجمع . (٢) جماعة دون العشرة .

(٣) اعترض .

فلما « رأى « أبو جهل » إجماعَ القومِ ، نكَسَ عَلَى عَقِبِه[١] ، وَقالَ : « إنَّ هٰذَا لأَمْرٌ مُبَيَّتٌ[٢] بِلَيْلٍ » .

وقامَ المُطْعِمُ فشَقَّ الصَّحِيفَةَ وأَزَالَها ، وبذٰلِكَ انْتَهَتْ تِلْكَ القَطِيعَةُ التى ضُرِبَتْ على محمدٍ وقَوْمِه ، وَانْجَلَتِ الغُمْرَةُ[٣] التى أَصابَتِ المسلمين .

---

(١) تراجع .
(٢) مدبر ومصنوع
(٣) الشدة .

صبرَ محمدٌ على هذا الحصارِ ثلاثَ سنينَ طوالاً ، فنالَ الجوعُ منه ما شاءَ أنْ ينالَ ، ونالَ العطشُ منه ما شاءَ كذلك ، وبقيتْ له نفسُه الفتيةُ القويةُ .

وصبرَ عمُّه « أبو طالب » وبنو هاشمٍ والمطلبِ معه على ذلك الحصارِ الأثيمِ ، وشاطروا محمداً آلامه وهجرانه .

وصبرتْ زوجُه « خديجةُ » السيدةُ المنعمةُ على ما صبرَ عليه محمدٌ وقومُه ، وأنفقتْ أموالَها جميعاً في تلكَ الأيامِ القاسيةِ ، وتجرعتْ مرارةَ الحرمانِ ، وهجرتْ قومَها أولي النعمةِ واليسارِ ، وشجرتْ دارَها حيثُ شعبُ بني هاشمٍ ، فذاقتْ ماذاقوا ، ولاقتْ ما لاقوا !

ثم انتقضتِ[1] الصحيفةُ ، وفُكَّ الحصارُ ، ورجعَ إليهم المالُ والزادُ ، وخالطوا الناسَ ، وغشوا الأسواقَ ، ونالوا ما شاءوا من طعامٍ وشرابٍ .

وقرتْ عينُ محمدٍ لحظةً ؛ ولكنْ كيفَ لعينِ الزمانِ أنْ تنامَ ، وهي تترصدُ[2] الطيبينَ من الناس ! ؟

فإذا هي ذي « خديجةُ » تمرض ، ويثقلُ مرضُها ! أجلْ خديجةُ التي لقيَ محمدٌ في ظلِّها راحتَهُ وهناءتَه ، فآمنتْ به أولَ الناس ، وشاطرتْهُ أيامَهُ مع

---

(١) مزقت وأبطل عملها . (٢) تترقب .

قُرَيْشٍ ؛ كانَتْ تُهدِّئُ نَفْسَه إذا ابْتَأَسَ[1] ، وتُكَفْكِفُ[2] دمْعَه إذا سالَ ، وتُثَبِّتُ قلْبَه فى الأهْوالِ[3] ، وتُفِيضُ عليْه ما تَمْلِكُ من نِعَمٍ وأمْوالٍ .

خَدِيجةُ زوْجُه الحَنون ، وأمُّ أوْلادِه المُحَبَّباتِ ، يَراها محمدٌ تتقلَّبُ على فِرَاشِها ، وتَتَوَجَّعُ فى مَرَضِها ، فيَذْكُرُ أمَّه « آمنةَ » الَّتِى فاضَتْ رُوحُها تحْتَ عَيْنِه ، وتَرَكَتْه فى الخامِسَةِ للزَّمانِ يُغالِبُه ويُصارِعُه ، ويَذْكُرُ كيْفَ أهالَ[4] عليها الرِّمالَ مع جارِيتِه ، وخَلْفَها فى الصحراء رَهِينةَ نُؤْيٍ[5] وأحْجارٍ !

وها هِىَ ذِى خَدِيجةُ تُرِيدُ أنْ تَرْحَلَ عنه وهُوَ فى الخَمْسِينَ ، تارِكةً إيَّاه لِقُرَيْشٍ القُساةِ الجبَّارِينَ ، بَعْدَ أنْ جاهَدَتْ معه وكابَدَتْ ، وأبْلَتْ أيَّما[6] بَلاءٍ ! تَتْرُكُه اليومَ ، وتَتْرُكُ له فتَياتِها ، فيَتذَكَّرُ بُوجوهِهِنَّ وَجْهَها ، وبِخُلُقِهِنَّ خُلُقَها ! فكأنَّما تَرَكَتْ له صُورَتَها فى وَجْهِ كلِّ فَتاةٍ ، يَراهُنَّ فيَذْكُرُها ، فتَدْمَعُ عَيْنُه ، ويَبْكى قَلْبُه !

وذهَبَتِ السيِّدَةُ إلى رَبِّها راضِيَةً مَرْضِيَّةً ، وتَرَكَتْ زَوْجَها فى أحْزانِه وأشْجانِه ! يَذْكُرُها ويَشْجَى لِفِراقِها ؛ ويُحِسُّ فى نَفْسِه فَراغًا لصاحِبَتِه ، ويَفِى لِذِكْراها ، فيُكْرِمُ صَواحِبَها ، ويَهَشُّ[7] لِكلِّ عزيزٍ عليها .

وما أفاقَ محمدٌ مِنْ هذِه الصَّدْمةِ ، حتَّى هيَّأ لهُ الزَّمانُ صَدْمَةً أُخْرَى ،

---

(١) حزن . (٢) ترد وتمسح . (٣) الشدائد .
(٤) أسقط . (٥) الحفير يجرى فيه السيل . (٦) بلاء شديدا (٧) يفرح .

فصوَّبَ سهامَهُ إلى عمِّ الحبيبِ إليه ؛ ومَنْ أعزُّ عليه مِنْ أبي طالبٍ ؟ فارتمى طريحَ الفراشِ ، وأخذَ يسألُ سبيلَ خديجةَ !

أبو طالبٍ الذي جاهدَ عنه ، ونافحَ[1] دونَهُ ، ووقفَ ردْءًا[2] يفديهِ بحياتِهِ ، وتلقَّى أذى قومِهِ جميعًا ، وباءَ[3] بسُخطِهِم ، فلمْ يحفلْ[4] بهم مادامَ محمدٌ عنه راضيًا . هاهوَ اليومَ يرتحلُ من جوارِهِ ، ويدرجُ إلى ربِّهِ .

أبو طالبٍ الذي وهبَ عليًّا لمحمدٍ ، يكونُ له ابنًا ووليًّا[5] ، ويرى ولدَه يتمردُ على دينِهِ ، ويخالفُ دينَ أبيهِ ؛ فلا يُنكرُ منهُ شيئًا ؛ ولا يفعلُ به ماتفعلُهُ قريشٌ بأبنائِها ؛ بل يقولُ لهُ :

مَنْ علَّمَكَ هذا ؟

— ويجيبُ عليٌّ : محمد .

فيقولُ له : الزمْهُ يا بُنيَّ ؛ فإنَّهُ لايأمرُ إلاَّ بخيرٍ .

أبو طالب الذي تهابُ قريشٌ شيبتَهُ ومُقامَهُ فيهم ، وتستحي منه أنْ تسفَّ[6] في إيذاءِ محمدٍ ؛ ها هوَ اليومَ يُخلي ما بينَه وبينهم ؛ فيُطلقُ لهم شهواتِهم !

وثقُلَ الحزنُ على محمدٍ ، وثقُلَ أذى الكفارِ عليه وعلى أصحابه ؛ فأسفُوا في الشكايةِ[7] بهِ ماشاءَ الإسفافُ ؛ وبالغُوا في إيذائهِ ما شاءوا أنْ يبلُغُوا ،

---

(١) دافع .
(٢) ملجأ وحمى .
(٣) رجع .
(٤) يهتم .
(٥) نصيراً وصديقاً .
(٦) تنزل وتنحط في الخصومة .
(٧) في إيذائه .

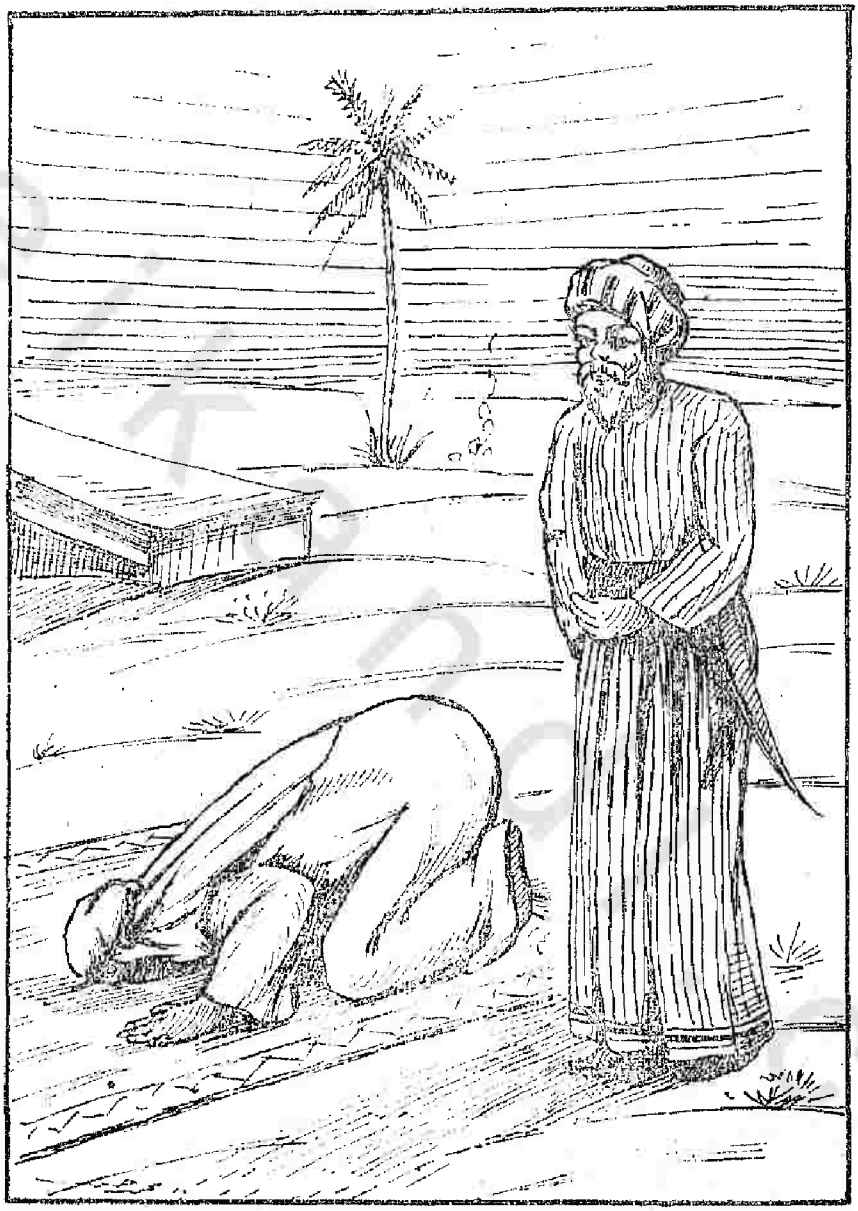

الزمه يابنى فإنه لا يأمر إلا بخير

فنثروا التراب على رأسه ، ووضعوا الروث عليه فى أثناء سجوده ، وخلفه وهو يصلى بثيابه ؛ ووقفوا دون دعوته يحولون بينها وبين الناس .

* * *

وضاقت مكة بمحمد وضاق بها ؛ فعزم على أن يخرج إلى القبائل التى حولها ، يعرض عليهم أمر ربه ؛ فعسى أن يكون فى قلوبهم ما يلين ؛ وبدأ الطواف .

قال سارح : وكنت قد ذهبت إلى « الطائف » أنا وغلام لى لأصلح بستاناً لنا هناك ، بجوار بساتين ابنى ربيعة : عتبة وشيبة .

وقابلت عتبة ، وجرى بينى وبينه حديث الندوة ؛ وما كان من محمد وقريش ؛ ونحن فى علية[1] تشرف على بساتين الطائف وشعابها .

وبينا نحن فى الحديث ، وقع بصرى على « محمد » قادماً من طريق مكة ، ورأيت زيداً يسير بجواره ؛ فخفق قلبى لحظة ، وغاضت[2] الكلمات من ذهنى ولحظ « عتبة » ذلك منى فاستجمعت نفسى ، وألميته بشتى الأحاديث ، واقترب منا محمد ، واطلع عليه عتبة . فقال : هذا هو الرجل ، ما دهاه[3] حتى نزل بهذه القرية ؟!

ثم رأيناه يقصد بستاناً قريباً منا لسادة « ثقيف » وهم إخوة ثلاثة « عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب » .

---

(١) غرفة عالية . (٢) غابت . (٣) ما أصابه .

فأرسلتُ غلامي يتبعُه ، ليرى منه ويرى منهم ؛ وطافتْ في نفسي طوائفُ الأفكارِ ؛ فهذا محمدٌ فتى قريش وعزيزُها ، جاءها بخير الدُّنيا والآخرة ؛ فلا قبلتِ الخيرَ ، ولا أجملتْ[1] في الردِّ ، وجازتِ الحسنةَ بالسيِّئةِ ؛ وزادتْ أنْ أنكرتْ حسبَهُ فيهم ، وخُلُقَهُ بينهم ، وضيَّقتْ عليه في مجلسه ، وعدَّتْ أنفاسَه ، وآذتْه في أصحابه وأهله .

فعدَل محمدٌ بالخيرِ إلى جيرانِهم ، طمعًا في إسلامِهم ؛ فإذا ماناَلُوا حظًّا من دِينِه ، تسرَّبَ الإيمانُ إلى مكةَ وقومِه .

فإنَّ محمداً حريصٌ على إسلامِ قومِه ، على الرَّغْمِ مما نالُوا منه ، حِرْصَ قَوْمِهِ على إيذائِهِ والنِّكايةِ به ؛ وأنْ يأبَوْا ما أنزلَ اللهُ عليه من خَيْر !

ومكثَ محمدٌ عند القومِ غيرَ بعيدٍ ، وخرجَ وفي إثْرِهِ طائفةٌ مِنْ سُفهاءِ القوم ولئامِهِمْ ، يتبعُونَه ويَهْزَءُونَ به ، ويَقْذِفُونَه بالحجارةِ ، حتَّى دَمِيتْ عَقِبُه مِنْ حِجارتِهِمْ ، وخطَّتْ على الأرْضِ سُطورًا حُمْرًا ! خطَّتْ أنَّ محمدًا أُوذِيَ كما أُوذِيَ الأنبياءُ مِنْ قبلُ ، وصَبَرَ على الأذى كما صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُل !

وأخذَ « زيدٌ » يَدْرأُ[2] عن صاحبِه بجِسْمِه ويَدِه ، ويَتلقَّى عنه الأذى ، ويَصْبِرُ على الضَّرْبةِ واللَّكْمةِ ، والقَوْمُ من خَلْفِهِمْ لا يَنْصَرِفُونَ ، حتى ابتعَدَ محمدٌ عَنْ حائِطِهم ، وأوَى[3] إلى ظِلِّنا .

---

(١) ردت رداً جميلا . (٢) يدفع . (٣) لجأ .

وجلسَ يُضَمِّدُ من جِراحه ، وجلسَ معه « زَيْد » يَقْطَعُ من أسماله[1] خِرَقًا ، يَقِفُ بها نَزْفَ الدِّماءِ الطَّيِّبةِ ، التي سالَتْ في سبيلِ اللهِ !

ونَظَرْتُ إلى « عُتْبَة » ، وفي عَيْني دَمْعةٌ ، وقلتُ له : أتَرَى ما فعلَ القومُ بِابْنِ أخيكَ ؟ ما راعَوُا اللهَ ولاَ الرَّحِمَ !

عتبة : أجَلْ ، ماراعَوُا اللاَّتَ[2] ولا الرَّحِمَ !

ورقَّ عُتْبةُ له فدعا غلامًا له يُقال له « عَدَّاس » وأمَرَهُ أن يَقْطِفَ لمحمدٍ قِطْفًا من العِنَب ، ويقدِّم له ماءً حتَّى يأكلَ محمدٌ ويَشْرَب ، ويَدَعَهُ في ظِلِّ البستانِ حتى يُبْرِدَ[3] ويَسْتجمَّ[4] .

وحَمِدْتُ لعتبةَ مُروءته ، وانْصرَفَ « عدَّاس » يفعل ما أُمِرَ به .

* * *

وجاءني غلامي الذي أتْبَعْتُهُ محمداً ، والحزنُ مُخَيِّمٌ على وجهه ، والدَّمْعُ يتساقَطُ من عَيْنيه ، فنهرَهُ عتبةُ أنْ يُفرِطَ في الشفقةِ كما تُفْرِطُ النساءُ ، وانتظَرْتُ على الغلامِ حتى ارتَدَّتْ إليه نَفْسُه ، وَقَصَّ عَلَيَّ حديثه ، فقال :

اسْتَأذَنَ محمدٌ على القومِ ، ودخلَ البستانَ فلاقَوْهُ لا أهْلاً وَلاَ سَهْلاً ، وَحاطُوهُ بِغَمَزَاتِ عُيُونِهِمْ ، وبَسماتِ أفْوَاهِهِمْ . فتَغاضَى[5] محمدٌ عن ذلك ؛ وأخذَ يَعْرِضُ عليهم رِسالَتَه ، ويُناشِدَهم اللهَ والرَّحِمَ ألاَّ يَعْرِضُوا عنِ الخيرِ ، وَقَدْ جاءَهُمْ إلى أبوابِهِمْ ، ونظرَ ما يكونُ مِنهم .

---

(١) ثيابه البالية . (٢) اسم آلهة ثقيف . (٣) يجد برداً بعد حر .
(٤) يستريح . (٥) فتغافل .

فقال أحدُهُمْ : واللاتِ لأمزِطَنَّ[١] ثيابَ الكعبةِ إنْ كانَ اللهُ أرسلَكَ رسولاً .

وأعرضَ محمدٌ عن الجاهلِ ؛ والتفتَ إلى أخيهِ ، لعلَّهُ يقبلُ أو يُجملُ[٢] في الكلامِ . فقالَ أخوه : ألمْ يجدِ اللهُ أهلاً لرسالتهِ غيرَكَ ! هلاَّ نزلَ هذا الدِّينُ على رجلٍ من القريتينِ[٣] عظيمٍ !

وكأنَّ محمداً ما سمعَ شيئًا ، فالتفتَ إلى ثالثهم . فقالَ له :

« لئنْ كنتَ رسولاً من اللهِ ، لأنتَ أعظمُ خطرًا من أنْ أكلِّمَكَ[٤] ، ولئنْ كنتَ تكذبُ على اللهِ ، ما ينبغي لي أنْ أكلِّمَكَ » !

فخرجَ مِنْ عندهمْ ، يائسًا مِنْ هداهُمْ ؛ فلمَّا ولَّى أغرَى[٥] القومُ به سفهاءَهُمْ فاتَّبعُوهُ ، وأصابه منهم ما رأيتُمْ ، وهو يتجلَّدُ[٦] وينظرُ إليهم نظرةَ الحليمِ ، حتى أوى إلى هـذا الحائطِ[٧] ، فرأيتُهُ يرفعُ يديهِ كمن يناجي ربَّهُ ويقول :

« اللَّهُمَّ إنِّي أشكُو إليكَ ضعفَ قوَّتي وهواني على النَّاسِ ، يا أرحمَ الرَّاحمين ! أنتَ ربُّ المستضعفين ! وأنتَ ربِّي ، إلى مَنْ تكلني[٨] ؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمُني[٩] ، أوْ إلى عدُوٍّ ملَّكتَهُ أمري ! إنْ لمْ يكنْ بكَ عليَّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكنَّ عافيتَكَ أوسعُ لي !

---

(١) لأمزقن . (٢) يرد رداً جميلا . (٣) مكة وثقيف .
(٤) يزعم الكافر أن الرسول أعظم شأنا من أن يخاطبه إنسان .
(٥) دفع ، وزين . (٦) يظهر الصبر . (٧) البستان .
(٨) تتركني . (٩) يلقاني بوجه كريه .

أعوذُ[١] بِنُورِ وَجْهِكَ الذى أشْرَقَتْ له الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عليه أمرُ الدُّنيا وَالآخرةِ ، مِنْ أنْ تُنزِلَ بِى غَضَبَك ، أو تُحِلَّ علىَّ سَخَطَكَ[٢] ! لَكَ الْعُتْبَى[٣] حَتَّى تَرْضَى ، وَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بِكَ » .

ثمَّ ارْتَدَّتْ إليه نَفْسُه ، وطابَ خاطِرُهُ ، وَكأنَّهُ ما لَقِىَ أذًى ولا شَرًّا .

* * *

قال سارح : وأخَذْتُ وَعُتْبَةَ فى الحديثِ ، وفى النَّفْسِ آلامٌ ، وما هِىَ إلاَّ ساعَةٌ حتى جاءَ إلينا « عَدَّاس » غلامُ عُتْبة ، يُهَمْهِمُ[٤] بكلماتٍ تَظْهَرُ تارةً على لسانه ، وَتَخْتفى تارةً ، فأدْرَكْتُ أنَّها الشَّهادَةُ لَقَّنَهَا[٥] من محمدٍ ، وأرَدْتُ أن يُظْهِرَها الغلامُ أمامَ مَوْلاهُ[٦] ، عَسَى أن تقعَ من نَفْسِه مَوْقِعاً .

فقلت : ماذا تقول يا عَدَّاس ؟

عداس : أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، وَأشْهَدُ أنَّ محمداً رسولُ الله !

قال عُتْبة : حتى أنْتَ يا غُلامُ سَحَرَكَ السَّاحِرُ ! أيَئِسَ مِنْ ثَقِيفٍ فاتجهَ إليْكَ؟ ما نَرَاه اتَّبعه إلاَّ الضُّعَفاءُ منَّا ! ماذَا أغْرَاكَ بِدِينِهِ يا عَدّاسُ وَأنْتَ نَصْرانِىٌّ ، وعَسَى أنْ يكونَ دِينُكَ خَيْرًا مِمَّا جاءَ به ! ؟

عداس : ما محمدٌ بِسَاحِرٍ ، وما محمدٌ كقريشٍ ، إنَّه لَأفْضَلُ مَنْ رأيتُ على الأرْض !

---

(١) أحتمى . (٢) غضبك . (٣) الاسترضاء .
(٤) الهمهمة : الصوت الخفى . (٥) حفظها . (٦) سيده .

عتبة : واللهِ لَوْلا مَكانَةٌ لنا فى أنْفُسِنا لوَجَأْتُ[1] عُنُقَكَ ! أتُفَضِّلُ محمدًا على مَواليك ؟ ومِنْ طَعامِهِمْ تأكل ، ومِنْ شرابِهِمْ تَشْرب ؟

عداس : أغَضِبَ مَوْلاىَ أنْ تكلَّم معه عَبْدُه ، وما تكلَّمَ إلا صَوابًا ، ولم يَغْضَبْ محمدٌ أنْ نالَ منه السُّفَهاءُ والموالِى ، ولمْ يَسْأَلْ رَبَّه لهم عِقابًا !

أمَّا أنتَ يا مَوْلاىَ ، فما كنتُ أعْرِفُ قبلَ اليومِ أفْضَلَ منك ، أمَّا اليومَ فلا .

عتبة : لَشَدَّ[2] ما أثَّرَ فيك الرَّجلُ يا عدَّاسُ ، فكيفَ نَفَذَ إليك وأنْتَ فَتًى رشيدٌ ، وبِدِينِك مُولَعٌ[3] ؟

عداس : لقَدْ قدَّمْتُ إليه القِطْفَ ، وجلَسْتُ منه غيرَ بعيد ، وعَيْنِى المُتفرِّسَةُ تَنْفُذُ إلى أعْماقِ نَفْسِه ، وتَعُدُّ عليه حرَكاتِهِ وسَكَناتِه ، وأُذُنِى المُرْهَفَةُ[4] الَّتى سمِعَتْ بحديثِ محمدٍ فى مكةَ تتفتَّحُ إليْهِ ، حتَّى تصلَ إلى حَقيقةِ أمْرِه .

ولقد جَلَسْتُ من قبلُ كَثيرًا إلى القُسُسِ والرُّهْبانِ فى البِيَعِ والصَّوامِع[5] فما هِبْتُ أحداً ، وما أكْبَرتُ أحَداً ، كما أكْبَرْتُ ذلكَ الرجُل !

فلمَّا أدْنَيْتُ منْه القِطْفَ دعَا بصاحِبِهِ لِيَنالَ مَعه ، ثم نطقَ بكلماتٍ

---

(١) لكزت ؛ وضربتها بقبضة اليد .
(٢) ما أشد !
(٣) مغرم .
(٤) الحادة السمع
(٥) أماكن عبادة النصارى .

عذاب ، ما سمعتُها عَنْ أحدٍ من العَرَبِ ، ولا أحدٍ من العَجَمِ . سمعتُه يقول :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرحيمِ » :

وكأنَّهُ أبَى أن ينالَ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللهِ ولا يَذْكُرُ صاحِبَها وواهِبَها .

وكأنَّهُ يَدْفَعُ ثَمَنَ ما رزقَه اللهُ شُكْرًا خالِصًا !

ونالَ محمدٌ من العِنَبِ قليلاً ، وشربَ من الماءِ يَسيراً ، ثم حَمِدَ اللهَ فعرفتُ فيه قناعةَ الصَّالِحِينَ .

ثم الْتفتَ إليَّ يَشْكُرُنى أنْ قدَّمْتُ له ما قدَّمْتُ ، وتبسَّطَ فى الحديثِ معِى ، فعرفتُ أنَّه لا يُقيمُ حِجابًا بيْنَ سيدٍ ومَسُودٍ[1] ، فالنَّاسُ عِنْدَه سواءٌ ، ولدَتْهُمْ أُمَّهاتُهم أحراراً . وليْتَ قريشاً تفعلُ بِمَوالِيها ما يفعَل .

ثم سألَنِى : مِنْ أىِّ البلادِ أنْتَ ، وما دِينُك ؟

قلت : نَصْرَانِيٌّ من نِينَوَى[2] .

قال : قَرْيَةُ الرَّجلِ الصالحِ يُونُسَ بنِ مَتَّى[3] .

فأدْهَشَنِى أنِّى رأيتُ عِنْدَهُ علْمًا لم أعْهدْهُ فى العَرَبِ . فالعَرَبُ مَشْغُولةٌ بأوْثانِها وأصْنامِها ، تَعْرِفُها بأسمائِها ، وَتَعُدُّها فى بِلادِها . أمَّا الرِّجالُ الصَّالحونَ ، وَالأنْبياءُ المُرْسَلونَ ، فلا يَنالُونَ منها تلكَ الْعِنايَةَ بهذِهِ الأصْنامِ وَالأحْجارِ !

---

(١) خادم .
(٢) بلد على شاطىء دجلة بحدود العراق .
(٣) سيدنا يونس عليه السلام .

وَأَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ مبلغَ علمِ محمدٍ بيونُسَ ، وَقدْ سمعْتُ حديثَهُ وَأَنا غُلَامٌ من القُسُسِ وَالرُّهْبانِ ؛ وممَّا تحدَّثَ بِهِ وَالِدِي وعجائزُ قَوْمِي . فَقَصَدْتُ أَنْ أَطَّلِعَ على ماعِنْدَ محمدٍ فيه ، وأَمْتَحِنَ صِدْقَهُ وَمَعْرِفَتَهُ .

فقلتُ له : وما عِلْمُكَ بِيُونُسَ يا أَخَا العرب ؟

فقرأَ عليَّ قِصَّةَ « يونُسَ » بكلامٍ عربيٍّ جميل ، ما سمِعْتُ مثلَه حَلاوةً وَطَلاوَةً[1] ، لِسَانٌ كلسانِكُمْ ، وَأَلفاظٌ كألفاظِكُمْ ؛ ولكنها تَحْمِلُ أَرْوَاحًا تَطِيرُ بها وتَسْمُو ؛ فلُغَتُهُ تَعْلُو لُغَتَكُمْ كما يَعْلُو الجبلُ الشَّاهِقُ[2] الجبلَ الصَّغِيرَ !

فأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ ، وَإِنَّ صَوْتَهُ لَيَنْفُذُ إِلى قَلْبِي ، وَيَسْمُو بِنَفْسِي ؛ فَيَحْمِلُهَا إِلى عَالَمٍ وَضِيءٍ[3] سعيدٍ ، لَيْسَ مِثْلَهُ فِي الدُّنْيَا شيءٌ .

فما زِلْتُ مَأْخُوذًا بكلامِهِ ، مَأْخوذا بِصِدْقِ ما حدَّثَ عن يونس ، وَما فَصَّلَ من أَمْرِهِ ورسالَتِه ، وَسَبْحِهِ فِي بَطْنِ الحوتِ ، ودَعْوَتِهِ فِي الظُّلُمَاتِ لِرَبِّهِ ، بِمَا لَا مَزِيدَ عليه .

فتضاءَلَ لَدَيَّ ما كُنْتُ أَعلَمُهُ عَنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ ، إِذْ كَانَ قَطْرَةً من بَحْرٍ ، وَشُعاعةً مِن نُورٍ .

وَأَدْرَكْتُ أَنَّ هذا العلمَ لا يكونُ إِلَّا مِنْ عِندِ الله ، وأن محمدًا نَبِيُّ اللهِ حَقًّا ، وإِنْ زَعَمَتْ قريشٌ فيه ما زَعَمَتْ !

---

(١) جمالا وحسناً . (٢) العالى . (٣) نظيف طاهر .

وَوَجَدْتُ نَفْسِى تَسِيلُ إِلَيْهِ ، كَمَا يَسِيلُ الماءُ إلى المُطْمَئِنِّ مِنَ الأَرْضِ .

فقلتُ له : وكيفَ السبيلُ إلى هذا الدِّين ، دِينِ الله ؟

قال : هما « كَلِمَتَانِ خفيفتانِ على اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فى الميزانِ » .

قلت : وما هُمَا ؟

— : تَشْهَدُ بأن لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ .

فقلتُهما ، ولا أزالُ أقولُهما ، وأجِدُ لهما بَرْدًا فى كَبِدِى ، وَحَلاوَةً فى فمِى ، وراحةً فى نَفْسى .

قال عُتْبَةُ : ولستَ أَوَّلَ ضحيةٍ لذلكَ الرَّجُل الساحر .

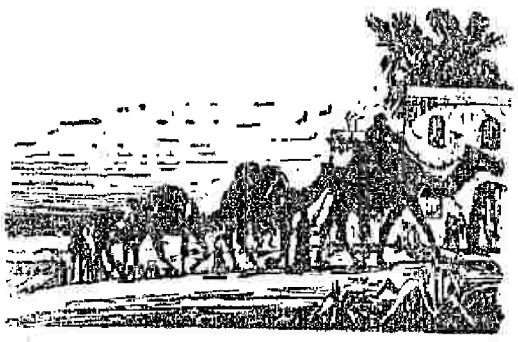

ورجع محمدٌ إلى مكةَ محزونَ القلبِ ، كاسفَ البالِ[1] ، لم يَحْزَنْ لما نالَهُ من أيْدِى السُّفهاءِ ، واعْتداءِ الضعفاءِ ؛ فما دامَ رَبُّه غيرَ ساخطٍ عليه ، فلا يُبالى ما دُونَ ذلكَ ، ولا يَحْقِدُ عَلَى مَنْ آذاهُ وأَدْمَى عَقِبَيْهِ ، وردَّه ذلك الرَّدَّ القبيحَ ، ولا يَجِدُ فى صدرِه مَوْجِدةً[2] عليه ، أو دافِعاً للانتقامِ منه .

فجبريلُ يتراءى له فى عَوْدَتِه مِنْ ثقيفٍ ، ويسألُهُ أن يَدْعُوَ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ ، فما يزيدُ على أن يقول : « اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِى فإنَّهُمْ لا يَعْلَمون » .

إنما يُحْزِنُ محمدًا أنَّ القومَ لا يَعلَمُونَ شيئاً عمَّا جاءَهُمْ بِهِ مِنَ الخيرِ ، ولوْ علِمُوا ذلِكَ حقًّا لعَضُّوا عليْهِ بالنَّواجِذ[3] ، وَعلِمُوا أنَّهُ جاءَهُمْ بِعِزِّ الدُّنيا ، وَخَيْرِ الآخرةِ ، جاءَهُمْ بما إنْ تَمَسَّكُوا بِهِ فلَنْ يَذِلوا أبَدًا ، ولَنْ يَفْتقِرُوا أبَدًا !

يحْزَنُ إذْ يَجِدُ القرآنَ يَتنزَّلُ عليْهِ ، وفيه مافيهِ من مَوْعِظةٍ وتفصيلٍ ، فلا يَسْتَمِعُ إليْهِ ، ويَنْتفِعُ بِهِ إلاَّ المُؤْمِنُونَ . وقَليلٌ ماهُمْ .

وَإنَّه لَيأسَفُ أنْ يُشْرِفَ العامُ الثَّالِثَ عشَرَ عَلَى دِينه ، ولَمْ يَتَّبِعْهُ إلاَّ مائَةٌ أوْ مِئاتٌ ؛ فلا يجِدُ لِتلْكَ البذورِ الطيبةِ التى يَحْمِلُها ، الأرضَ الطيِّبةَ الَّتى تُؤْتِى أُكُلَها بإذْنِ رَبِّها ، أحْسَنَ ثَمَرِها .

---

(١) متغير الخاطر والنفس . (٢) غضباً . (٣) بالأسنان .

وهاهُوَ قد هاجرَ إلى الطائفِ ، عسى أنْ يجدَ مِنْ « ثقيفٍ » ما لمْ يجدْهُ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ فظهرَ أنَّ المَعْدِنَ واحِدٌ ، والكُفْرَ لا يزالُ يُخيِّمُ[١] على القلوبِ .

وإنَّ قريشاً ستتألَّمُ بعدَ هذهِ الهجْرَةِ ، وما كانَ بينَهُ وبينَ ثقيفٍ ؛ أترَاها تَغْضَبُ لفتاها أنْ نالَ منه السفهاءُ فى أرضهِمْ ، كما يَغْضَبُ الحَيُّ من العَرَبِ لعزيزٍ منهم أصابَهُ سُوءٌ ؟! وهلْ يَحْمِلُها هذا الغضبُ على أنْ تَحْمِيَ[٢] وتَشُدَّ أزْرَ فتاها ، وتُعِزَّ دِينَهُ بإسْلامِها ؟

أمْ تراها تغْضَبُ مِنْ محمدٍ أنْ رجعَ لغيرِ قومه يَدْعوهم ، وتَخْشَى أنْ تَظْهَرَ دعوتُهُ بيْنَ قبائلِ العربِ ، فيكونُ له فيهم أعْوانٌ وأنْصارٌ ، يأكلُ بهمْ قريشاً ، ويُمْلِى عليها ما يُريد ؟!

أجَلْ ، لقدْ غضِبَتْ قريشٌ من محمدٍ ، وشمِتَتْ به ، واحْتاطَتْ له ، فرصَدَتْ[٣] حَوْلَهُ العيونَ ، وسَدَّت دونَه السُّبُلَ[٤] ، حتى لا يَنْفُذَ عن بلدِها إلى غيرها ، وزَادَتْ فى إيذائِه ، والتنكيلِ بصحابَتِه ، أمَلاً فى أنْ تُطْفِئَ جَذْوَتَهُمْ[٥] ، وتَفُلَّ سِلاحَهُمْ[٦] .

ومَنْ يَدْفَعُ اليومَ عَنْ محمدٍ ، وقدْ ماتَ عَمُّه أبُو طالب ! ؟ فاشْتَدَّ إيذاءُ الكافرينَ ، واشتدَّ مع ذلكَ نَشاطُ المسلمينَ فى بَثِّ[٧] دَعْوتِهم ، وغِشْيانِهم[٨] قبائلَ العربِ الَّتِى تَفِدُ إلَى مكةَ فى المَوْسِمِ[٩] .

---

(١) يحط وينزل .
(٢) تغضب .
(٣) أقامت .
(٤) الطرق .
(٥) شعلتهم .
(٦) تضعفه .
(٧) نشر .
(٨) اتصالهم ومخالطتهم .
(٩) أيام الحج .

فقد أسمعوهم قرآنهم ، ووعدوهم بثواب الله ومنّوهم ؛ ورجع الناس إلى أقوامهم تلهج[1] ألسنتهم بالنبيّ الجديد . فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، ومنهم من وقف دون الكفر والإيمان !

* * *

قال سارخ : وعدت إلى مكة وإني لساخط على « ثقيف » أن آذت رجلاً استجار بهم ، وإنّي لساخط على قريش ، أنهم لم يغضبوا لفتاهم .

ورأيت من صبر المسلمين على الأذى ، ونشاطهم في دينهم ، ما فرّج من همّي ، ونفّس عن صدري !

وشاهدت يوماً « أبا بكر » يتعرّض لرجال من عرب « يثرب[2] » وفي وجهه فرحة الناجح في سعيه ، فصبرت عليه حتى انتهى منهم ، ثم أشرت إليه ، فاتبعني إلى داري ، فقلت :

— : ترى هل أفلحت اليوم في هداية هؤلاء القوم الذين رأيتك فيهم ؟

أبو بكر : أجل ، وإنّ ديننا نفذ إليهم ، وعزّ بين ديارهم من عامين ، ولنا فيهم أنصار ، وأقوام منّا يعلّمونهم ويفقّهونهم .

— : وما تطمع فيهم بعد ذلك ؟

أبو بكر : ربّما يرى الرسول أنّ ديننا خير له أن يهاجر إلى يثرب ، ويستأذن ربّه في ذلك ؟

---

(١) تذكر كثيراً .

(٢) اسم المدينة قبل الهجرة .

— : ويَهْجُرُ مكَّة ؟

أبو بكر : يَهْجُرها ليعودَ إليها قَوِيًّا إنْ شاءَ الله !

— : وكيفَ يَذْهَبُ الدِّينُ إليها ، والرسولُ بيْنَ أَظْهُرِنا ؟

أبو بكر : سَنُطْلِقُ إليها المؤمنينَ مُهاجرينَ ، لتَنْمُوَ البَذْرَةُ الطيِّبَةُ فى الأَرْضِ الطيِّبةِ !

— : والنَّبىّ ! أتَتْرُكونَهُ لِقُرَيْشٍ ؟ !

أبو بكر : ما شاءَ اللهُ كانَ ! فإنَّه يُوشِكُ أنْ يَعْقِدَ معَ أهلِ « يَثْرِبَ » مِيثاقاً على أنْ يَحْمُوه إذَا هاجرَ إليهم ، ويَنْشُروا دينَه ، ولكنَّه لا يفارقُ مَكَّةَ حتَّى يأذَنَ له ربُّه . ولَمَّا يأذَنْ[1] !

— : ومتَى يَتِمُّ الميثاق ؟

أبو بكر : كنتُ اليومَ أتحدَّثُ فيـــــه معَ القوم ، وقد جَعَلْناه بثالثةِ ليالى التَّشْرِيق[2] فى العَقَبةِ[3] ، حتَّى لا تَسْمعَ به قريشٌ .

— : ومَنْ يكونُ مع النَّبى فى تلكَ اللَّيْلةِ ؟

أبو بكر : عَمُّه العَبَّاسُ ، فإنَّ قريشاً لا تَرْتابُ[4] فيه .

— : ولكنَّه على دِينِ قَوْمه !

أبو بكر : وإنَّ قلْبَهُ مَعَنا ، فقَدْ لبِسَ ثَوْبَ أبى طالبٍ[5] مُنْذُ فارَقَ الدنيا .

---

(١) لم يأذن للآن . (٢) الليالى التالية لعيد الأضحى . (٣) مكان فى خارج مكة .
(٤) تشك . (٥) أصبح له كأبى طالب فى النصرة .

— : وهل يَنْبَغِي لي أنْ أشهَدَ الميثاقَ مَعَ العباس ؟

أبو بكر : ما أظنُّ النبيَّ يَأبَى ذلكَ عليْك ، فأنْتَ أخُو ثِقَةٍ[1] منا .

قال سارح : فلما كانَ الموعدُ خرجتُ مع العباسِ والنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقَدْ مضَى الهَزيعُ الأولُ من الليلِ ، وجِئْنَا القومَ عِنْدَ العَقَبة .

فلما رأَوْا النبيَّ قامُوا إليه ، وأخَذُوا بيدِه ، وَحيَّوْه تحيَّةَ الحبيبِ لِلْحَبيبِ ، وأجْلَسُوه في أعزِّ مكانٍ مِنْهُمْ ، ثمَّ نَهَضَ العبّاسُ وقالَ يُخَاطِبُهُم :

« يا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ[2] ، إنَّ محمداً مِنّا حَيْثُ قد علِمتُمْ ، وَقَدْ منَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنا مِمَّنْ هُمْ على مِثْلِ رَأْيِنا[3] فيهِ ؛ فَهُوَ في عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمَنَعَةٍ في بَلَدِهِ ، وإنَّهُ قَدْ أبَى إلاَّ الانْحِيازَ إلَيْكُمْ ، واللُّحُوقَ بكُمْ .

فإنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أنَّكُمْ وَافُونَ له ، بما دَعَوْتُمُوهُ إلَيْه ، ومَانِعُوهُ مِمَّنْ خالفَه ، فأنتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ ؛ وإنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أنكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخاذِلُوهُ بَعْدَ الخُرُوجِ بِهِ إلَيكُمْ ؛ فمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ » .

قالَ القومُ : قَدْ سَمِعْنَا ما قُلْتَ ، فتكلَّمْ يا رسولَ اللهِ ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أحْبَبْتَ .

فتلاَ الرَّسولُ عليهم من كِتابِ اللهِ ، ورَغَّبَهُمْ في دينِ اللهِ ، ثمّ قال :

« أُبَايِعُكُمْ[4] على أنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأبْنَاءَكُمْ[5] »

فقامَ سيِّدهم ، وأمْسَكَ بيده ، وقالَ :

---

(١) موثوق بك . (٢) قبيلة من العرب تسكن يثرب .
(٣) اعتقادنا ودينا . (٤) أعاهدكم وأرضى بكم . (٥) تجعلوني مثل أهلكم .

« نعم ، والذى بعثك بالحق ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا[١] ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن أهل الحروب وأهل الحلقة[٢] ... »

وقام آخر منهم وقال : « وإن بيننا يارسول الله ، وبين رجال من اليهود حبالاً[٣] ؛ وإنا لقاطعوها ! فهل عسيت[٤] إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟! »

فتبسم الرسول وقال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم !! ، أنا منكم وأنتم منى ؛ أحارب من حاربكم ، وأسالم من سالمكم » .

ثم أخرجوا نقباءهم[٥] يبايعون الرسول ، فقال :

« أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين[٦] لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى » .

* * *

وتمت البيعة[٧] ، ورجعنا إلى مكة بسحر[٨] ، فنمنا وأصبحنا ، وإذا حديث العقبة قد تسرب إلى قريش ، وإذا هى تتميز[٩] غيظاً من الرسول وأصحابه ، وتأخذ فى الكيد له ، قبل أن يفلت الطائر من قفصه ، ويطير إلى هؤلاء القوم .

---

(١) أعراضنا . (٢) أهل الدروع والعدة . (٣) عهوداً .
(٤) فهل تكاد (٥) رؤساءهم . (٦) أتباع عيسى المخلصين .
(٧) المعاهدة . (٨) وقت الفجر . (٩) تتشقق من الغيظ .

وفتحتْ دارُ النَّدْوةِ أبْوابَها ، وزَحَمَتْها قريشٌ بشِيبِها وشَبابِها . ودخلْتُ إليها فيمَنْ دخلَ ، فحضَرْتُهُمْ فى أُخْرَياتِ جدالِهم ، وقَدْ أجْمَعُوا عَلَى رَأْيِ لشَيْطانِهِمْ « أبِى جَهْل » ؛ هو أنْ يأخُذَ من كلِّ قبيلةٍ فتًى جَلْدًا[1] ليَضْرِبُوا محمداً ضَرْبةَ رجلٍ واحدٍ ، حتَّى يتفرقَ دَمُه فى القبائلِ[2] ، وَتَرْضَى بنو هاشمٍ منهم بالدِّيةِ ، وجَعَلوا لذلِكَ وَقْتاً مَعْلوما .

فلمَّا وقَفْتُ على ما وَقَفْتُ عليه ، خرَجْتُ أتلَمَّسُ محمداً أوْ أحَدَ أصحابِهِ ، لِأُفْضِيَ إليه[3] بما عَزَم عليه القومُ ، فلقيتُ فى الأَصِيلِ أبا بكرٍ ، وَبَسَطْتُ له الحديثَ . فقالَ :

أبو بكر : إنَّهُمْ لَنْ يَبْلُغوا مِنْهُ شَيْئاً !

: وكيْفَ ذٰلك ؟

أبو بكر : نَحْنُ على نِيَّةِ الهِجْرةِ مِنْ مكَّةَ فى الليلةِ الَّتِى جَعَلَتْها قريشٌ مَوْعِداً لِقَتْلِ رسول الله .

: وهَلْ أَذِنَ له رَبُّه ؟

أبو بكر : أجَلْ ، وما عَلِمْتُ بذلكَ إلاَّ فى هاجرةِ هذا الْيَوْمِ ! فلَقَدْ جاء النبىُّ صلى الله عليه وسلم إلَى دارِى عَلَى غيْرِ مَوْعِدٍ ، وَمَا كانَ يَأْتِي

---

(١) قويا . (٢) لا يحدد قاتله . (٣) لأنهى وأفشى .

إلا فى طَرَفِ النَّهارِ ، فأدْرَكْتُ أنَّه ما جاءَ إلاَّ لِأَمْرٍ ، وأفْضَى إلىَّ بإذْنِ رَبِّه له .

وحَسِبْتُ أنه سيُفارِقُنِي ، وَيُخَلِّفُنِي فى مكةَ ، فلا أحْظَى بقُرْبِه ، فابْتَدَرَتِ الدُّموعُ تَسيلُ من عَيْنِى ، وسَأَلْتُه الصحبةَ ، فأجابَنِي إلَيْها .

— : ومَنْ يكون معكُما ؟

أبو بكر : اللهُ ثالِثُنا ، فهذا أمرٌ لا يَتِمُّ إلاَّ بالْكِتْمانِ ، وَلَوْلاَ أنَّكَ مِنْ خاصَّتِنا ما أطْلَعْتُكَ عليْه .

— : وماذَا أعْدَدْتَ لهذِه الرِّحْلةِ ؟

أبو بكر : راحلتَيْنِ[1] ، ودَليلاً خِرِّيتاً[2] ، ليَأْخُذَ لنا طريقاً غيرَ مَعْهودةٍ للسَّالكين .

وماذا يكونُ من أمرِكَ أنتَ يا سارِحُ ؟ أتَبْقَى فى مكةَ أمْ تَرْحلُ إلينا ؟

— : أمَّا نَفْسِي فتَوَدُّ اللِّحاقَ بكم ، وإنِّى لأكْرَهُ أنْ أبْقَى فى مكَّةَ لحظةً بَعْدَ فراقِكُمْ ، فما جَمالُها وَقَدْ غابَ الأحبَّةُ عنها ؟

وإنْ بَقِيتُ فَلِكَىْ أُجاهِدَ فى سبيلِ هذا الدِّين ، ولأعَرِّفَكُمْ بما يكيد

---

(١) ناقتين . (٢) ماهراً بالطرق ومسالكها .

القومُ لكم ، فإنَّهم لَنْ يَسْكتوا عنكُمْ ، ولَمْ يُبْرِدوا مِنْكُمْ غَليلاً[١] ! فَأْذَنْ لِي رسولَ اللهِ أَنْ أَبْقَى بَيْنَهُمْ عَيْناً عليهم[٢] ، وعَيْبَةَ نُصْحٍ لكم[٣] ، وقُوَّةَ المُسْتَضْعَفِينَ منَ المسلمينَ ، الذين لا يَقْدِرون على الهجرةِ إليكمْ .

فإذا ما أَبْلَيْتُ فيهِمْ ، وبلَغْتُ غرَضي منهم ، لَحِقْتُ بكم ، وَسَمِدْتُ بصُحْبتكم .

أبو بكر : حَمْدًا لله وشُكْرًا ، أَنْ جَعَلَ فى المسلمين مَنْ يَحْمِلُ هذه النفْسَ الطيِّبَةَ ، فإلى المُلْتَقَى هُناكَ فى المدينةِ يا سَارِح .

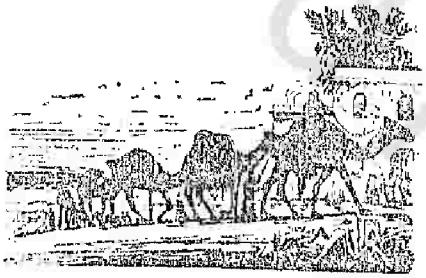

(١) لم يشفوا أنفسهم . (٢) جاسوساً .
(٣) ذخيرة نصح .

أَمَّا حَدِيثُ الهجرةِ ، فقَدْ فَصَّلَه « أَبو بكر » فى رِسالتِه هٰذِه الَّتِى بعثَ بها إِلىَّ مِنَ المدينةِ فقالَ :

لَمَّا أَقبلَتِ اللَّيلةُ التى أَرادَ الكفَّارُ أَنْ يمكُروا فيها برسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَخَذَ النبىُّ فِراشَه الَّذى يَبِيتُ عليْه ، إِلَى أَدْنَى مَوْضعٍ مِنَ البابِ ، وأَمرَ « عليًّا » أَنْ ينامَ فيهِ ، وَيتغطَّى بِغِطائِه ، وأَمَّا هُوَ فجلسَ مِنْهُ غيرَ بعيدٍ ، وَانتظرَ ما يَأْمرُ بِهِ اللهُ ، فإِنَّه لا يَخْرُجُ عَنْ أَمرِه .

وَبَيْنَا هُوَ فى تفكُّرِه إِذْ سَمِعَ حَركةَ قُرَيْشٍ ، وَهَمْهَمَةَ[1] أَصْواتِهِمْ ، فعرفَ أَنَّهم أَحاطُوا بالدَّارِ ، وأَحذَتْ قريشٌ تَنظُرُ مِنْ شُقوقِ البابِ ، وَتَبْسِمُ بَسْمةَ الظَّافِرِ ! ، إِذْ رَأَتَ الفَرْشَ والنَّائمَ فيه ، فرأَتِ الصَّيدَ فى مَحْبِسِه ، وَحَسِبَتْه فى قَبْضَةِ أَيْدِيها ؛ فما هُوَ إِلاَّ السَّحَرُ حَتى يتحرَّكَ النائمُ لِصَلاتِه ، كما جرَتْ بذلكَ عادَتُه ، فتَهجُمُ عليه وتَبْلُغُ منه ماتريدُ .

وأَخذَ النبىُّ يَضْحَكُ مِنْ قريشٍ الَّتى تُماكِرُ اللهَ[2] ، وتُدَافِعُ أَمرَهُ ! وغَطَّ النائمُ فى فِراشِه ؛ فاطمأَنَّتْ قريشٌ ، وثَقُلَتْ رُءوسُها ، فتهافتَتْ[3] على عَتَبةِ الدَّارِ ، وتساقطَتْ تحتَ الجدرانِ ، ونامتْ آمنةً مطمئنَّةً .

---

(١) أصواتهم الخفية . (٢) تخادعه . (٣) فتساقطت .

فما لدارِ محمدٍ إلاّ بابٌ واحدٌ ، قد سدّتْهُ بجسومِها ؛ فهيهاتَ[1] أنْ يَنفُذَ منها ، ويتخطّى رِقابَهُمْ وأجسامَهم . وحاشا أنْ يأخذَهم النّومُ فلا يُحِسّوا به ، وفيهم كلُّ نَدْبٍ[2] خفيفٍ ، يَصْحُو للنَّسْمة تَهُبُّ عليه .

وتخطّى النبيُّ رِقابَ القومِ ، وهوَ يتلُو عليهم مِنْ آياتِ ربِّه ، وسارَ بين صُفوفِهِمْ وهُمْ يَغِطُّونَ غَطِيطَ البَكْرِ[3] أو أشدَّ ، ومضَى لا حارسَ له إلا إيمانُه ، ولا هادِيَ إلاّ ربُّه .

أمّا أنا فكنتُ أنتظِرُ الرسولَ في داري ، وَكأنّي على جَمْرِ الغَضَا أتقلّبُ ! فكلُّ لحظةٍ مرّتْ من تلكَ الليلةِ ترقّبْتُهُ فيها ، وأخذ قلبي يَخْفُقُ لخَطْوِ كلِّ قادمٍ ، ويَفْزَعُ لِتَناوُحِ الأشجارِ ، وَأخَذْتُ أُبْدِئُ وأُعِيدُ في نفسي ، وأقولُ : ماذا عسَى أنْ يكونَ قد أخّره ، وطافتْ بذِهْني الظُّنون !

وَبَيْنا أنا في حَيْرَتي إذْ سَمِعْتُ خَطْوَ أقدامِهِ بَعْدَ أن مَضَى الهَزِيعُ الأوّلُ مِنَ اللّيْلِ ؛ وإنّي لأعْرِفُ صاحِبي إذا مَشَى ، وَوَقْعَتْ أقدامُهُ عَلَى الأرضِ أنْغامَها ؛ قُمْتُ مُسْرِعًا إلى البابِ ففتَحْتُهُ ، فما هِيَ إلاّ التحيّةُ خافِتةً ، ثم قالَ : هَلُمَّ عَلَى بَرَكةِ اللهِ !

فخرَجْنا مِنْ خَوْخَةٍ[4] في ظَهْرِ البيت ، تُفضِي إلى خَلاء ، وَهَرَبْنا من

---

(١) فبعيد جدا .
(٢) الندب : الخفيف الجرىء .
(٣) الجمل الفتى .
(٤) باب صغير فى باب كبير .

مكةَ إلى الصحراءِ الواسعةِ ، فبدَتْ لِي كأمٍّ حانيةٍ تفتحُ أذرُعَها لتضمَّ إليها أعزَّ بنيها .

أبدًا ما رأيتُ الصحراءَ كتلكَ اللَّيلةِ ، ولا شممتُ طيبًا أعبقَ[1] نسيمها الرَّطْبِ فى تلكَ اللَّيلةِ ! ولا عهدتُ آيةَ اللَّيلِ[2] وستارَهُ المسبَلَ عهدتُه ليلتئذٍ !.

أليسَ هوَ الذى ألقى بيننا وبينَ القومِ حجابًا ، فلَمْ يعودُوا يبصرُونَنا ؟ أليسَ هو سبيلَنا إلى الحريَّةِ المُبتغاةِ ، وإلى الأملِ القريبِ ؟

واتَّبعتُ محمدًا فى سيره ، فما كانَ لِي أنْ أشيرَ عليه ، وهُوَ مُسيَّرٌ

فلمَّا وصلْنا جبلَ « ثَوْر » يممَّ[3] كهفًا فيهِ ، فعرفتُ أنَّه يقصدُهُ ، وكانَ الكهفُ معروفًا لقريش وفتيانِها ، وبخاصَّةٍ رِعاؤُها[4] ، فلقدْ كنَّا نأوِى إليهِ إذا اشتدَّتِ الهاجرةُ ، أونفحَنا البردُ ، فنلتمسُ فيهِ كِنًّا وظِلًّا ظليلًا .

ولقد كُنَّا نرى فيه أحيانًا الوحشَ الكاسرَ ، والأسودَ السَّالخَ ، هاربًا من سمُومِ الصَّحراءِ وصقيعِها .

وخشيتُ أنْ يكونَ فيهِ تلكَ اللَّيلةَ بعضُ ما نخشاهُ ، فأمسكْتُ بالنَّبيِّ دونَ بابهِ ، واستبقتُ إليهِ ، حتى إذا كانَ فيه شىءٌ من ذلكَ فديتُهُ بنفسى !

---

(١) أطيب رائحة .
(٢) آية الليل كمظهر قدرة الله
(٣) قصد .
(٤) جمع راع .

وما قيمةُ نَفْسِى حتى تكونَ فِدْيةَ نَبِيٍّ كريمٍ ، لهُ شأنٌ عِنْدَ ربِّهِ ؟ ودخلْتُ الكهفَ ، وتلمَّسْتُ فى الظلامِ جُدْرانَه وشُقوقَه ؛ فلمَّا اطْمأنَنْتُ إليه نادَيْتُ صاحِبِى .

وقضَيْنا لَيْلَنا ساهِرِينَ ؛ أمَّا النبىُّ فأخَذَ صَدْرُهُ يَغْلى بالقُرْآنِ غَلَيانَ المِرْجَلِ[1] ؛ وأمَّا أنا فقعَدْتُ طريدَ الهواجسِ[2] والظُّنونِ ! فظنَنْتُ أنَّ قريشاً قد عرفَتْ مكانَنا ، وهَجَمَتْ علينا ، وتوقَّعْتُ ذلكَ بيْنَ آونةٍ وأُخرى ، فكانَ يَدْهَمنى[3] غمٌّ شديد !

وحقَّكَ ما خِفْتُهم على نَفْسى ، ولكنِّى خشِيتُ على النبىِّ أن يُمثِّلوا به ، ويُعيدوه إلى مكةَ ، حيْثُ يُنفِّذُونَ فيهِ مَكْرَهُمَ الخبيثَ .

وكلَّما أمَضَّنِى[4] الألَمُ ، نظرَ إلىَّ صاحِبى ، ومَسَحَ بيدِهِ صَدْرِى ، وكَفْكَفَ مِنْ غَرْبِ شئُونى[5] .

وأقبلَ الصَّباحُ بطيئاً بَطِيئاً ، وكأنهُ يَمْشى بِقَدَمَىْ طِفْلٍ رضيعٍ ، وأرْسَلَتْ ذُكاءُ[6] تحيَّتَها إلينا ، وغرَّدَتْ طُيورُ الصحراءِ مُرَحِّبةً بنا ، وغَنَّتْ حَشراتُها أحسَنَ ألحانِها ، وكادَتْ نفْسى تتفتَّحُ لتلكَ الطبيعةِ البهيجةِ ! .

ولكنى سمِعْتُ جَلَبةً فيما حَوْلَنا ، وصياحاً يَقْتربُ منا شيئاً فشيئاً ، ثمَّ

---

(١) القدر الكبيرة . (٢) الخواطر . (٣) يصيبنى .
(٤) آلمنى . (٥) مسح دموعى . (٦) الشمس .

ارْتفعَ الكلامُ ، ودَنَتِ الأشباحُ ؛ فإذا قريشٌ قد جاءتْ على بَكْرَةِ أبيها[١] ، تُفتِّشُ عنْ ضالَّتِها[٢] ، وإذا هِيَ تأخُذُ كلَّ الشِّعابِ[٣] فيما حَوْلَنا !

ثم اقتربَتْ طائفةٌ منا ، وارْتمَتْ ظِلالُهُمْ تحتَ أقدامِنا ، فداخَلَنى منهم فزَعٌ كبيرٌ ! فدنَوْتُ من رسولِ اللهِ حتى لَصِقْتُ بجسمِهِ ، وهمَسْتُ فى أذنِه : « لوْ أنَّ أحدَهُمْ نظرَ إلى ما تحتَ قدَمَيْه لرآنا » !

فوَجَدْتُه ما فزِعَ ولا اضطرَبَ ، ولا عَرَاهُ شىءٌ مِمَّا عَرانِى[٤] ، ومالَ إلىَّ يقول : « ماظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثالثُهُما ! ؟ »

قلت : « إنْ قُتِلْتُ أنا فإنَّما أنا رجلٌ واحدٌ ، وإنْ قُتِلْتَ أنتَ هلكَتِ الأمَّة ! »

فقال : « لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ معَنا ! »

وهَمَّ أحَدُهُمْ بدُخولِ الغارِ ، فاجْتَذَبَهُ رَجُلٌ مِنْ أصْحابِه ، وصاحَ فى وَجْهِه : إلَى مَتَى تَبْقَى الغَفْلَةُ فِيكُمْ ؟ أيَحْبِسُ محمدٌ نَفْسَهُ فى غارٍ لِتَقْنِصُوه بأيْدِيكم ؟ وَإنَّ عَلَى بابِه لَعَنْكبوتاً أقْدَمَ من ميلادِ محمد ! وحَمامَتَيْنِ آمِنَتَيْنِ تفْزَعانِ لِلنَّسْمَةِ ، كيفَ تَسْكُنان إنْ كانَ فى الغارِ أحَدٌ ؟! فما أرَبُكُمْ[٥] فى الغارِ ؟ خُذُوا عليه شِعابَ الصَّحْراءِ الواسعةِ ، ولا تَنْسَوْا شِعابَ يَثْرِبَ ، حتى لا تُضَيِّعُوا علَيْنا ضالَّتَنا بِعَبَثِكُمْ هذا !

---

(١) بجمعها . (٢) التائه منها ، وهو النبى . (٣) الطرق .
(٤) أصابنى . (٥) ما حاجتكم .

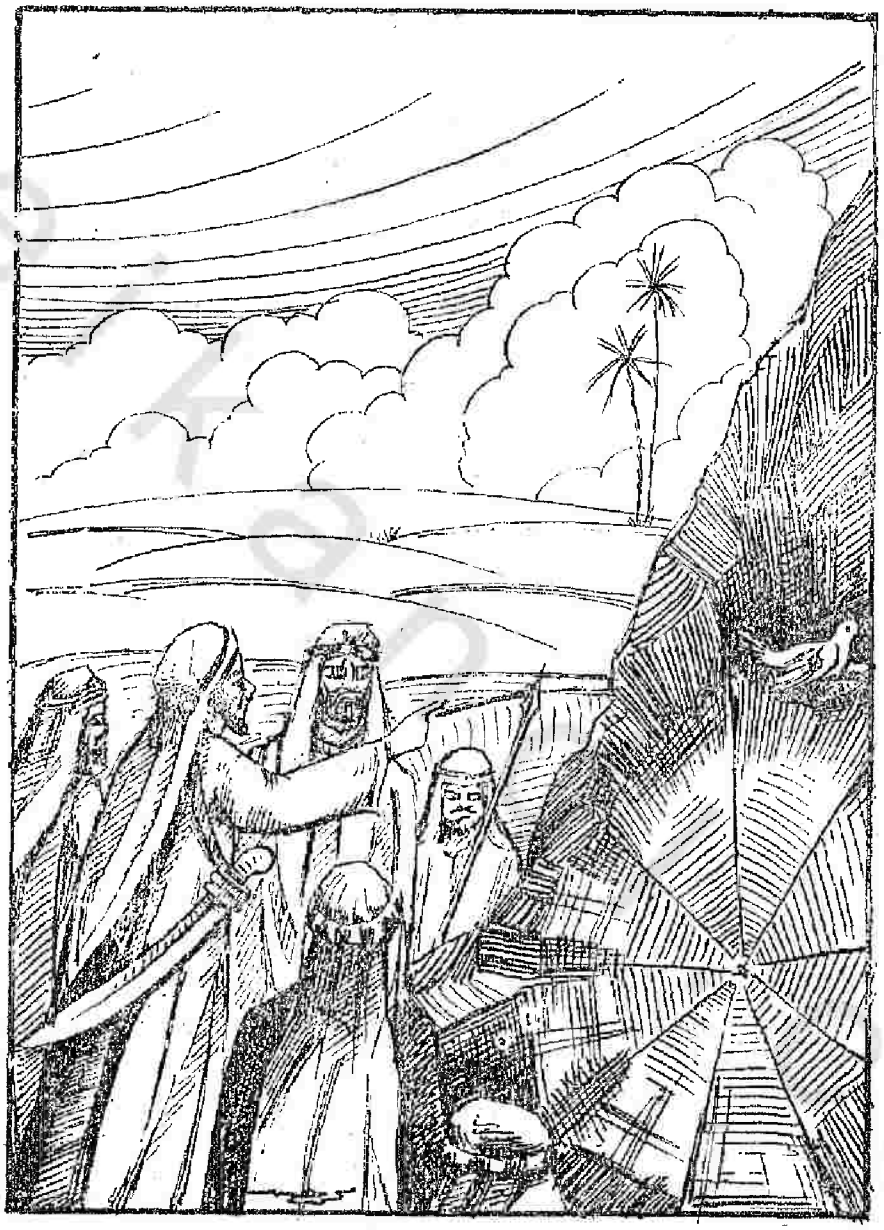

إن على بابه عنكبوتاً قدم من ميلاد محمد

وَلَوْلَا أنا القومُ ظهورَهم ، وانطلقوا فى الصحراء يَبْحَثُونَ عنا ، فتنفَّستُ الصُّعَدَاءَ[١] ، وبكيتُ فرحاً وشُكْراً أنْ نجا رسولُ الله !

وأخذَ ولدِى « عبدُ الله » يُدْلِجُ علينا[٢] ، فيحملُ إلينا أخبارَ القوم فينا وأحوالَهم ، وعرفنا منه أنَّ قُرَيْشاً قصدتْ فَرْشَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فجرِ اليومِ الذى ائتمرتْ فيه ، وسلَّتْ سُيوفَها مِنْ أغمادِها ، ثمَّ كشفتِ الغطاءَ عن النائمِ فإذا بها تجدُ عليًّا ، فأسقطَ فى يدِها[٣] وصاحتْ : أينَ محمدٌ يا علىُّ ؟ أينَ محمدٌ ؟ ، وعلىٌّ ينظرُ إليهمْ ولا يُجيبُ .

ولمَّا عرفُوا أنَّهمْ لا يَبْلُغُونَ منهُ مأربًا ، راحُوا يُفتِّشُونَ عنهُ فى كلِّ مكانٍ ، وجعلُوا لِمَنْ يأتِى به حيًّا أوْ ميِّتًا مائةَ ناقةٍ !. فخرجتْ الجموعُ تقتفِى الآثارَ حتَّى وصلتْ إلينا فى الغارِ .

ومكثنا هناك ثلاثاً حتى سكنَ الطَّلبُ عنَّا ، وتلهَّتْ قريشٌ بشهواتِها ، فجاءنا الدليلُ بالراحلتينِ ، وأخذْنا طريقَ السَّاحِلِ إلى يَثْرِبَ .

* * *

سِرْنا اللَّيلَ وأطْرافَ النَّهارِ ، وواصَلْنا السُّرَى هارِبينَ بدِينِنا إلى « يَثْرِبَ » وإذا بحديثِ هِجْرتِنا قد بلغَ أصْحابَنا فيها ، وإذا هُمْ يترقَّبونَ حُضورَنا ، فيُشْرِفُونَ عَلَى الهِضابِ ، ويتعلَّقُونَ بِذُرَى[٤] الأشجارِ ، ليُسَرُّوا

---

(١) تنفساً عميقاً .
(٢) يسير إلينا ليلا .
(٣) خاب أملها .
(٤) بأعالى .

وعلى ينظر إليهم ولا يجيء

بهَرَهُمْ فى شِعابِ الصَّحراءِ ، وَيَسْتطلِعوا الصُّورَ الَّتى يَقْذِفها لهم السَّرابُ[١] ، فإذَا ما آذَنَتْهُمُ الشمسُ بِحَرِّها ، رجَعوا إلى بيوتِهم آسِفين !

وفى غَداةِ يومٍ دَنَوْنا مِنْها ، ولاحَتْ لنا آطامُها[٢] ، فرأَيْنا القومَ يتدافعونَ إلينا ، ويَرْقُصُون طرَبًا لمَقْدَمِنا ، وَيَشْكُرونَ لله سلامَتَنا . فمِلْنا إلى «قُباءَ» نَسْتَرِيحُ فيها حِينًا ، وَابْتَنَينا بها مَسْجِدًا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، وَصَلَّيْنا لله وشكَرْنا ، ثم أَصْلَحْنا مِنْ شأْننا وقَصَدْنا الْمَدِينةَ .

سِرْنا بيْنَ صفوفٍ مِنَ المسلمينَ ، مَاجَ الوادى بهِمْ ، كما يَمُوجُ بالسَّيلِ الدَّافق ، وأَحاطَتْ بنا القِيانُ[٣] يَعْزِفْنَ وَيُنْشِدْنَ أوَّلَ نَشيدٍ لجماعةِ الإسْلامِ :

طَلَعَ البَدْرُ علَيْنا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ علَيْنا ما دَعَا لِلّهِ دَاعْ
أَيُّها المَبْعُوثُ فِينا جِئْتَ بالْأَمْرِ الْمُطَاعْ

ودَخَلْنا المدينةَ ، والقومُ يتعَلَّقُونَ بِرِكابِنا ، وَفِى الْأَنْصارِ حماسَةُ ترحيبٍ بنا ، وَنَشْوةُ طَرَبٍ لمَقْدَمِنا ، تراها فى عيونِهِمُ الضاحكةِ ، وفى نُفوسِهِمُ المُشْرِقةِ ، وفى كَلِماتِهِمُ الخالصةِ ، وفى تحيَّاتِهِمُ الطيِّبَةِ .

وكلُّ واحدٍ منهم يودُّ لَوْ يَنْزِلُ الرَّسولُ فى دارِه ، فَيُرَفرِفُ علَيْها جِبْريلُ كلَّ يومٍ صَباحا ومَساءً يحمِلُ رسالةَ ربِّه إلى نَبيِّه .

وتجاذَبَ القومُ زِمامَ «القَصْواءِ» ناقةَ الرَّسولِ ، وَهَمُّوا أَنْ يَثْنُوها

---

(١) ما يتراءى للقوم كالماء وليس به . (٢) حصونها . (٣) المغنيات

إلى بيوتهم ، فوقفت كل عشيرة أمامها تريد أن تتجه إليهم ، وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ما عسى أن يحدث بين القوم ، لو استأثر بها فريق على فريق ، فقال لهم : « خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة » . فتركوا لها زمامها ، وأدركوا أنها مسيرة بأمر ربها .

فسارت حتى أتت مربدا[1] لبني النجار فأناخت فيه ، وبقي الرسول عليها حتى تلقي بجرانها[2] ؛ فإذا بها تنهض وتسير ، ثم تعود إلى مناخها الأول فتبرك وتطمئن في مكانها .

فنزل الرسول عنها يقول : « هٰهنا المنزل إن شاء الله ! رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » .

ولا تسلني أية غبطة سرت في أصحاب هذا المكان ، وقد نزل الرسول في جوارهم ! فقد خرج إليه ولائدهم[3] ، يستقبلن ضيفهم العزيز عليهم وينشدنه :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا[4] محمد من جار !

ونظر الرسول إليهم نظرة شكر وامتنان قائلا : أتحببنني ؟ فقلن : إي[5] والله . قال : « الله يعلم أن قلبي يحبكن » .

وعزم الرسول على أن يتخذ المسجد والمسكن في تلك البقعة المباركة ،

---

(١) مبركا لإبلهم . (٢) تستقر . (٣) جواريهم .
(٤) ما أحب . (٥) نعم ، ويأتي بعده القسم .

وكانَ لا بُدَّ مِنْ أنْ ينزلَ فى إحْدَى الدِّيارِ حِينًا من الدَّهرِ حتَّى نصنعَ لهُ ما يريد .

واحتملَ « أبُو أيُّوبَ الأنْصارِىُّ » رَحْلَهُ ، ووَضَعَه فى دارِه ، ثمّ انتقلَ إليها الرَّسولُ ضيْفًا مُكرَّما .

وكانَتِ الدَّارُ منْ طبقتَين ، فآثَرَهُ[1] صاحِبُها بالعُلْوِ ، وأعَدَّ لهُ ما يلْزَمُه فيهِ ، فرَغِبَ الرَّسولُ عَنْ ذلك ، واخْتارَ أنْ يَنْزِلَ فى الطبقةِ الأولَى .

فقال له : « يانبىَّ اللهِ ، بأبِى أنْتَ وأُمِّى[2] ! إنِّى لأكْرَهُ أنْ أكُونَ فى العُلْوِ ، فاظْهَرْ[3] أنْتَ فكُنْ فِيهِ ، ونَنْزِلُ نحنُ فنكونُ فى السُّفْلِ » .

فقال الرسول : « يا أبَا أيُّوبَ إنَّ أرْفَقَ بِنا وبِمَنْ يَغْشَانا[4] أنْ نَكُونَ فى سُفْلِ البَيْتِ » .

فسكتَ الرَّجُلُ على كُرْهٍ منه ، وإنما كَرِهَ أنْ يجادِلَ الرَّسُولَ فى رَأْىِ رآهُ .

ونزَلَ الرَّسُولُ حَيْثُ أرَادَ أنْ يَنْزِلَ ، ولَقيتُ أبا أيُّوبَ بعدَ أيَّامٍ ، وعرَفْتُ من كرمِ جِوارِه ، مايَطِيبُ لِى أنْ أعْرِضَ عليكَ شيئًا منه ، لتُدرك كيفَ انتقلَ الرَّسولُ مِنْ حال إلى حال ، ومن جِوارٍ إلى جِوَار .

حدَّثَنى : أنهم لا يَسيرونَ فوقه إلاّ على أطرافِ أصابِعِهِمْ ، ولا يَقُومونَ

---

(١) حباه وفضله .
(٢) أفديك بهما .
(٣) اصعد .
(٤) يزورنا .

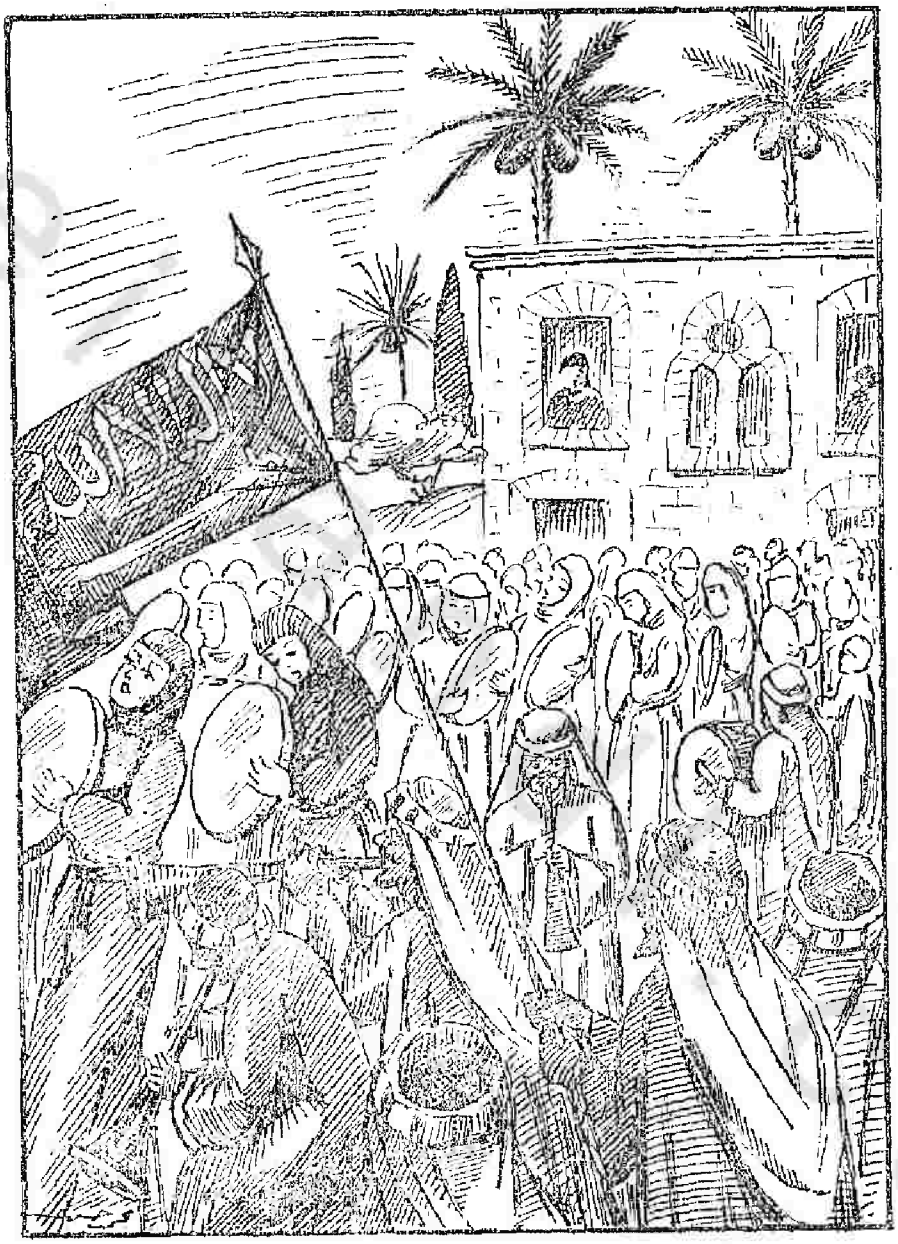

نحن جوار من بنى النجار

ويَقْعُدونَ إلاّ بِحِسابٍ مَعْلوم ، فإذَا نامَ رَاعَوْا نَوْمَتَه ، وَإذَا ناجَى رَبَّهُ رَاعَوْا خَلْوَتَه ، وإذا أَحَسُّوا أنَّهُ جَاعَ اختلفُوا إليهِ بالطَّعامِ وَالشَّرابِ .

قالَ : وإنّا لنُرْسِلُ لهُ الصَّحْفَةَ بالطَّعامِ ، فإذَا مانَالَ منها ، ثُمَّ ردَّها إلَيْنا ، تَيَمَّمْنَا [1] مَوْضِعَ أصابِعِهِ لِنأكلَ ممَّا أكل ، فيَطيبُ لنَا أنْ نأكلَ طعامَنا مِمَّا مَسَّه الرَّسُولُ بيدِه .

وعادَتْ إلَيْنَا الصَّحْفَةُ ذاتَ يومٍ دُونَ أنْ يَمَسَّها رسولُ اللهِ ، فبلغَ الدَّهَشُ منَّا كُلَّ مَبْلَغٍ ، وَمَا أطقْتُ صَبْرًا ؛ فسألْتُه :

مابالُ طعامِنا يارسولَ الله عادَ الليلةَ كما ذهَبَ إليكَ ؟ .

فقال : « إنى وجَدْتُ فيهِ ريحَ هٰذِهِ الشَّجرةِ [2] وَأَنَا رَجُلٌ أُنَاجِى [3] رَبِّى وإنَّ الملائِكةَ لتتأذَّى مِمَّا تتأذَّى به الإنْسُ ، مأمَّا أنتُمْ فَكُلُوهُ » . فرجَعْتُ وأخبَرْتُ رَبَّةَ مَثْوَاىَ ، فلَمْ تَضَعْ له ثُومًا بَعْدَها فى طَعامٍ .

هٰذا « ياسَارِح » ما يصْنَعُ القومُ هنا لرسولِ اللهِ ، ولعلَّكَ تذكرُ ما كانَ يصنعُ له جارُهُ وعمُّه « أبُو لهبٍ » فى مكةَ ، وزَوْجُه حَمَّالَةُ الحَطَبِ [4] .

فما خَرجَ الرَّسولُ فى مكةَ مِنْ بيْته يَوْمًا إلاّ وَجَد قذَرًا أمامَ داره ، وريحًا خَبيثةً : فما يزيدُ عَلَى أن يَلْتَفِتَ إليهم ، ويقولُ لهم : « أىُّ جِوارٍ هذا يابَنِى عَبْدِ مناف ؟ ! » فلا يَزيدونَهُ إلاّ تمادِيًا فى شَرّ ، ولَجاجًا فى الباطلِ .

وأمَّا هُنَا فإنَّه قُرَّةُ عَيْنِ كُلِّ مُسْلِمٍ مِنَ الأنْصارِ والمهاجرينَ .

---

(١) قصدنا .
(٢) يقصد الثوم .
(٣) أذكر .
(٤) الساعية بالكذب والنميمة .

وما زَالَ أبو أيوبَ يَسْتَشْفِعُ بالمُسْلِمِينَ إلَى رسولِ الله ، حتَّى رَضِيَ الرَّسُولُ أنْ يَنْزِلَ بالطَّبقةِ العُلْيَا ، ونَزَلَ صاحِبُها فى الطَّبقةِ السُّفْلَى .

ثم أخَذْنَا نعمَلُ فى بناءِ المَسْجِدِ ، وَبَيْتٍ يَسْكُنُ فيه رسولُ الله ، واشتَرَيْنا البُقْعَةَ المباركةَ التى أناخَتْ فيها « القَصْواء » مِنْ أضحابِها ، وعمِلْنا فى بنائِها وعِمارتِها ، وعملَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مَعَنا كأحَدِنا .

فَدَبَّ النَّشَاطُ فى ضِعافِنا ، وهَزَّ السُّرورُ أنْفُسَنا ، وجَعَلْنا نَشِيدَنا :

لَئِنْ قَعَدْنا والنبيُّ يَعْمَلُ لَذَاكَ مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّلُ(١)

ولما رَأَى الرَّسولُ جِدَّنا ونشاطَنا بدا عَلَيْهِ السُّرورُ ، وَأَخَذَ يَدْعُو لنا رَبَّنا : « اللهُمَّ لا عَيْشَ(٢) إلاَّ عَيْشُ الآخِرَهْ ، اللَّهمَّ ارحمِ الأَنْصارَ والمُهاجِرَهْ » وأعْجَبَنا ذلكَ الدُّعاء ، فتَرَكْنا نَشِيدَنا ، وأَخَذْنا نهتِفُ بِهِ ، وكانَ الشَّرفُ لِأحَدِنا أَنْ يَعْمَلَ وَأَنْ يَنْصَبَ ، وكلَّما كانَ الإيمانُ مُتَمَكِّنًا مِنْ قلبِ امْرِىءٍ رأيْتَ ذلك نَشَاطًا فى بَدَنِه ، وعَمَلًا فى يَدَيْهِ ، فعملْنا عَلَى قَدْرِ ما فى نُفوسِنا من إيمان ، ومَا فى قلوبِنا مِن حُبٍّ للهِ ورسولِه . ففازَ السَّابقونَ الأوَّلونَ بأعْظَمِ أجْرٍ ، وَأَوْفَى نصيبٍ .

فلَوْ شاهَدْتَ « عمَّارَ بْنَ ياسِرٍ » وهو ينْهَضُ بحِمْلِهِ مضاعفًا كما يَنْهَضُ جَمَلٌ مِنْ عِقَالٍ ، وَيَرْتَجِزُ وسَطَ المُسْلِمِين :

---

(١) الضائع . (٢) لاحياة .

لا يَسْتَوِى مَنْ يَعْمُرُ المَسَاجِدَا
يَدْأَبُ(١) فِيهِ قَائِمًا وقَاعِدَا
وَمَنْ يُرَى عَنِ الغُبَارِ حَائِدَا(٢)

لرَأَيْتَ فَتًى جَلْدًا ، ولعرفْتَ أنَّ الرَّسولَ ما يَخُصُّ هؤلاء الضُّعفاءَ بِحُبِّهِ العظيمِ ، إلاَّ لِفضيلةٍ فى نُفُوسِهِمْ تَخْفَى علينَا ، ولكنَّها لا تَخْفَى عَلَى النَّبِىِّ الذى يُمِدُّهُ اللهُ بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِهِ .

وكأنَّما غاظَ نَشِيدُ « عَمَّار » بَعْضَ الناسِ ، وحَسِبَهُ يُعَرِّضُ بِهِ ، فأخَذَتْهُ حَمِيَّةُ(٣) الجاهِلِيَّةِ ، ووَقَفَ فى وَجْهِهِ يُشِيرُ بِعَصَاه مهدِّدًا .

ويقولُ : قدْ سمِعْتُ ماتقولُ اليومَ « يابْنَ سُمَيَّةَ(٤) » واللهِ إنى لأرانِى سَأَعْرِضُ هذه العَصَا لِأَنْفِكَ !

وبلغَتِ الرَّسولَ المقالةُ ، فغَضِبَ أشَدَّ الغَضَبِ ، ووقفَ بَيْنَنا وقالَ :

« مَالَهُمْ وَلِعَمَّار ! يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ ! إِنَّ عَمَّاراً جِلْدَةُ مَا بَيْنَ عَيْنِي وَأَنْفِي(٥) » .

فانْظُرْ أىَّ شَرَفٍ حازَه عَمَّار ، أنْ صبرَ على صاحِبِهِ ، وكَظَمَ غَيْظَه !!

ورجَعَ الرجلُ إلى صوَابِه ، فأخَذَ بِرَأسِ عَمَّارٍ يُقَبِّلُهُ ، وذهبَ إلى الرسولِ يَعْتَذِرُ إليه ، فلقِىَ الصَّفْحَ الجميلَ .

وقَدْ أتممْنَا بِناءَ المسجد ، ورَفَعناه فوْقَ قامَةِ الرجلِ بقَلِيلٍ ، واتَّخَذْنا

---

(١) يعمل باستمرار . (٢) معرضاً . (٣) عصبية .
(٤) اسم أم عمار . (٥) أعز الناس لدى .

جُدْرانَهُ مِنَ اللَّبِنِ[١] ، إلاّ ما كانَ من جوانبِ الأبوابِ فجعلْناهُ من الحجرِ ، وسقفْناهُ بالجريد ، واتّخذْنا عُمُدَهُ منْ جُذوعِ النَّخْلِ ، وأبقيْنا بهِ جِذْعًا لاسْقُفَ له ، لتدْخُلَ منه الشّمْسُ والهواءُ ، ونَنظرَ فيهِ إلى السّماءِ ، وجعلْنا مِحْرابَهُ[٢] جِهةَ الشّمالِ يتّجه إلى بَيْتِ المَقْدِسِ ، وفتحْنا له ثلاثة أبوابٍ ، أحدُها ينفُذُ إلى مَسْكنِ الرّسولِ .

وبنَيْنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم حُجْرتينِ عَلَى هَيْئةِ بناءِ المسجدِ ، جعلَ إحداها لزَوْجه «سَوْدَةَ بنْتِ زَمْعَةَ» ، وهيّأ الثّانيةَ «لِعائشةَ» بِنْتِ الّتي يُزْمِعُ الرّسولُ أنْ يَبْنِيَ[٣] بها .

هذا ما كانَ مِنْ حديثِ الهجرةِ ، وحَديثِ « يَثْرِبَ » التي سُمِّيَتْ « المدينةَ » مُنذُ هبطَ رسول اللهِ بها .

ولَعلّكَ لاتَنْسَى أن تُحدِّثنا عن مكةَ وأخْبارِ القومِ فيها ، ولعلك تُعينُ قَوْمَنا على الهجرةِ إلَينا ، وتُعَمِّي[٤] عَلَى الكُفارِ أخْبارَنا ، وتُطْلِعُنا على كلِّ جليـــل ودَقيقٍ[٥] من أمرِهم ، وتكونُ عَوْنًا لِلْمُسْتَضْعَفينَ منَ المُسْلِمين ، وكيْدًا للْكائِدِينَ .

والسلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه .

---

(١) الطوب النيء . (٢) متجه صلاته . (٣) يتزوجها .
(٤) تخفي . (٥) كبير وصغير .

ثُمَّ جَاءَنى مِنَ الصَّدِيقِ الكِتَابُ التَّالى :

وصَلَنَا كِتَابُكَ يا سارحُ ، ولقَدْ تألَّمَ الرَّسولُ والمؤمنونَ ممَّا ذَكَرْتَ مِنْ أنَّ قريشاً تَحْبِسُ إخْوانَنا المسلمينَ وتعذِّبُهم ، ولا سيَّما المُسْتَضْعَفون منَ المَوَالِى ، وَتَمْنعُهم أنْ يَلْحقوا بِنَا فى دِيارنا .

ومَنْ أظْلَمُ مِنْ قَوْمٍ يُؤْذُونَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ ، فلا يُحْسِنُوا جِوارَه ، وَلاَ يَدَعُوه يُهاجِرُ بدِينِهِ حَيْثُ يُريد ؟ !

فَواسِ هؤلاءِ الضُّعفاءَ ما اسْتَطَعْتَ ، وَبَشِّرْهُمْ بِأَنَّ اللهَ لا يَنْساهُمْ ، فإنَّهُ غَيُورٌ على دِينه ، وَلَيَقْوِيَنَّ هذا الدِّينُ ، وَلَيَفِيضَنَّ مِنَ المدينةِ على ما حَوْلَها إفَاضَةَ السَّيْلِ الَّذِى لا يَحْبِسُه تَلٌّ ولا جَبَلٌ ، وَلَيَبْلُغَنَّ الشَّامَ وَصَنعاءَ الْيَمن ، حتَّى لَيَقُولُ القَائِلُ : اللهُ أكْبَرُ ! فيَتَرَدَّدُ صَدَاها فى الخَافِقَيْنِ (١) .

وأرْجُو أنْ يَصْطبِرَ إخْوانُنا عَلَى الأذَى ، حَتَّى يجعلَ اللهُ لَهُمْ مَخْرَجًا . فَقَدْ أخذَ الرَّسولُ يدعُو لَهُمْ ربَّهم فى الصلاةِ الأُولَى والآخرةِ (٢) ، وإنَّهُ لَسميعٌ مُجيبٌ .

وأمَّا ما ذَكَرْتَ مِنْ أنَّ « أبَا سُفْيانَ بنَ حَرْبٍ » قد اسْتَوْلَى عَلَى دُورِ

---

(١) المشرق والمغرب . (٢) ذلك القنوت ، شرع أولا للدعاء للمستضعفين .

« بنى جحش » عقيب هجرتهم ، وباعها وأكل ثمنها ، فلقد بلغ ذلك أهلها فذهب « عبد الله » إلى الرسول يحدثه الحديث ، فقال له : « ألا ترضى أن يعطيك الله بها دارا خيرا منها فى الجنة » !

قال : بلى !

فقال الرسول : « ذلك لك » .

وطابت أنفس القوم واحتسبوا أموالهم فى سبيل الله . وما دار حقيرة فى الدنيا بجانب دار يصنعها العزيز الحكيم لخلقه الطائعين ؟ ! فلتكثر قريش مما تصنع ، فما ذلك إلا عرض[1] الحياة الدنيا ، وللآخرة خير وأبقى .

أما ما أبديته من تشوقك لسماع حديثنا ؛ وحديث الرسول فينا ، فذلك جدير بك ، وأسأل الله أن يوفقنى لمرضاتك .

وبعد :

فقد عمرنا المسجد الذى بنيناه بأيدينا ، وذكرنا الله فيه سرا وجهرا ، وصلينا صلاة الجماعة خلف الرسول ، وعقدنا صلوات الجمعة فيه . وخطبنا فيها النبى صلى الله عليه وسلم ، فبشر وأنذر[2] ، ورغب وأرهب .

فإذا بشرنا بما عند الله ، رأيت فينا وجوها مشرقة مستبشرة ،

---

(١) متاع.

(٢) التبشير بالثواب والإنذار للعقاب .

ونفوساً طيبة جذلة[١] ، حتى لتشم روح[٢] الجنة وعبيرها[٣] ، ولتسمع حفيف أشجارها وبساتينها !

وإذا ما خوفنا غضب الله ، سمعت نشيجاً[٤] عالياً ، وشاهدت دموعاً حراراً ، وقلوباً تجب[٥] ، ونفوساً تنتحب[٦] !

فإذا مادعا إلى الإحسان ، خرج القوم من ملهم جميعاً ، وعرضوا على الرسول كل ما يملكون ، متجردين من حطام[٧] الدنيا ، هاربين إلى جنة الله !

وإن كثيراً منا ليحفظون خطبه فينا ، وإن كان لا يأمرنا بذلك ، فلقد قال في أول جمعة لنا بالمدينة ، بعد أن حمد الله :

« أما بعد أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمن[٨] والله ليصعقن[٩] أحدكم ، ثم ليدعن[١٠] غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ، ولا صاحب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ؟ ، وآتيتك مالاً ، وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق[١١] تمرة فليفعل ؛ ومن لم يجد ، فبكلمة طيبة ، فإنها تجزى الحسنة

---

(١) فرحة . (٢) رائحة . (٣) عطرها . (٤) بكاء .
(٥) تخفق وتضطرب . (٦) تبكي . (٧) آثار . (٨) اعلموا .
(٩) ليموتن فجأة . (١٠) يتركن . (١١) بنصف .

عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ؛ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَعَلَى رَسُولِ اللهِ ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه » .

فَانْظُرْ مَا تَفْعَلُ تِلْكَ الكَلِمَاتُ بِقُلُوبِ الطَّيِّبِينَ الأَخْيَارِ ، مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ !

الأَنْصَارُ : أَحْبَابُ اللهِ ، وَأَحْبَابُ الرَّسُولِ حَقًّا . فَقَدْ فَتَحُوا لَنَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ قُلُوبَهُم وَبُيُوتَهُمْ ، وَشَاطَرُونَا أَمْوَالَهُم وَثِمَارَهُم .

وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَطْرَبُ أَنْ يُقَدِّمَ لَنَا مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ مَعْرُوفٍ ، وَيَعْتَبِرُ قَبُولَ ذَلِكَ فَضْلًا لَنَا عَلَيْهِ !

وَلَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الكَرَمُ أَنْ يَتَنَازَعُوا فِي الإِجْمَالِ[1] إِلَيْنَا وَاسْتِضَافَتِنَا ، فَكُلُّهُمْ يُرِيدُ أَنْ يُؤْوِيَنَا فِي دَارِهِ ، وَحَكَّمُوا الرَّسُولَ فِي أَمْرِنَا ، فَجَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ يَنْزِلُ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ الأَنْصَارِ ، وَطَابَتْ نُفُوسُنَا جَمِيعًا بِذَلِكَ الحُكْمِ السَّدِيدِ ، وَبَدَا لِكُلِّ مُهَاجِرٍ أَخٌ أَنْصَارِيٌّ يُسَاكِنُهُ فِي دَارِهِ ، وَيُقَاسِمُهُ مَالَهُ ، وَيَرِثُهُ وَيُوَرِّثُهُ .

وَإِنَّهَا لَا خُوَّةٌ لَمْ تَعْرِفِ العَرَبُ مِثْلَهَا ، وَلَكِنَّهَا أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ عَزَّزَهَا[2] رَسُولُ اللهِ ، فَأَخَذَ بِيَدَيِ الأَخَوَيْنِ ، وَضَمَّهُمَا فِي قَبْضَتِهِ ، وَقَالَ :

« تَآخَيَا فِي اللهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ » .

فَنَحْنُ الآنَ فِي رَغَدِ عَيْشٍ ، وَسَعَةِ نَفْسٍ ، وَرَاحَةِ ضَمِيرٍ ، وَحُرِّيَّةِ دِينٍ .

وَلَقَدْ فَشَا الإِسْلَامُ فِي المَدِينَةِ ، وَدَخَلَ كُلَّ دَارٍ مِنْ دُورِهَا ، وَتَعَدَّى

---

(١) الإحسان . (٢) أيدها .

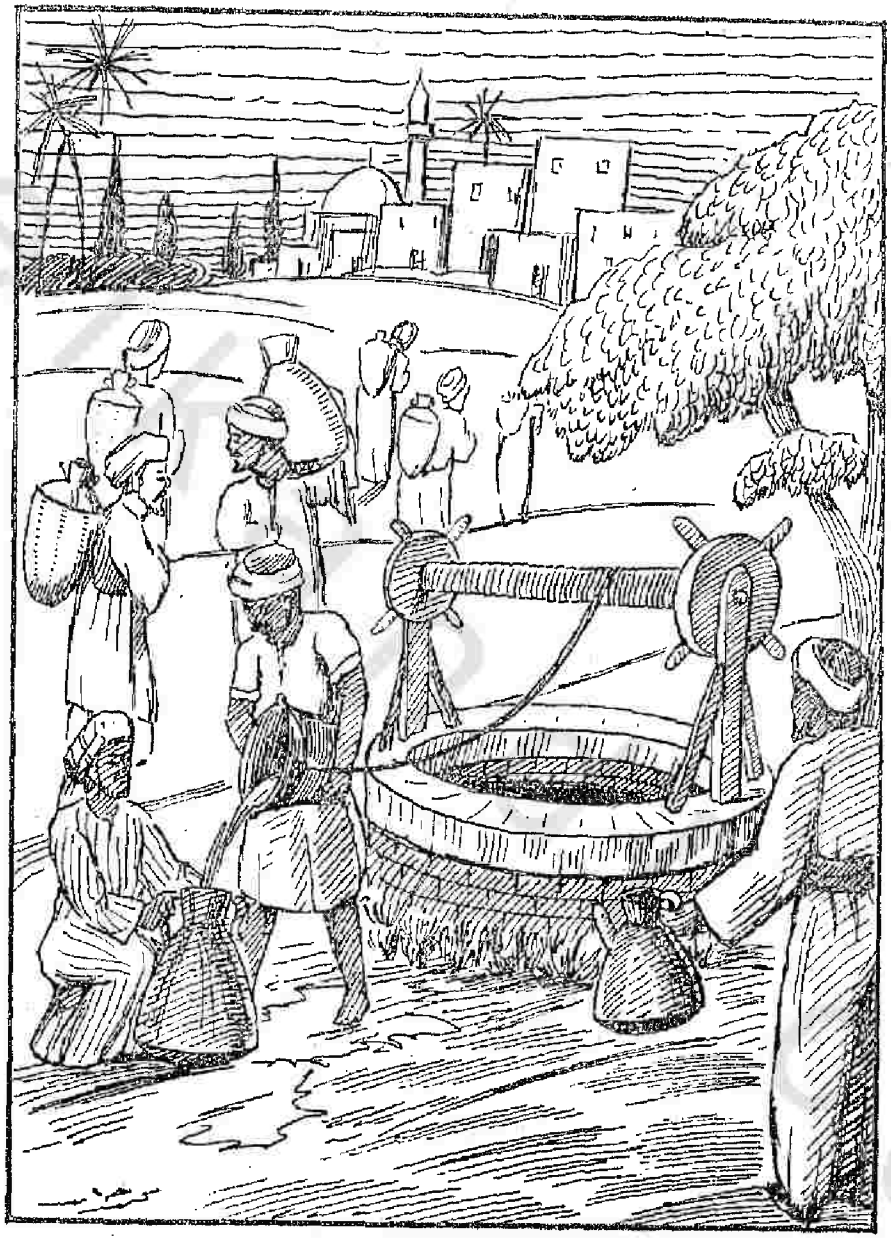

من مظاهر الحياة فى المدينة

الأسوارَ إلى ما حولَها ، وأصبحنا بفضلِ الهجرةِ أحراراً كراماً ، نرفعُ صوتَنا بذكرِ اللهِ ، ونتعبدُهُ سراً وإعلاناً لانهابُ إنساناً .

ولقدْ وُفِّقْنا إلى دعوةٍ للصلاةِ يسمعُها الإنسانُ منّا في دارِهِ أوْ في حقلِهِ أوْ سوقِهِ ، فينفضُ يدَهُ مما يشغلُه ، ويُيمِّمُ طريقَ المسجدِ ، وإنها لدعوةٌ طيبةٌ ، وإنَّ سماعَها من صوتٍ ندِيٍّ رخيمٍ[1] كصوتِ « بلال » يزيدُ في جمالِها وجلالِها ، تلكَ هي :

« اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، أشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلا اللهُ ، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ ، أشهدُ أنَّ محمداً رسولُ اللهِ ، أشهدُ أن محمداً رسولُ الله ، حيَّ[2] على الصلاةِ ، حيَّ على الصلاةِ ، حيَّ على الفلاحِ ، حيَّ على الفلاحِ ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ، لا إلهَ إلا اللهُ » .

ولو سمعتَ كيفَ تتصاعدُ تلكَ الدعواتُ في هذه السماواتِ ، وكيفَ يُقبلُ عليها الناسُ من كلِّ فجٍّ عميقٍ[3] ، وكيفَ تلجُ[4] أصداءُ[5] الإسلامِ في كلِّ منفذٍ ، وتخترقُ دعوتُه كلَّ أذنٍ ، لعرفتَ أننا عززنا بعدَ ذلةٍ ، وكثرنا بعدَ قلةٍ ، وانبعثنا أمةً جديدةً ، بتلكَ الهجرةِ المباركةِ .

ولعرفتَ أنَّ الإسلامَ وُلِدَ غلاماً في « مكةَ » وظلَّ غلاماً فيها حتى إذا بلغَ عامَه الثالثَ عشرَ ، احتضنتْه المدينةُ ، فتفتَّى وتعزَّزَ[6] ، وبلغَ ماشاءَ اللهُ

---

(١) رقيق . (٢) أقبلوا . (٣) طريق بعيد .
(٤) تدخل وتتسرب . (٥) دعوات . (٦) تقوى .

أن يَبْلُغَ من قُوَّةٍ ، كما يُدْرِكُ الغلامُ ، فينتقلُ من الطفولةِ إلى الرُّجولة ، وإنهُ لَطَوْرٌ عظيمٌ .

ولقد انتقلَ الرسولُ إلى دارِه التى بَنَيْناها بجوارِ المسجدِ ، وغادرَ دارَ « أبى أيُّوبَ » شاكِرًا لجوارِه ، وكرمِ ضيافتِه .

وَبَنَى[1] بعائشةَ فى حُجْرةٍ فيها ، وأظُنُّك مُشْتاقًا لأنْ تعرفَ شيئًا عن دار الرسول ، أعَزِّ رجلٍ فى المدينةِ .

هِىَ مَبْنيَّةٌ مِنَ اللَّبِنِ وَالطِّينِ كما ذكرتُ لكَ ، يلمسُ الواقفُ سَقْفَها بيدَيه ، وإذا اطَّلَعْتَ عليها لم تَجِدْ إلاّ سريرًا صنعْناهُ من خَشَبتيْنِ شَدَدْناهُما بحِبالٍ ، وما على السَّريرِ إلاّ وِسادةٌ حَشْوُها لِيفٌ ، وجَرْدُ قَطيفةٍ[2] ؛ فإذا كانَ الصَّيْفُ ثَنَاها تَحْتَهُ ورَقَدَ عليْهَا ، وإذا كان الشِّتاء رَقَدَ على نِصْفِها ، وتغطَّى بنِصْفِها . هذا مَرْقَدُه .

وأمَّا الدّارُ فلا ترَى فيها إلاّ جَرَّةً ، ومِخْضَبَ ماءٍ[3] ، وآنيةً مِنْ خزَفٍ ورَفًا بِهِ حَفَنَاتٌ من شَعيرٍ !

هذا مَنْزِلُ الرسولِ ، وهٰذهِ دارُ عَرُوسِهِ ، فيالَلشِّقْوةِ[4] مَنْ يَتكالَبُ[5] على الدُّنْيا ، وقد زهِدَ فيها أعْلَمُ الناسِ بما وراءَها !

أمَّا طوائفُ المدينةِ فقَدْ عرَفْتَ من أمرِ الأنصارِ شيئًا ، وهُمْ عربُ

---

(١) تزوج . (٢) قطيفة ذهب وبرها . (٣) وعاء لغسل الثياب أو صبغها .
(٤) ما أشقى ! . (٥) يتدافع ويتزاحم .

الأَوْسِ والخَزْرَجِ ، قَدِمْنا عليهم فوجَدْناهم يَوَادُّون عشائرَ مِنَ اليهودِ قويةً بجاهِهِمْ وأموالِهم ، قويةً بدهائِهِمْ وصناعاتِهِمْ ، لهمْ قُرًى وحُصونٌ ، ومُلْكٌ كبيرٌ ، ومالٌ وفيرٌ ، يزْعُمونَ أنَّهُمْ أصحابُ « يَثْرِبَ » قبلَ أنْ تَسْقُطَ عليهمُ الأَوْسُ والخَزْرَجُ ؛ فيرَوْنَ فى أنْفُسِهم أصحابَ الدَّارِ ، غلَبَهُمُ العربُ بكَثْرَتِهم وغلَبُوا العربَ بأموالِهِمْ ، وبما يُؤَرِّثُونَ[1] مِنَ البَغْضاءِ بَيْنَهُمْ ، فيُحالِفُونَ الأَوْسَ عَلَى الخَزْرَجِ تارَةً ، وتارَةً يُحالِفونَ الخزْرَجَ على الأَوْسِ ، ويَبِيعونَهُمْ أَسْلِحَتَهُمْ مِنْ دُرُوعٍ وسُيوفٍ ، ويُمِدُّونهم بأَمْوالِهِم مُرابينَ رِباً مُضاعَفاً .

هؤلاءِ هُمْ « قَيْنُقاعُ ، وقُرَيْظَةُ ، والنَّضِيرُ » يَزْعُمونَ أنهُمْ أهْلُ كتابٍ يعرفونَ ما لا يَعْرِفُ العربُ الأُمِّيُّون[2] .

ولقدِ انْتَظَرُوا رَسولاً يُبْعَثُ من بَينهم مِنْ وَلَدِ إسرائيلَ ، فلمَّا بُعِثَ رَسُولُنا صلى الله عليه وسلم من العربِ ، حَسَدُوا العربَ أَنْ أَخْرَجَ اللهُ نَبِيًّا منهم ، وحَسَدُوا الرَّسولَ أَنْ وَضَعَ اللهُ فيهِ رسالتَه !

وإنَّهم يعرفونَ أنَّهُ رسولُ اللهِ حَقًّا ، كما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُمْ ، ويَجِدونَ أَوْصافَه فى كتابِهِمْ ، ولكنَّه البَغْيُ[3] والحسدُ رانَا[4] على قلوبِهِمْ ، وأَصَمَّا آذانَهُمْ ، فلم يتفَتَّحْ للإسلامِ منهم إلاَّ مَنْ أرادَ اللهُ به خيراً ، وهمْ عَدَدٌ قليلٌ .

---

(١) يوقدون .
(٢) العرب لأنهم لا يكتبون .
(٣) الظلم .
(٤) غطيا ودنسا .

أجَلْ ، لقدْ أسلمَ رَئيسٌ من رؤسائهم هوَ « الحُصَيْنُ بنُ سَلاَّم[١] » لمَّا تحقَّقَ منَ الرَّسولِ صِدْقَ نُبُوَّتِهِ ، وَتوافقَ ما رآهُ فيه مافي كتابهِ ، فكأنَّه رآهُ وصُورَتَهُ في المِرآةِ ؛ وكتمَ عن قومِهِ إسلامَه ، وجاءَ إلى النبيِّ يقول :

« يارَسولَ اللهِ إنَّ يهودَ قومٌ بُهُتٌ[٢] ، وإنِّي أُحِبُّ أنْ تُدْخِلَنِي في بَعْضِ بَيْتِكَ ، وتُغَيِّبَنِي عَنْهم ، ثمَّ تَسْأَلهم عني حتى يُخْبِرُوكَ كيفَ أنَا فيهمْ ، قَبْلَ أنْ يَعْلَمُوا إسْلامي ، فإنَّهُمْ إنْ عَلِمُوا بهِ بَهَتُونِي وَعَابُونِي » .

فأَدْخَلَه رسولُ اللهِ في بَعْضِ بُيُوتِه ، ودخَلَ عليه قومٌ مِنَ اليهودِ ، فكلَّمُوا الرَّسولَ ، وسأَلُوه ، ثمَّ قال لَهُمْ :

« أيُّ رجلٍ الحُصَيْنُ بْنُ سَلاَّمٍ فِيكُمْ » ؟

قالوا : سَيِّدُنا وابْنُ سَيِّدِنا ، وحَبْرُنا[٣] وعَالِمُنا !

فلما فَرَغُوا من قَوْلِهِم ، خَرجَ عليهم ابنُ سَلاَّمٍ ، فقالَ لهم : « يا مَعْشَرَ يَهُودَ ، اتَّقُوا اللهَ ، وَاقْبَلُوا ما جاءَ بِهِ ، فواللهِ إنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أنه لَرَسُولُ اللهِ ؛ تَجِدونَهُ مكتوبًا عِنْدَكُمْ في التَّوْراةِ ، باسْمِه وصِفَتِه ! فإنِّي أَشْهَدُ أنَّه رسولُ اللهِ ، وأُومِنُ بِهِ ، وأُصَدِّقُه وأَعْرِفُه » .

فما انْتَهى من قولِهِ حتى وقَعُوا فيه[٤] ، وقالُوا : « مَتَى كنتَ يوْمًا صادِقًا أَوْ عالِمًا ؟ ! »

---

(١) سمى بعد إسلامه : عبد الله بن سلام .
(٢) يفترون على الناس الكذب .
(٣) عالمنا .
(٤) ذموه .

فقال للرّسول : « ألَمْ أُخْبِرْكَ يا رسولَ اللهِ أنّهُمْ قَوْمٌ بُهُتٌ ، أهْلُ غَدْرٍ وكَذِبٍ وفُجورٍ ؟ » ، اللّهُمَّ إنّي لا أَمْلِكُ إلا نَفْسِي فاكْتُبْنِي مِنَ الشّاهِدِين .

هذه حالُ يهودَ ؛ فهيَ ساخِطةٌ على ربِّها أنْ لَمْ يَبْعَثْ نبيَّهُ من إسْرائيلَ ، وهِيَ حاقِدةٌ على محمدٍ أنْ جاءهُمْ رَسُولاً مِنَ الأُمِّيِّينَ ، وحاقدةٌ على المسلمينَ أنْ سَبَقوهُمْ لِهذا الدِّينِ ! ، وما ضَلَّلَ الناسَ كالحَسَدِ .

أليْسَ الحسدُ هوَ الّذي مَنعَ كُبَراءَ قريشٍ وثَقيفٍ أنْ يُسْلِمُوا على يَدَيِ الْيَتيمِ الضّعيفِ ؟ ، فقالوا : « لَوْلا نُزِّلَ هٰذا القُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظيمٍ ! » . أليْسَ الحسدُ هوَ الذي مَنعَ «رَبيعَةَ[1]» أنْ تدْخُلَ في دِينِهِ لأنّ محمدا مِنْ مُضَرَ ؟

وكما لَعِبَ الحسَدُ بقلُوبِ « يَهُودَ » ، لَعِبَ بِقَوْمٍ مِنْ عَرَبِ « يَثْرِبَ » . فصَرفَ قلوبَهُمْ عنِ الإيمانِ الحقِّ ، وأضْمرُوا في أنْفُسِهِمْ كُفْرًا ونِفاقًا ، وزَعيمُ هٰذهِ الفِئَةِ « عَبْدُ اللهِ بنُ أُبيِّ بْنُ سَلولٍ » .

كادَ ذلكَ الرّجلُ يُصْبِحُ مَلِكًا على المدينةِ ، وزَعيماً لِعَشائرِ العَرَبِ جميعاً ، فنظَمُوا له تاجًا مِنَ الخَرَزِ والجَوْهرِ ، وتَهيَّئُوا لِاسْتِقْبالِهِ مَلِكًا مُتَوَّجًا ، وكانَ ذلكَ قبلَ هِجْرتِنا إليْها ، ومُعْظَمُهُمْ عَلَى غَيْرِ مِلَّتِنا[2] ، فلمّا دخلَ الدِّينُ الحقُّ هٰذهِ الدِّيارَ ، وتجمّعَتِ القلوبُ عَلَى رسولِ اللهِ ، وأُشْرِبَتْ

---

(١) بطن من العرب ، هي ومضر من عدنان . (٢) ديننا .

روحَ الإسلامِ ، نَسِيَتْ ما كانتْ تَهيَّأَتْ له ، ورأتْ فى رسولِ اللهِ ما أغْناها عنْ مُلوكٍ وتيجانٍ !

فباضَ الحسدُ وأفرَخَ فى قلْبِ ذلكَ المِسْكينِ ، واعْتَدَّها على الرّسولِ والمسلمينَ ، فدَخلَ فى الدِّينِ بلسانِهِ ، وطوَى الكُفْرَ فى جَنانِه[1] ، ولمْ تَحْمِلْهُ الشَّجاعةُ أنْ يَقِفَ مَوْقِفَ صديقٍ نَصِيحٍ ، أو عَدُوٍّ صريحٍ ، فهُوَ يَلْعَبُ ويتمايلُ كالْمُودِ فى النَّكْباءِ[2] ، ويُؤلِّبُ علَيْنا طائفةً مِمَّنْ ذهَبوا مَذْهَبَه ، ويَجْمعهم حَوْلَه ، ورَسُولُ اللهِ الرَّحيمُ يُسالِمُهم ما سالَموه ، ويَتْرُكُهُمْ لِظَاهرِ أحْوالِهِمْ ، ولا يُنَقِّبُ عَنْ سَرائرِهم[3] .

وَإنَّ اللهَ ليَفْضَحُ سِتْرَهُمْ ، ويَكْشِفُ عَوْراتِهم فى آياتِه ، وَيُذيعُ كثيراً مِنْ سِرِّهِمْ ونَجْواهُمْ ، وَهُمْ معَ ذلكَ يُخالِطونَنا كأنهمْ مُسْلِمونَ ، ويُشارِكُونَنا فى الدِّينِ ، وَيطَّلِعُون على كثيرٍ من أسْرارِنا ، وَيُصَلُّونَ معَنا فى مَسْجِدِنا ، فإذا غَدَا بَعْضُهم إلى بَعْضٍ ، وخَلَوْا إلى شياطِينِهِمْ[4] « قالُوا : إنَّا مَعَكُمْ إنما نَحْنُ مُسْتهزِئُون » .

وأَقُصُّ عليْكَ شيئاً مِنْ خَبَرِهِم ، لِتَعْرِفَ بَعْضَ نِفاقِهِم .

* * *

حدَثَ أنَّ ناقةً ضلَّتْ لِلنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وخرَجَ قومٌ من المسلمينَ

---

(١) قلبه .
(٢) رياح منحرفة تهب من كل الجهات .
(٣) نفوسهم .
(٤) أصحابهم الضالين مثلهم .

فى طلبها ، فقال أحدهم : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، ولا يدرى أين ناقته !

وجاء النبىَّ المخبرُ بما قال عدوُّه ، فدلَّه اللهُ تعالى عليها ، وقال : « إنَّ قائلاً قال : يزعم محمدٌ أنَّه يأتيه خبرُ السماء ، ولا يدرى أين ناقتُه ! وإنِّى والله لا أعلمُ إلاَّ ما علَّمنى اللهُ ، وقد دلَّنى اللهُ عليها ، فهى فى هذا الشِّعْبِ[1] ، قد حبستْها شجرةٌ بزمامها[2] » .

فذهب رجالٌ من المسلمين ، فوجدوها حيثُ قال رسولُ الله !. ولقد بدا للمؤمنين السابقين أن يحترسوا إذا تحدَّثوا فيما بينهم ، وألاَّ يذيعوا أسرارهم على ملأٍ من الناسِ خشيةَ هؤلاء المنافقين . فكثيراً ما رأينا الكلمةَ التى نقذفُ بها فى المسجد ، أوفى مجلسِ الرَّسولِ ، تدورُ فى المدينة فى مجالسِ يهودَ ، ومجالسِ المنافقينَ ، ثُمَّ تعودُ إلينا ممتدَّةً عريضةً !

على أنَّ اللهَ كثيرًا ما فضحهم وأظهرَ سرَّهم !

هذانِ عدوَّانِ للمسلمينَ ، أمَّا الثالثُ قريشٌ ، فإنَّنا لا ننسى أنَّهم أخرجونا من ديارنا وأموالنا ، ومنعوا دينَ اللهِ أنْ يتردَّدَ فى مكةَ وقبائلِ العربِ ، ويُدوِّى فى بيتِ إبراهيم !

هُمْ عدوُّنا الصَّريح ، يُحاربوننا جهرًا ، وهمْ رأسُ الكفرِ ، وأئمةُ الضلال

---

(١) الطريق بين جبلين . (٢) بعقودها .

فأجدرُ بنا ألاَّ نتركهم على شركهم ، ونترُكَ الأموالَ تتدفَّقُ عليهم ليزدادوا طُغيانًا ، وشقاقًا لله ورسوله .

وكأنَّما اختارَ اللهُ هجرتَنا لهذا البلدِ ، لنقفَ في طريقِ قريشٍ ، ونعترضَ تجارتَها في رحلتِها إلى الشَّام ، ونُفسِدَ عليها غِناها وطُغيانَها[١] ، حتى إذا ماذاقتْ الحرمانَ والجوعَ ، تضاءلتْ في نفسِها ، ورجعتْ إلى ربِّها صاغرةً[٢] !

وإنَّا لنأملُ أنْ نغنمَ عيرَها[٣] ، ونأكلَ أموالَها ، ونُحاربَها بسلاحِها ونُؤدِّيَ لها ما كانتْ لنا[٤] أضعافًا مضاعفةً !

ولقدْ أباحَ اللهُ لنا قتالَها ، فنزلَ على رسولِ اللهِ : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ[٥] ، وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ[٦] أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » .

وما نزلتْ علينا هذهِ الآياتُ ، حتَّى شحذتْ[٧] عزائمَنا ، وتذكَّرْنا عدُوَّنا وتحرَّكتْ فينا رغبةُ القِصاصِ[٨] مِنَ الآثمينَ[٩] ، بعدَ أنْ نهضْنا ، وازدادَ عددُنا ، واحتدَّتْ أنيابُنا ، وأصبحَ لنا شوكةٌ[١٠] وعزَّةٌ بينَ الناسِ .

---

(١) ظلمها . (٢) ذليلة . (٣) قافلتها .
(٤) نؤذيها مثل ما آذتنا . (٥) وجدتموهم . (٦) التعذيب للخروج من الدين .
(٧) قوت . (٨) الانتقام . (٩) المذنبين . (١٠) قوة .

ولكنْ نتفرّغَ لتعاليمِ ، عَقَدْنا عهوداً معَ « يهودَ » أنْ نُسالِمَهُمْ وَيُسالِمونا ولا يُساعِدُوا عليْنا عدُوّنا ، فإن فعلُوا ذلكَ باءوا[1] بغضبٍ من اللهِ عظيمٍ .

هذا حديثُنا « ياسارحُ » وإنّا لنأمُلُ فيكَ أنْ تُعرِّفَنا بأحوالِ قُرَيْشٍ ورِحلاتِها فى تجارتِها ، وَالسُّبُلِ الّتى تَسْلُكُها ، وعَدَدِها وعَتادِها وأموالِها ، وتكتُبَ لنا بذلكَ كلِّه ، وَتُرْسِلَهُ مع ثِقةٍ أمينٍ ، أو تَسْبِقَ القومَ إلينا ، وتسْقُطَ عَلَيْنا سُقُوطَ النَّدَى[2] فتُطْلِعَنا عَلَى أحْوالِهِمْ وأسْرارِهِم ، ثُمَّ تَرْجِعَ إنْ شِئْتَ رجوعًا ، أو تَبْقَى إنْ أردْتَ بقاءَ .

وسلامُ اللهِ عليْكَ ، وسلامُ رسولِهِ الحبيبِ ، وعامّةِ المسلمينَ ؟

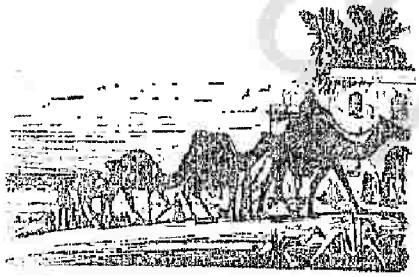

---

(١) استحقوا . (٢) تزورنا خلسة .

وشاطرْتُ الصِّدِّيقَ آراءَهُ فى قُرَيْشٍ ووُجوبِ إذْلالِها ، ووددْتُ أَنْ تقعَ أموالُها غنيمةً لِلْمُسْلمينَ ، وأن تَنْقطِعَ السُّبُلُ بتجارتِها ، حتى تَرْتفعَ الغِشاوةُ عَنْ أعْيُنِها ، فتَتْرُكَ الأَشَرَ والبَطَرَ(١) ، وتَنْزِلَ إلى دُنْيا النَّاسِ ، وتُصيخَ(٢) إلى صَوْتِ اللهِ ، وتَعْلَمَ أنَّ دِينَهُ هُوَ الحقُّ ، وما عَداهُ الْباطِلُ .

وخالطْتُ القومَ ، وخُضْتُ معهم فى أحاديثِهم ، حتَّى وَقَفْتُ على تجارتِهم وقوافِلِها ، فعَلِمْتُ أنَّهم يُزْمِعُونَ أن يُرْسِلوا قافلةً كُبْرَى إلَى الشَّامِ ، تحملُ تجارةً واسِعةً ، تَشْتركُ فيها كلُّ عشيرةٍ منهم ؛ يَسيرُ بها إلى هناكَ « أَبُو سُفْيانَ ابْنُ حَرْبٍ » فى ثلاثينَ رَجُلاً من قَوْمِه .

وانتظرْتُ حتَّى فَصَلَتِ العِيرُ ، وتَحقَّقْتُها بعَيْنى ، فأَرسَلْتُ بخبرِها إلَى أصحابى بالمدينةِ ، ولبِثْتُ أنْتَظِرُ ماتمخض(٣) عنه الأيَّامُ ، فعلِمْتُ أنَّ القافلةَ أفْلتَتْ فى ذَهابِها ، وأنَّ المسلمينَ ينتظرونَها فى إيابِها .

وَإنِّى لَفِى يومٍ أَجْلِسُ إلى « العبّاسِ بنِ عبد المطلبِ » فى المسجدِ ، وعَلَى مَرْمَى البَصَرِ منا طوائفُ من قُرَيْشٍ مُتَحلِّقينَ(٤) يتحدَّثونَ ، إذْ سمِعْنا صُراخًا عالِياً ، ونِداءً حارًّا ، فنفَرْنا إلى الصَّوْتِ ، فإذَا رسولٌ « لأبِى سُفْيانَ » يَصْرُخ

---

(١) الكفر بالنعمة والطغيان .
(٢) تستمع .
(٣) تنكشف .
(٤) عاقدين حلقة .

بِبَطْنِ الوادِى ، وقَدْ وقفَ على بَعِيرٍ قَدْ جَدَعَ[١] أنفَهُ ، وحَوَّلَ رَحْلَهُ[٢] وشَقَّ عليه قميصَه ، وأخَذَ يُنادِى :

« يا مَعْشَرَ قريشٍ ! اللَّطِيمَةَ اللَّطِيمةَ[٣] ! أمْوالَكُمْ مَعَ أبِى سُفْيانَ قَدْ عَرَضَ لها محمدٌ فى أصْحابِه ! لا أرَى أنْ تُدْرِكُوها[٤] ! الغَوْثَ الغَوْثَ[٥] !! ».

فرَأيْتُ قُرَيْشاً تنْهَضُ على بَكْرَةِ أبِيها[٦] ، وتَشُدُّ رِحالَها لِتَنْقِذَ أمْوالَها حتى لَمْ يبْقَ بمكةَ سَرِىٌّ مِنْ قريشٍ إلاّ نَهَضَ وتَسلَّحَ ، ومَنْ شَغَلَهُ شُغُلٌ أنابَ عنْهُ غَيْرَه .

وقَدْ واللهِ آلَمَنِى ذٰلِكَ ، وحَزَّ[٧] فى نَفْسِى ، حينما رأيْتُ جُموعاً تموجُ بالْخَلْقِ ، تُفِيفُ[٨] على الْألْفِ مِئِينَ ! . فقُلْتُ لنَفْسِى : ليتَ محمداً وليتَ المسلمينَ لم يتعرَّضُوا لِتِلْكَ القافلةِ ، ولَمْ يُثِيرُوا فى تِلْكَ السِّباعِ الضَّارِيةِ قَرَمَهُمْ[٩] ، وشَهْوَتَهُمْ إلى سَفْكِ الدِّماءِ !

وسِرْتُ مَعَ نفَرٍ مِنْ بنِى هاشِمٍ فيهِمُ العَبَّاسُ ، مَعَ قريشٍ ، وإنَّ هَوَانا[١٠] لَمَعَ المسلمينَ ، ولٰكِنَّا أرَدْنا أنْ نُشاهِدَ أوَّلَ موقعةٍ بيْنَ الهُدَى والضَّلالِ !

وإنَّا لَفِى سَيْرِنا إذْ رأيْنا عِيرَ قريشٍ قادمةً ، عليْها أحْمالُها وأمْوالُها ، فنادَى أبو سُفْيانَ فى قومِه :

---

(١) شق .
(٢) ركب جمله معكوسا ليجذب النظر إليه .
(٣) العير التى تحمل العطر والثياب .
(٤) أظنها ستقع غنيمة لهم .
(٥) النجدة .
(٦) بجموعها .
(٧) آلم .
(٨) تزيد .
(٩) القرم : اشتهاء أكل اللحم .
(١٠) ميلنا .

« ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ[١] ، وعُودُوا إِلَى دِيارِكُمْ ، فَقَدْ نَجَوْتُ بِعِيرِكُمْ ، وَاتَّخَذْتُ لَهَا مَهْرَبا » .

وصادفَتْ كَلِمَتُهُ هَوًى فى نفسِى ، فأَخَذْتُ أَدْعُو لها ، وأُخَذِّلُ القَوْمَ عن المسيرِ ، فأصاخَتْ لى « بنو زُهْرَةَ » ، ورجَعُوا معَ « بنِى عَدِىٍّ » ، وهَمَّ النَّاسُ يَقْتَفُونَ أَثَرَهُمْ[٢] . غيرَ أنَّ «أبا جَهْلٍ» وَقَفَ فى وُجوهِهِمْ وقالَ : « واللهِ لا نَرْجِعُ حَتَّى نأْتِى « بَدْراً[٣] » ونَشْرَبَ خَمْرًا ، وَنَسْمَعَ القِيانَ ، ونَطْعَمَ الطَّعامَ ، وَتَسْمَعُ العربُ بذلكَ ، فلا تَزالُ تَهابُنا أبدًا ! » ودَفَعَ بَعِيرَه إلَى الأَمام ؛ وَانْدفَعَ القومُ وَرَاءَهُ ، وأَتَيْنا « بَدْراً » وتَراءَتْ لنا طَلائِعُ المُسْلِمينَ ، فلَمْ يَعُدْ يَفْصِلُ بيْنَنا وبينَهُمْ إلاَّ كَثِيبٌ مَهِيلٌ[٤] .

وَخَشِيتُ الحرْبَ على المسلمينَ ، وقد تَراءَتِ الفِئتَانِ ، ولا يزالُ فى جَيشِ قريشٍ ما يُقارِبُ الأَلْفَ عَدًّا ، وفيهِمْ فوقَ ذلكَ مَساعِيرُ حَرْبٍ[٥] ، لهم عُدَّةٌ وسِلاَح .

فقَصَدْتُ « حَكِيمَ بنَ حِزامِ بنِ خُوَيْلِدٍ » وقُلْتُ له :

: أكانَ يَسُرُّ خَدِيجَةَ أَنْ تَقِفَ لمحمدٍ خَصْماً ؟ هَلاَّ راعيْتَ اللهَ والرَّحِمَ ! وإنَّ أبناءَه لَبَنُو عَمَّتِكَ . فَما تطلُبُونَ مِنْهُ وَقَدْ سلِمَتْ لكُمْ أموالُكُمْ ؟

حكيم : وماذَا أفْعَلُ وأَنَا واحدٌ من قريشٍ تَدْفَعُنى الفِتْنَةُ المُضْطَرِمَةُ[٦] ؟

---

(١) ارجعوا . (٢) يتبعونهم . (٣) محل بين مكة والمدينة.
(٤) كومة من الرمل . (٥) أبطال . (٦) المشتعلة .

: عليكَ « بعُتْبَةَ بنِ رَبيعةَ » ، فإنَّ له سِنًّا ومَنْزِلَةً بينَ القومِ ، فعسَى أنْ يُخَلِّصَهُمْ عن الشرِّ ، ويُبْقِيَ على أرْحامِ قريشٍ (١) .

فذهبَ حكيمٌ إلى « عُتْبَةَ » فوَجَدَه على جملٍ أحْمَرَ ، فقالَ له :

يا أبا الوليد ! إنَّكَ كبيرُ قريشٍ ، وسَيِّدُها المُطاعُ فيها ، هَلْ لكَ إلى خَلَّةٍ (٢) لا تزالُ تُذْكَرُ منها بخَيْرٍ آخرَ الدَّهْرِ ؟

عتبة : وما ذاكَ يا حَكيمُ ؟

حكيم : تَرْجِعُ بالنَّاسِ وقَدْ سَلِمَتْ إليهم أموالهم .

عتبة : ائْتِ ابنَ الحنظليَّةِ « أبا جهل » فإنِّي لا أخْشَى أنْ يَسْحَرَ النَّاسَ غَيْرُه ! اذْهَبْ إليهِ فقُلْ له : هَلْ لكَ أنْ تَرْجِعَ اليومَ بِمَنْ معكَ عن ابنِ عمِّك ؟

حكيم : ومَنْ ابنُ الحَنْظَلِيَّةِ في قُرَيْشٍ ، وأنْتَ أبو الْوَليد ؟ قُمْ نادِ في النَّاسِ ! فوقَفَ « عتبةُ » عَلَى نَشَزٍ (٣) مِنَ الأرضِ وقد رَكِبَ جَمَلَه الْأَحْمَرَ ، فاجتَمَعَ إليه الناسُ ، وقال : « يامَعْشَرَ قريشٍ ، إنكمْ واللهِ ماتَصْنَعُونَ أنْ تَلْقَوْا محمدًا وأصْحابَه شَيْئًا ! ، واللهِ لَئِنْ أصَبْتُمُوهُ لا يَزالُ الرجلُ يَنْظُرُ وَجْهَ رَجُلٍ يكرَهُ النَّظَرَ إليه ، قَتَلَ ابنَ عمِّه أو ابنَ خالِه ، أو رَجُلاً مِنْ عَشِيرَتِه ! فارْجِعُوا وخَلُّوا بَيْنَ محمدٍ وبَيْنَ سائرِ العربِ ،

---

(١) قرابة قريش .
(٢) مكرمة ومحمدة .
(٣) مرتفع .

فإنْ أصابُوه فذاكَ الَّذِي أردْتُم ، وإن كانَ غيرُ ذلكَ ألفاكُم[١] ولم تعدَمُوا منْه ما تُريدون » .

وسمع « أبو جهل » ما قالَ « عُتْبَة » فقال :

« انتفخَ واللهِ سَحْره[٢] حِينَ رأى محمدًا وأصحابَه ! كلاَّ واللهِ لا نَرْجِعُ حتَّى يَحْكُمَ اللهُ بيْننا وبيْنَ محمدٍ . وما بِعُتْبَةَ ما قالَ[٣] ، ولكنَّهُ رأى أنَّ محمدًا وأصحابَهُ أكَلَةُ جَزُورٍ[٤] ، وفيهمْ ابنُه « أبُو حُذَيْفَةَ[٥] » ، وقد تخوَّفكمْ عليْه » .

وسمعَ عتبةُ مقالةَ ذلك الشَّيطان ، فحَمِيَ ، ووَرِمَ أنفُهُ[٦] ، وقال : سيَعْلَمُ ذلك السَّفِيهُ[٧] مَنِ الذى انتفَخَ سَحْرُهُ ، أأنَا أمْ هُوَ ؟ ثم طلبَ خُوذَةً يَضَعُها على رَأسِه الضخمِ ، فلمْ يجِدْ ما يدْخل فيه ، فاعْتَمَّ ببُرْدِه[٨] ، وأخذَ سِلاحَه ، وخرَجَ للقتال !

فأدركْتُ حينئذٍ أنْ لامناصَ مِنْ مَعْرَكةٍ حاميةٍ ! .

* * *

وتسلَّلْتُ مِنْ مُعَسْكَرِهم حتَّى جئتُ عساكرَ المسلمينَ ، فنكَرُونى[٩] وهَمُّوا أنْ يبْطِشوا بى ، لولا أن أنْقَذَنى الصِّدِّيقُ[١٠] منهم ، وأخذَنى إلى

---

(١) وجدكم .
(٢) امتلأ صدره خوفا . والسحر : الرئة .
(٣) ليس مخلصا فيما زعم .
(٤) عدد قليل يشبعهم أكل جمل واحد .
(٥) من صحابة الرسول .
(٦) غضب واستكبر
(٧) يقصد أبا جهل .
(٨) بثوبه .
(٩) لم يعرفونى .
(١٠) أبو بكر

رسولِ اللهِ ، فإذا هو قائمٌ فى عَرِيشٍ[١] ، يُشْرِف على ساحةِ « بَدْرٍ » وهو يُناجِى ربَّه فى قوّةٍ وحرارةٍ تَنْشُرُ لها الجلود ! سمِعْتُه يقول :

« اللَّهُمَّ هذه قريشٌ قدْ أقْبَلَتْ بخُيلائِها[٢] وفَخْرِها تُحادُّكَ[٣] ، وتُكَذِّبُ رَسُولَكَ ، اللهمَّ فنَصْرَكَ الذى وَعَدْتَنى به ! اللهمَّ إنْ تَهْلِكْ هذه العِصابةُ[٤] اليومَ لاتُعْبَدْ ! »

وأخذَ يكرِّر هذا الدُّعاء مرّة بعد مرّة ، حتى أشْفَقْنا عليه . فقال له الصِّدِّيق : « يا نَبِىَّ اللهِ ، بعْضَ مُناشَدَتِكَ[٥] لرَبِّكَ ، فإنَّ اللهَ مُنْجِزٌ[٦] لكَ ما وَعَدَكَ به » .

وخَفَقَ[٧] الرَّسولُ خَفْقَةً بيْنَنا ، ثُمّ انْتَبه فقالَ :

« أبْشِرْ يا أبا بكرٍ ، أتاكَ نَصْرُ اللهِ ، هٰذا جِبْرِيلُ آخِذًا بعِنانِ[٨] فرسِه يَقُودُه ، على ثَنايا[٩] النَّقْعِ[١٠] ! »

وانْتَظَرْتُ عليه حتَّى فَرَغ ، فحَيَّيْتُه وحيَّانى ، وبَسَطْتُ له أمرَ القومِ ، فشكرَنى ونهَضَ إلى المسلمينَ يَحُضُّهُمْ عَلَى القتالِ ، ويقول لهمْ :

« والَّذِى نَفْسُ محمَّدٍ بيدِه[١١] ، لا يُقَاتِلُهُم اليومَ رجلٌ ، فيُقْتَلَ صابرًا مُحْتَسِبًا[١٢] ، مُقْبِلاً غيْرَ مُدْبِرٍ[١٣] إلاّ أدْخَلَهُ اللهُ الجنة ! »

---

(١) بيت من عيدان الشجر . (٢) بكبريائها . (٣) تعاديك .
(٤) جماعة المسلمين . (٥) سؤالك . (٦) منفذ . موف .
(٧) انتفض . (٨) بلجام . (٩) أسنانه . (١٠) الغبار .
(١١) والله . (١٢) طالبا الجزاء . (١٣) منهزم .

فأجلتُ عيني في الجمعِ ، فوجدتُ قوماً لا وَزَرَ[1] لهم إلا سيوفهم ، قامُوا كالبُنيانِ المَرْصُوصِ يحمونَ لقريشٍ الموتَ الأحمرَ ، والداءَ العياءَ[2] .

ولمَّا مَثَّلَهم الرسولُ بالجنةِ ، رأيتُهم قد أشرقتْ وجوهُهم ، وبدا لهم أن يتعجَّلوا نحوَها خُطواتِهم .

فهذا واحدٌ منهم كانت بيدِهِ تمراتٌ يأكلُها ؛ فيَسْمَعُ ما يسمعُ من الرسولِ فيقذِفُها مِنْ يدِهِ ويقول :

« بَخٍ بَخٍ[3] ! ما بَيْنِي وبينَ الجنةِ إلا أنْ يَقْتُلَنِي هؤلاءِ ! » ، وأخذَ يَشْحَذُ[4] سَيْفَهُ ويُعِدُّهُ لعدوِّ اللهِ !

* * *

ودارَتِ الحربُ ، والْتَقَى الجَمْعانِ ؛ ونازلَ الحقُّ في العددِ القليلِ الْبَاطلَ في العددِ الكثيرِ ، وتَلاقَتِ الوُجوهُ بعْدَ عامَيْنِ مِنَ الفراقِ ، ووقفَ المسلمُ أمامَ أبيهِ وأخيهِ ، وعَمِّهِ وذَوِيهِ ، يحارِبُهُمْ في دينِ اللهِ ، ويقْتُلُهم في طاعةِ اللهِ !

فهذا « أبو عُبَيْدةَ بنُ الجرَّاحِ » . يرَى أباهُ مع قريشٍ ، فيَغْمِسُ رُمْحَهُ في دَمِهِ !

وهذا « عُمَرُ بنُ الخطَّابِ » يَتْبَعُ خالَهُ « سعيدَ بنَ العاصِ » حتى يُكِبَّهُ بالسَّيْفِ عَلَى وَجْهِهِ !

---

(١) ملجأ . عدة .
(٢) الذى لاشفاء منه .
(٣) كلمة استحسان .
(٤) يسن .

وهذا « حُذَيْفَةُ بنُ عُتْبَة » يَشْهد مَصْرَعَ أبيه وأخيه وعمّه ، ولا يُنْكِرُ من ذلك شيئاً ، أَوْ يَخْذُلُه ما يرى عَنْ جِهادِه !

أَجَلْ ، لقد سحرَ الإسلامُ قُلوبَ رجاله ، فأنساهُمُ الأهلَ والعشيرةَ ، وأصْبَحَ اللهُ ورسولُه أَحَبَّ إليهم مِمَّا عَدَاهُمْ :

وكنتُ قد أَخَذْتُ مَوْقِفي في صُفوفِ المُسْلِمين ، بعْدَ أنْ نَكَّرْتُ مَعالمي [١] وَغَيَّرْتُ مِنْ صُورَتي ، حتَّى لا تَعْرِفَني قريشٌ ، وخُضْتُ الحَرْبَ الَّتي خاضُوا .

فقتَلْنا المَلأَ [٢] منْ قريشٍ ، وأَلْقَيْنَاهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ التي أَبَتْ أَنْ تَسْجُدَ للرَّحْمٰنِ !

فهلك « عُتْبَةُ بنُ ربيعةَ » وأَخُوه « شَيْبَة » وابْنُه « الوليدُ » في أوَّلِ جَوْلةٍ من المَعْرَكةِ ، وَهَلَكَ بَعْدَهم مِنْ قريش خَلْقٌ كثيرٌ !

وانتحيْتُ ناحيةً أَتَفَقَّدُ رُءُوسَ الكُفْرِ وَالضَّلالِ بَيْنَ المتحاربين ، فرأَيْتُ « أُمَيَّةَ بنَ خَلَف » وولدَهُ « عَلِيًّا » يُريدانِ أَنْ يَتَسَلَّلا [٣] مِنَ المَيْدَانِ ، وَيَنْجُوَا بأَنْفُسِهما ، حِينما ضَرَّسَتْهُما الحربُ [٤] ، وَشاهدَا مَقْتَلَ الفِئَةِ الباغِيَة [٥] !

فنادَيْتُ « بلالَ بنَ رَباحٍ » وقلْتُ له : أَيْ [٦] بِلال ! هٰذا صَاحِبُك يُرِيدُ أَنْ يَتَسَلَّلَ وَيهْرُب !

وَأَلْقَى بِلالٌ نظرةً حيثُ أُشِيرُ ، فقالَ : أَهُوَ عَدُوُّ اللهِ « أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ » لا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا !

---

(١) غيرت هيئتي .
(٢) سادة قريش .
(٣) يهربا في خفاء
(٤) آذتهما .
(٥) قريش .
(٦) يابلال .

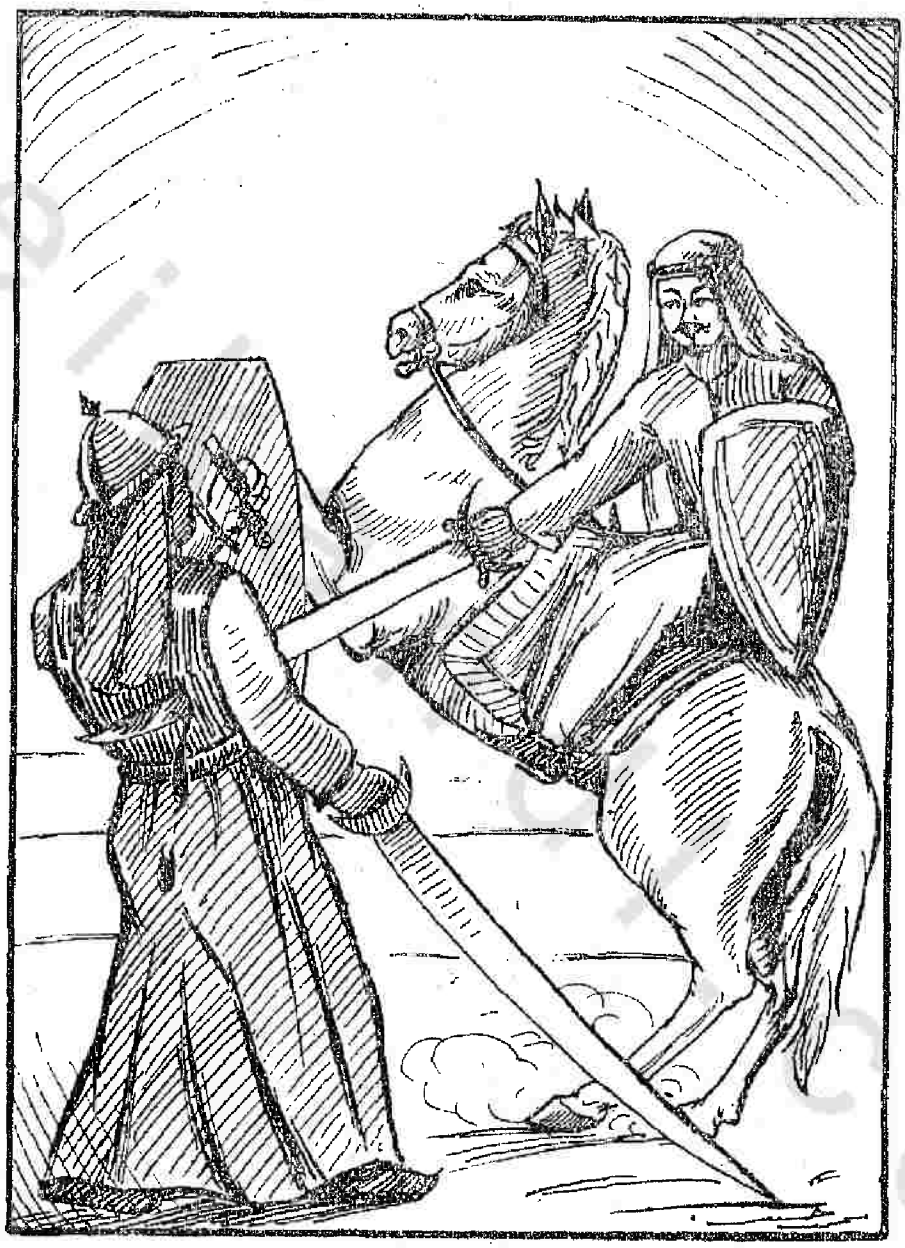

هلك من قريش خلق كثير

وجرى وراءه حتى لحق به ، وجرّيتُ وراءه أنظرُ ما يكونُ بينهم ، فشاهدْتُ الكافرَيْنِ يلوذانَ[1] « بعبدِ الرّحمٰنِ بنِ عوفٍ » ليتّخذَهما أسيرَيْنِ ، ويَنْجُوا بذلكَ من القتلِ ، ولكنّ بلالاً قصدَ أُميّةَ وقالَ :

رأسُ الكفرِ أُميّةُ بن خلف ! لا نَجَوْتُ إنْ نجا !

فقال عبد الرحمن : أىْ بلال ، إنّما هوَ أسيرى !

فقال بلالٌ وزحفَ عليه بسيفِهِ : لا نجَوْتُ إنْ نجا !

قال عبد الرحمن : أتَسْمَعُ يابنَ السّوْداءِ[2] ؟

بلال : لانَجَوْتُ إنْ نَجَا !

ثمّ صرَخَ بلالٌ بأعلَى صَوْتِه : يا أنصارَ الرّسولِ ! رأسُ الكفرِ أُميّةُ ابنُ خَلفٍ ، لانَجَوْتُ إنْ نَجَا !

فجرَى إليهِ الأنْصارُ ، وقالوا : لَبّيْكَ لَبّيْكَ[3] يابلالُ ، لَنْ يَنْجُوَ منكَ اليومَ عدُوُّ اللهِ ، وقد أمكنَ اللهُ منه !

ونزَلُوا بالسّيوفِ عَلَى أُميّةَ وَوَلدِهِ ، حتى فرغُوا منهما !

فقال بلالٌ ، وقد رأى غَرِيمَه[4] تحتَ قدمَيْهِ صاغِرًا :

أهٰذا أنتَ ياعدُوَّ اللهِ؟! أينَ جَبَرُوتُكَ[5] وقَسْوَتُك ، وأينَ صَخْرَتُكَ التى كنتَ تَطْرَحُها عَلَىّ فى رَمْضاءِ مكةَ؟! لو كُنْتَ تعرفُ مايئُولُ[6] إليه أمْرُكَ

---

(١) يلجآن . (٢) يابن الحبشية ، لأنه حبشى . (٣) طاعة لك .
(٤) عدوه . (٥) جبرك . (٦) يصير .

لقد قدَّمْتَ الرحمةَ بدلَ القسوةِ ، وعاملْتَ مولاكَ[١] بالرِّفْقِ والحنانِ ، ولكنَّهُ الكفرُ أعمَى قلبكَ ، فوقعْتَ فى شرِّ أعمالِك !.

* * *

ومررْتُ «بأبى جهْلٍ» فوجدْتُه فى الميدانِ صريعاً ، ولكنْ بهِ رَمَقٌ[٢] ، فأحببْتُ أنْ أُذيقَ هذا الشيطانَ الذلَّ يتجرَّعُه[٣] معَ سكراتِ الموتِ !

فأغريْتُ بهِ[٤] «ابنَ مسعودٍ» ، وكانَ ذلكَ الشيطانُ مُغرًى بهِ فى مكةَ ، يُؤذِيه ويَنْهَرُه ، فقلتُ له :

هذا صاحِبُكَ وقعَ مِنْ طُولِهِ ، هَلُمَّ وفِّهِ دَيْنَه !

قال ابنُ مسعودٍ : فلمَّا جِئْتُه رأيْتُه يتخبطُ فى دمِهِ ، فوضعْتُ قدمِى فوقَ عُنقِهِ ؛ فرفعَ إلىَّ عيْناً كليلةً[٥] فرآنى ، ومابهِ إلاَّ رَمَقٌ[٦] يهتزُّ فى صدْرِه !

فقالَ : لقدْ ارْتقيْتَ مُرْتقًى صعْبًا يارُوَيْعِى[٧] الغنمِ !

ابنُ مسعود : ألاَ تزالُ فيكَ أَثَرَةٌ[٨] مِنْ كِبْرٍ ياعدُوَّ اللهِ ، وهذا أنفُكَ فى الرَّغامِ[٩] ؟! أأدْرَكْتَ أنَّ اللهَ أخزاكَ ؟!

— وبماذا أخزانى ؟

ابن مسعود : بأنْ تلفِظَ أنفاسَكَ تحْتَ نعْلِ رُوَيْعِى الغنمِ !

---

(١) عبدك الذى كان . (٢) بقية من الحياة . (٣) يذوقه .
(٤) دفعت لإيذائه . (٥) ضعيفة . (٦) بقية ضعيفة من الحياة
(٧) تصغير لراعى الغنم . (٨) بقية . (٩) التراب .

وضَغَطْتُ عليه ضغطةً ، اضطرَبَ طا قليلاً ، ثم برَدَتْ أنفاسُه ، فحزَزْتُ رأسَه ، وجِئْتُ به إلى المسلمين .

* * *

وما هِيَ إلاَّ ساعاتٌ حتى غلَبَتِ الفِئَةُ القليلةُ الفِئةَ الكثيرةَ ، فأكَلَ[1] المسلمونَ ثلاثةَ أمثالِهم مِنْ قريشٍ ، فقتَلوهم وشرَّدوهم ، وأسَروهُمْ !

وانجلَتِ المعركةُ عَنْ مَصارِعِ سَبْعِينَ مِنْ زُعمائِهِمْ وساداتِهم ، مُجدَّلينَ[2] على الرُّبَى والبَطائِحِ !

ولمْ يَترُكْهُمُ النبيُّ الرحيمُ طعامًا لِضَارِى الوَحْشِ ، وكاسِرِ[3] الطَّيرِ ، فنادَى فى المسلمينَ أنْ يجمعوهُمْ إلى قَليبٍ[4] ، ويُهيلُوا عليهمُ التُّرابَ ! .

فذَهبْنا نَجُرُّ القومَ إلَى مَثْوَاهم[5] ، فرأَيْنا رِمَمًا مُكبَّبةً على وجوهِها ، وقد نالَ التُرابُ مِنْ محاسِنِها !

ما كانَ ضَرَّها لَوْ سَجدَتْ للهِ فى حَياتِها ، فنَجَتْ مِنْ عذابِ هٰذَ اليومِ ، ولَعذابُ الآخرةِ أشَدُّ وأبْقَى ! ؟

رأيْتُ المَلأَ مِنْ قريشٍ فى ساعةٍ ما أغْنَتْ عَنْهُ[6] كِبْرياؤُه ، ولا مالُه ولا جاهُهُ شَيْئا ، فبدَا أمامَنا ضعيفًا هزيلاً ، نُحرِّكه فيتحرَّكُ طائِعًا ، ونَسْحبُه مِنْ أرْجُلِهِ ، فيَخُطُّ أنفُه فى الرَّغامِ !

---

(١) هزم وغلب . (٢) مطروحين فى كل مكان . (٣) جارح .
(٤) بئر لاماء بها . (٥) مقرهم . (٦) مانفعه .

ولقَدْ رأَيْتُ فيها «عُتْبَة بنَ ربيعةَ» الَّذى خاضَ الحربَ أوَّلَ مَنْ خاضَها ، مَدْفوعًا بالكَلِمةِ الحمقاءِ[1] ، فكانَ وَقُودَها !

ولو أَغْنَى عنه عَقْلُه ، فوقَفَ عِنْدَ رأْيِهِ[2] ثابِتًا عليْهِ ، مُنافِحًا دونَه[3] ، ما حَلَّ بِهِ هٰذا العذابُ الأليمُ !

أَلَيْسَ هو الَّذى حدَّث القومَ فى النَّدوةِ ، أَنْ يتركُوا محمداً لِلْعَرَب ، ولا يُحارِبُوه ؟ أليسَ هو الَّذى حَدَّثهم فى «بَدْرٍ» أَنْ يَرْجِعُوا عنه إلى بِلادِهم ؟ فلَيْتَه فعَل ما كانَ يَرَى ! .

ولمَّا أُلْقِىَ « عُتْبَةُ » فى القَليبِ ، نظرَ رسولُ اللهِ فى وَجْهِ «أَبى حُذَيْفَةَ» وَلدِه ، فرآه مُتغيِّراً بعْضَ التغيُّرِ !

فقالَ : « يا أَبَا حُذَيْفَةَ ، لعَلَّك قد دَخَلك مِنْ شَأْنِ أَبيكَ شَىْءٌ ؟ »

أَبُو حُذَيْفَة : « لاَ واللهِ يا رسولَ الله ، ما شَكَكْتُ فى أَبى ولا فى مَصْرَعِه ! ولكنَّنِى كنْتُ أعرِفُ فى أَبى رَأْيًا وحِلْمًا وفَضْلاً ، فكنتُ أَرْجُو أَنْ يَهْدِيَه ذٰلِك لِلْإِسْلامِ ، فلَمَّا رأَيْتُ ما أَصابَهُ ، وذَكَرْتُ ما ماتَ عليْهِ مِنَ الكُفْرِ ، بَعْدَ الذى كنْتُ أَرْجُو له ، أَحْزَنَنِى ذلك ! »

فدعَا له رسولُ الله بخيرٍ ، وقالَ له خيْرًا .

ولَمَّا غطَّيْناهم بالتُّرابِ ، وقَفَ رسولُ اللهِ عَلَى شَفَةِ[4] القَليبِ ، ونَظَرَ إلى

---

(١) كلمة أبى جهل « انتفخ والله سحره ... » . (٢) أن يتركوا محمدا وشأنه .
(٣) مجاهدا . (٤) حرفه .

قريش راكبة تحت أقدام المستضعفين من المسلمين ، فلم يأخذه الزهو عليهم ، ولا الشماتة بهم ، وإنما خاطبهم وكأنه يؤاتيهم :

فقال لهم :

« يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ! كذبتموني وصدقني الناس[1] ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ! هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا ! » .

فقلنا له : يا رسول الله ، أتنادي قوما جيفوا[2] ؟

فقال : « لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق » .

ثم ما لبث أن تحول عنهم ، وولينا وجوهنا شطر[3] المدينة .

* * *

وكان المسلمون يجرون أسراهم مكبلين[4] في الحبال ، فنادى الرسول فيهم : « أوصيكم بالأسرى خيرا ! »

فرأيت المسلمين يحفون عنهم قيودهم ، ويؤثرونهم[5] في سفرهم بالركوب ، ومن طعامهم بالطيبات ، وينزلونهم منازل الضيوف في رحالهم[6] !

فلله ما أطهر هذه القلوب ، وما أصفى تلك النفوس ! لقد وقع المشركون

---

(١) يقصد الأنصار .
(٢) صاروا جيفا .
(٣) نحو .
(٤) مقيدين .
(٥) يخصونهم .
(٦) منازلهم وخيامهم .

مُصَفَّدِينَ[١] فى قَبْضَةِ المُسلمينَ ، فَهلْ جَازَوهم شرًّا بشرٍّ ، وعُدْوانًا بعُدْوانٍ ؟ وَهَلْ رَدُّوا إليهمُ الأذَى الذى أصابُوهُ مِنْ أيْدِيهِم الْعَابِثةِ البَاطِشَةِ ؟ وهلْ حَلَقُوا[٢] لَهُمُ الحَلَقَ ، ودَعَوْا إليهمُ النَّاسَ ، وأخَذُوا يُعذِّبونهم ، ويُمَثِّلونَ بهمْ ، وَيَفْتِنُونهم فى دِينهمْ ، كما فعلَتْ قريشٌ بما ملكَتْ أيْدِيهم ، مِثْلَ بلالٍ وخَبَّابٍ وآلِ ياسِر ؟!

هاهُمْ هؤلاءِ الضُّعَفاءُ يتحكَّمونَ اليومَ فى مَواليهِمْ[٣] بالأمسِ ، وَإنَّهُمْ ليتقرَّبونَ بهوَانِهم للهِ ، ولكنَّهُمْ يَعْفُونَ عنْهُمْ قادِرين ، وَيَدْرَءونَ[٤] بالحسنةِ السَّيِّئةَ !

فما أقسى قلوبَ الكافرينَ ، وما أليْنَ قلوبَ المسلمينَ ! وما أصْدَقَ رسُولَ اللهِ حَيْثُ يقول :

« إنَّ اللهَ ليُلينُ قلوبَ أقْوامٍ حتَّى تكونَ ألْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ ؛ وإنَّ اللهَ ليُشَدِّدُ قلوبَ أقوامٍ ، حتَّى تكونَ أشَدَّ مِنَ الحجارَةِ » .

* * *

ولَمَحْتُ فى الأسرَى رجلاً أشْبَهَ « بالعبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ » فأتْبَعْتُهُ نظَرِى ، فإذَا هُوَ هُوَ ، فبلغَتْ مِنِّى الدَّهْشَةُ مَبْلَغَها .

لقَدْ وَقَعَ العبَّاسُ أسِيرًا ، وَإنِّى لأعْلَمُ سَرِيرَةَ نَفْسِه ، وَنَأمَةَ[٥] قَلْبِه ، وَأعْرِفُ أنَّه خرَجَ معَ قريشٍ بجسْمِه ، وَأنَّ قَلْبَهُ وَهواهُ معَ محمدٍ وَصَحْبِه .

---

(١) مقيدين . (٢) عقدوا لهم الدوائر . (٣) سادتهم .
(٤) يدفعون . (٥) حركة . صوت .

أليسَ العبَّاسُ الذي خرجَ ليلةَ العقبةِ مع النبيِّ ، وعقدَ المواثيقَ بينه وبينَ الأنصارِ ؟ وإنَّهم ليعرفونه ، وإنَّهم ليُجِلُّونه .

فما عليَّ لو كلمتُ آسِرِيه في فكِّهِ وإطلاقِ سَرَاحِه ؟

وعَمَمْتُ بذلك ، ولكنِّي عُدْتُ أقولُ لنفسي : إذا كنتُ للعبَّاسِ صديقاً ، فهو للنبيِّ قريبٌ ، والرَّسولُ أعلمُ بدينهِ ، وانتظرتُ ما يَقْضِي فيه بأمْرِه .

ووَصَلْتُ إلى « المدينةِ » فرأيتُ البَهاءَ والنورَ الذي حدَّثني عنهُ الصِّدِّيقُ وقَدْ خفَّ مَنْ كانَ فيها لاستقبالِ الرَّسولِ والمؤمنينَ ، وسَمِعْتُ نَشيدَ الإسلامِ تُرَجِّعُه قِيانُ[1] الأنصارِ .

ورَحَّبَ بي المهاجرون والأنصارُ في بلدِهم ، وأجلُّوني مكاناً عزيزاً بينهُمْ ، ولَبِثْتُ أيَّاماً ، فوجدتُ قريشاً قد أرسلتْ تَفْدِي أسْرَاها وتُخْرِجُ لهم أموالَها .

وانتظرتُ ما يكونُ من أمْرِ العبَّاسِ مِنَ الرَّسولِ ، فرأيتُ العبَّاسَ يتقدَّمُ إليه يقول : ماخرجْتُ مع قريشٍ مُحارِباً ، ولكنَّ القومَ استكرَهوني[2] .

فقالَ الرَّسولُ : « اللهُ أعلمُ بما تقولُ ، إنْ يَكُنْ ما تقولُ حقًّا فاللهُ يَجْزِيكَ ، ولكنَّ ظاهِرَ أمْرِكَ أنكَ كنتَ علينا » .

وجعلَ على العبَّاسِ مائةَ أُوقيَّةٍ لفدائهِ ويَدْفَعُ لأخيهِ « عَقِيلٍ » ثمانين .

فقال العبَّاسُ : تَتْرُكني أتكفَّفُ[3] قريشاً ما بَقِيتُ !

فقال له النبيُّ : « فأينَ الذَّهبُ الذي دَفَعْتَهُ إلى أمِّ الفَضْلِ[4] وقتَ خروجِك مِنْ مكة ؟ »

---

(١) جوارى . (٢) أكرهوني . (٣) أسأل . (٤) زوج العباس .

العباس : وما يُدْرِيك ؟ النبي : أَخْبَرَنِي رَبِّي !

العباس : أَشْهَدُ أَنَّكَ صادِقٌ ، فَإِنَّ هذا لَمْ يَطَّلِعْ عليه إلاَّ اللهُ .

* * *

أَجَلْ ، لَقَدْ افْتَدَى الْعَبَّاسُ نَفْسَهُ كما افْتَدَتْ قُرَيْشٌ أَنْفُسَها ، وَلَمْ تَدْفَعْ النبيَّ العَصَبِيَّةُ له[1] ، وما يَعْلَمُ من سَرِيرَتِه وأَحْوالِه ، أَنْ يُطْلِقَ سَراحَهُ مِنْ غَيْرِ فِداءٍ ، بَلْ قَدْ حَمَّلَهُ فِدْيَةَ أَخِيهِ « عَقِيلٍ » ولَمْ يَتْرُكْهُ مِنْ غيرِ فِدْيةٍ كما فعلَ بفُقَرَاءِ قريشٍ .

عَرَفَ النَّاسُ جميعاً أَنَّه يُخَاصِمُ فى اللهِ ، وَيُسالِمُ فى اللهِ ؛ فمن كانَ عَلَى دِينِ اللهِ فهو حَبِيبُهُ وقَرِيبُهُ ، ومَنْ كانَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ فهوَ خَصْمُهُ وغَرِيمُه .

تلكَ هِيَ العَدالةُ ، وذلكَ هو القِسْطاسُ[2] المُسْتَقِيمُ !

وَطابَ لى أَنْ أَبقَى بالمدينةِ ، وَلاَ أُفارِقُ رسولَ اللهِ . وَلكنِّى أدركْتُ أَنَّ قريشاً لا تَسْكُتُ عَنْ ثأْرِها ، وأَنَّها ستَكِيدُ للْمسلمينَ كيداً ، فرَغِبْتُ فى أَنْ أَكونَ بينَهُمْ ، وَأُطلِعَ عَلَى قُلوبِهِمْ ، فأَكْشِفَ لِلْمُسْلِمينَ أَسْرارَهُمْ .

وَكُلَّما يَعْمَلُ لِلدِّينِ ، وكلَّمَا يَرْفَعُ مِنْ عِزَّةِ الإسلامِ وَالمُسْلِمين ، فاسْتَأْذَنْتُ الرَّسولَ ، وَعُدْتُ إلى مَكة .

وَحَسِبَتْنِي قريشٌ أَسِيرًا أُطْلِقَ مِنْ إِسارِه ، فَهَنَّأَنِّى بالسَّلامةِ .

---

(١) التعصب للقرابة . (٢) الميزان والعدل .

عُدْتُ إلى مكةَ ، ومَرَرْتُ بالمعاهدِ التي كانتْ مجمعَ قريشٍ ، والمغانِي[1] التي كانتْ تعمُرُ بلهْوِهم وزَهْوِهم ، فوجدْتُ المجامعَ قدْ أقفرتْ مِنْ شياطينِهم[2] ، والمغانيَ تبكِي[3] مَنْ بناها .

فما مررْتُ بطريقٍ إلاَّ سمعْتُ بهِ مناحةً على قتيلٍ عزيزٍ مِنْ قتلَى «بدرٍ» ، ولا ترسَّمتُ[4] مُترسَّمٌ ، أوشعرَ شاعرٌ ، أوهزجَ[4] هازجٌ ، إلاَّ رأيتُ صناديدَ[5] قُريشٍ ، باكيًا مُستبكيًا لمصارعِهم ، ولا خاضَ قومٌ فى حديثٍ إلاَّ فيما دارَ فى بدرٍ ، وما نالَ محمدٌ مِنْ رجالِهم !

ورأيْتُ قبائلَ البدْوِ تفِدُ إلى مكةَ تعزِّى أهلَها ، وإنَّ فى باطنِهم لشماتةً بقُريشٍ ، التى اصطنعَتْ السِّيادةَ على العربِ ، وأخذَتْهم بها على ضعفٍ وترفٍ ، فما إنْ وقفَ محمدٌ لهمْ وقفةً ، حتى تحطَّمتْ على قناتِه[6] ، ككأسٍ مِنْ زُجاجٍ ! فرأيْتُهمْ يُظهِرُونَ لهمْ تعزيةً ، ويُخفونَ شماتةً ، ثمَّ يصْدُرونَ إلى أهليهمْ يَنشُرُونَ الأحاديثَ فى ضعْفِ قريشٍ ، وأنَّها سبقَتْ النَّعامَ عدْوًا عِندَ اللِّقاءِ !.

وترَدَّدْتُ إلى المسجدِ الحرامِ أيَّامًا ، فرأيتُ فيمن بَقِىَ مِنْ سادةِ قريشٍ

---

(١) المنازل . (٢) أشرارهم . (٣) تبكى لخلوها منهم .
(٤) تغنى . (٥) أبطال . (٦) رمحه .

رَجُلَيْنِ لا يكادان يُرَيانِ إلاَّ مُلْتَصِقَيْنِ مُتَسَارِّيْنِ[١] ، فإذا ما دَنَا الدَّانِي منهما أمْسَكا عن الحديثِ ، ولوْ كانَ من أُولِي الأَرْحامِ[٢] .

هذانِ الرَّجُلانِ « صَفْوانُ بنُ أُمَيَّةَ بنِ خَلَف » وابنُ عمِّهِ « عُمَيْر » .

وعُمَيْرٌ شَيْطانٌ من شَياطِينِ قريش ، رَابَنِي مِنْهُ وَمِنْ صَفْوانَ ذٰلِكَ السِّرَارُ ، فحاوَلْتُ جُهْدِي أنْ أَسْتَرِقَ السَّمْعَ ، وَأَرْهَفْتُ أُذُنِي لعَلِّي أَتَسَقَّطُ[٣] بَعْضَ الحديثِ ، فما نِلْتُ منهما أملاً .

ثمَّ رأيْتُ « صَفْوانَ » وحْدَهُ بعْدَ أيامٍ قد هرَبَ عنهُ شيطانُه ، فخيَّرَنِي أنِّي لا أعْرِفُ أينَ ذَهبَ عُمَير ، وكأنَّما ابْتَلَعَتْهُ الأرْضُ ، أو طَمَسَتْهُ الصَّحراءُ ، فلا خبرٌ عنهُ ، ولا أثَرٌ له .

ومكثْتُ زُهاءَ شَهْرٍ لا أراهُ ولا أسْمَعُ عنهُ ، ثمَّ رأيتُهُ قد جاءَ يَخْطِرُ إلى المسجدِ وعليْهِ غُبارُ السَّفرِ الطَّوِيلِ ، فقفَوْتُ أثَرَه وأتْبَعْتُهُ نَظَرِي ، فلمَّا رآه صَفْوانُ طارَ إليهِ ، وطفِقَ[٤] يُعانِقُه ، ثُمَّ أخذَ بسَيْفِهِ قائلاً :

— « عَسَى أنْ يكونَ قَدْ صَدَقَكَ هٰذا »!

عُمَيْر : أجَلْ ، إنَّه صَدَقَنِي ، وآمَنَ بمحمدٍ مَعِي ، وَشَهِدَ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ ، وأنَّ محمداً رسولُ الله !

صفوان : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[٥] ! أهٰذا ما عاهَدْتَنِي عليْهِ ؟

---

(١) متحدثين سرا .
(٢) من الأقارب .
(٣) أستمع .
(٤) أخذ .
(٥) فقدتك . دعاء عليه .

عمير : ذَهَبَ عَهْدُكَ ، وَبَقِيَ عَهْدُ اللهِ .

صفوان : ما دَهاكَ[١] أيُّها الشَّيطانُ ؟ ! أَغَلَبَ سِحْرُ السَّاحرِ عليكَ[٢] ؟

عمير : لَيْسَ بِساحرٍ ، ولكنَّه رسولُ اللهِ حقًّا ، ولقَدْ رأيتُ منه ما إنْ رأيْتَهُ لَكُنْتَ أوَّلَ مُؤمنٍ بِهِ .

صفوان : غيِّبْ وَجْهَكَ عنِّي ، فلَسْتُ مِنْكَ

عمير : واللهُ غنيٌّ عنِ الكافرينَ !

* * *

فلما سَمِعْتُ مِن « عُمَيْرٍ » ما سمعتُ ، تَشَوَّقَتْ نَفْسِي إلى سماعِ المهدِ الَّذِي كانَ بيْنَه وبينَ « صَفْوانَ » ، وما كانَ من حديثِ إيمانِه ، فسَأَلْتُه ذلِكَ ، فقالَ :

قَدْ عَلِمْتَ ما فعلَ محمدٌ بنا يومَ « بَدْرٍ » ، فقَدْ وَتَرَنا ، ورَزَأَنا[٣] في أمْوالِنا ؛ أمَّا « صَفْوانُ » فقَدْ رزأَه في أبيهِ وأخيهِ ، وأمَّا أنا فقَدْ أسَرَ ولدي « وَهْبًا » فهذا كَرْنا مَصائِبَنا ، وحَدِيثَ النَّاسِ عنَّا ، ووَدِدْنا لو ثَأَرْنا[٤] مِنْ محمدٍ وَقَتَلْناهُ غِيلةً[٥] !

فقُلْتُ لصَفْوانَ ؛ وقد غَلَبَنِي المُصابُ : « وَاللهِ لَوْلاَ دَيْنٌ عَلَيَّ ، ليْسَ عِنْدِي قَضاؤُه ، وَعِيالٌ أَخْشَى عليهمُ الفَقْرَ بَعْدِي ، كُنْتُ آتِي محمداً فأَقْتُلَه » .

فقال صَفْوانُ : « دَيْنُكَ عَلَيَّ — يابْنَ عَمِّ — وَعِيالُكَ معَ عِيالِي ، فاقْصِدْ

---

(١) ماأصابك . (٢) يقصد الكافر رسول الله . (٣) أصابنا .
(٤) انتقمنا . (٥) غدراً واغتيالا .

حيثُ رأيتَ ، فليسَ لهُ غيرُك ، إنَّكَ إنْ فعلتَ لبستَ فخرًا فى قريش لا تخامه أبدًا ! » .

فاستخفنى الشيطانُ ، واتخذتُ سيفًا يمانيًا[١] ، ثم شحذته ، وسقيته السم حتى مجّه[٢] ، وقصدتُ « يثرب » .

وبينما كنتُ أسيرُ فى دُروبها ، أتلفتُ على « محمدٍ » علهُ يوافقنى على غرّته[٣] ، فأجلّله[٤] بالسيفِ ، وأرجعَ أدراجى[٥] ! لا يعلمُ قومُه بما كانَ ولا ما صار ، إذْ رأتنى عينُ « عمرَ بنِ الخطّاب » الثاقبةُ[٦] ، فطارَ إلىّ لا مسلّمًا ولا مُكرّمًا ، ولكنّهُ أخذَ بيدى ، وقبضَ على سيفى ، وقالَ :

أينَ تقصدُ يا عدوَّ الله ! ؟

فقلت : حسبُك[٧] ، جئتُ لأسيرى الذى بينَ أيديكمْ أفتديه[٨] .

عمر : كذبٌ ومُهتانٌ ! لا بدَّ أنْ تقدمَ على الرسولِ ليرى رأيَه فيكَ .

فقلتُ : ذلكَ لكَ .

وطابتْ نفسى أنْ أقدمَ على محمدٍ ، فما جئتُ إلاّ لهُ ، وأخذتْ نوازى[٩] الشرِّ برأسى ، ووددتُ أنْ أفرغَ فيهِ حقدى ، وأجعلَه حديثًا للناسِ ! ودخلتُ عليهِ بينَ رهطٍ منْ أصحابِه ، فقدْ واللهِ هبتُهُ هيبةً ماهبتُ مثلَها أحدًا من مُلوكِ الأرض !

---

(١) من سيوف اليمن لأنها أمتن . (٢) لفظه بعد أن روى . (٣) غفلة .
(٤) أضرب رأسه . (٥) من حيث جئت . (٦) البصيرة .
(٧) كفاك . (٨) يقصد ولده « وهبا » . (٩) دوافه .

فقال عمر : « يا رسول الله ، هذا عُمَيْرٌ قد دخل المدينة مُتَوَشِّحًا[١] سَيْفَه ! »

فقال محمد : « أَطْلِقْهُ يا عُمَرُ » .

فأَطْلَقَنِي ، فدَفَفْتُ يدى لِتَقْبِضَ عَلَى السَّيفِ فَأَتَتْنِي ، وهَرَبَ مِنِّي السَّيفُ ! فجهِدْتُ[٢] أَنْ أُمْسِكَ به فما استطَعْتُ ! .

فقال محمد : أُدْنُ يا عُمَيْر .

فدَنَوْتُ منه ، وقلتُ : أَنْعِمُوا صَبَاحًا[٣] !

فقال : « قَدْ أَبْدَلَنا اللهُ تَحِيَّةً خَيْرًا مِنْ تحيَّتِك ، وهِيَ السَّلام . . . ما جاء بِكَ يا عُمَيْر ؟ »

قلت : جِئْتُ لِهذَا الأَسِيرِ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ، فأَحْسِنُوا إِلَيْه .

محمد : « فما بَالُ السَّيْف ؟ ! »

عمير : قَبَّحَها اللهُ مِنْ سُيوفٍ ! وهَلْ أَغْنَتْ[٤] عَنَّا شَيْئًا يومَ بَدْرٍ ؟ ؟ .

وهَمَمْتُ ثانِيةً أَنْ ألتمسَهُ ، فما عثَرْتُ عليه .

محمد : اصْدُقْنِي ماالَّذِي جِئْتَ له ؟

عمير : ماجِئْتُ إلاَّ لِذلك .

محمد : كَلاَّ ، « بل قَعَدْتَ أنتَ و « صَفْوانُ » فى الحِجْرِ[٥] ، وقُلْتُمْ كَيْتَ وكَيْتَ[٦] » .

---

(١) متقلدا كالوشاح . (٢) فتعبت . (٣) تحية الجاهلية فى الصباح .
(٤) نفعتنا . (٥) مكان من المسجد الحرام .
(٦) كناية عن القصة التى حدثت .

فَبُهِتُّ[١] واللهِ ، وكادَ يَذْهَبُ مِنِّي عَقْلِي ، ومَكَثْتُ ساعةً أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وأُرَدِّدُ نَظَرِي ، وأَخَذَ مُحَمَّدٌ يَرُدُّ عَلَيَّ قَوْلِي ، فَما تَمالَكْتُ أَنْ قُلْتُ لَهُ :

« كُنَّا نُكَذِّبُكَ بِما تَأْتِي بِهِ مِنْ خَبَرِ السَّماءِ ، وما يَنْزِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْوَحْيِ ، وهٰذا أَمْرٌ لَمْ يَحْضُرْهُ إِلاَّ أَنا وصَفْوانُ ، فَباللهِ مَنْ نَبَّأَكَ بِهٰذا ؟ »

النبيّ : « نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ » .

فقلت : الآنَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ ، وأَشْهَدُ أَنَّكَ رسولُ اللهِ .

فقال النبي لِأَصْحابِهِ : « فَقِّهُوا أَخاكُمْ[٢] ، وأَطْلِقُوا أَسِيرَهُ[٣] » .

فانقلبْتُ مُسْلِماً مِنَ المسلمينَ ، أَمْلَأُ بِكَلِمَةِ الحقِّ فَمِي ، وَوَيْلٌ لِلظَّالِمِين !.

قال سَارِح :

فَطابَتْ نَفْسِي لِحَدِيثِهِ ، وعَلِمْتُ أَنَّ اللهَ بالِغٌ بِهٰذا الدِّينِ أَمْرَهُ ، فَالدِّينُ الَّذِي افْتَتَحَ قَلْبَ عُمَيْرٍ ، إِنَّهُ عَلَى غَيْرِهِ أَقْدَر .

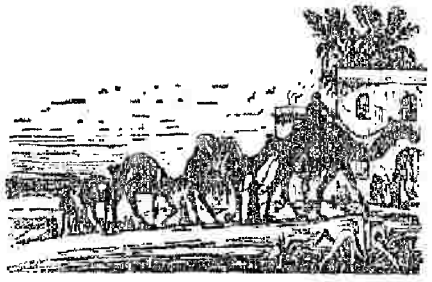

(١) فدهشت وتحيرت . (٢) علموه حدود دينه . (٣) ولده .

ومَضَى عامٌ على « بَدْرٍ » ، فإذَا قريشٌ تتحفَّزُ[١] لِتنالَ ثأرَها ، لقدْ غَضِبَتْ قُرَيْشٌ وتلظَّتْ[٢] نارُ غَضَبِها ، وَمَا غَضِبَتْ لِحقٍّ ، فإنْ كان النبيُّ قدْ نالَ مِنْها ، وقَتَلَ سادَتَها ، فما فَعَلَ ذٰلِكَ حُبًّا للقتْلِ ، ولا طَرَبًا لمَناظِرِ الدَّمِ .

ما قَتَلَها لِتدْخُلَ فى دينِهِ كَرْهًا ، فلا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ ، وقدْ تبيَّنَ الرُّشْدُ[٣] مِنَ الْغَيِّ[٤] ، وإنَّما فَعَلَ بِها الأَفاعيلَ[٥] ، لِأَنَّها وقفَتْ دُونَ دَعْوَتِهِ تُحَادُّ اللهَ وَرَسُولَه ، وَتَسْعَى فى الأَرْضِ فَسادًا ، وتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أنَّ لهم الْحُسْنَى[٦] ، وتَمْنَعُ العَرَبَ أَنْ تُقارِبَهُ أَوْ تَسْتَمِعَ إليه ، فحالَتْ بَيْنَه وَبينَ رِسالتِه ، الَّتى بُعِثَ بها لِلْأَسْوَدِ وَالأَحْمَرِ[٧] ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ[٨] !

فما أَهْوَنَ أَلَّا تُؤْمِنَ قريشٌ ، وتَبْقَى عَلَى كُفْرِها وطُغْيانِها ! ولكنْ لَيْسَ لها أنْ تَمْنَعَ دِينَ اللهِ أن يتَسَرَّبَ نُورُه على الجزيرةِ ، وَأَنْ يَسْتَهدِيَ به سائرُ العربِ ، وَأَنْ يُصْبِحوا بِهِ أُمَّةً واحدةً ، يَنْبَعِثُونَ مصابيحَ تُنيرُ الدُّنْيا ، وتُخْرِجُها منَ الظلماتِ إلى النورِ .

تِلْكَ قصيَّةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم الَّتى قاتلَ قُرَيْشًا لها ، ولوْ أنَّ قريشًا

---

(١) تستعد . (٢) اشتعلت . (٣) الهدى .
(٤) الضلال . (٥) القتل الذريع . (٦) الثواب والجنة .
(٧) العرب وغيرهم . (٨) لفعلة شنيعة .

دَخَلَت فى دِينٍ ، أوْ أنَّها لمْ تَقِفْ بَيْنَه وبينَ العربِ ، وتحولَ دونَ دَعْوَتِه ، مُتَّبِعةً رأىَ « عُتْبَةَ » فى ذلك — لوْ أنَّها فَعلَتْ ذلك لحقنَتْ[1] دماءها ، وأبْقَتْ على أنفُسِها ، ولكنَّ الشيطانَ نفخَ فى أوْداجِها[2] ، وملأَ صُدورَها كِبرًا وحَسَدًا ، فأتى بها فى المعارِكِ تُضَرِّسُها[3] الحروبُ ، ولا تدْرِى غلامَ تقاتلُ هذا القِتالَ ، وتَصْلَى هذه النَّارَ ! ؟

أمَّا المسلمونَ فإنَّهم يُقاتلونَ مَنْ كفرَ وصَدَّ عَنْ ذكرِ الله ، وأخرَجَهُمْ مِنْ ديارِهم وأموالِهم ، يُقاتلونَ منْ يعترِضُ هذا الدِّينَ ، الَّذِى يَغْمُرُ[4] نفوسَهُمْ ومنْ يُعادِى رسولَ الله حبيبَهم ؛ فما مِنْ مُسْلِمٍ خاضَ حَرْبًا ، أوْ قاتلَ قِتالاً ، إلاَّ كان اللهُ ورسولُهُ أحَبَّ إليه مِمَّا عَداهُما ، فهُما يدْفعانِه ويُحَمِّسانِه ، وهُوَ يُقاتِلُ ليُرْضِيَهما حيًّا أوْ ميِّتًا !

وَإنَّه لَيَنْتظِرُ الشَّهادَةَ ، كما يَنْتظِرُ الحبيبُ الحَبيبَ ! فيرَى الجنَّةَ تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ[5] ، كما حدَّثَهُ رسولُ الله ، فيهْوَى ألاَّ يُفارِقَها ، وقد تنسَّمَ عَبيرَها[6] ، وَإنَّهُ مِنْ إيمانِهِ فى دِرْعٍ مُضاعَفةٍ ، يَستهينُ بعَشَرَةٍ منَ المُشركينَ يَلْقاهُمْ ويَلْقَوْنَه !

أمَّا قريشٌ وقد رأَتْ من « بَدْرٍ » ما رأتْ ، وَأنَّ شُجْعانَها لمْ يَصْبِرُوا

---

(١) عصمت وأبقت .　　(٢) عروقها .　　(٣) تذلها .

(٤) يملأ .　　(٥) فى ميادين القتال .　　(٦) شم عطرها .

ساعةً على حرِّ[1] القتال ؛ فما هي إلا جولةٌ حتى أعطوا المسلمين أكتافهم[2] يقتلونهم ويأسرونهم ، وقد آنست[3] أن لا شيء في قلوبهم يثبت أقدامهم ، ويستر نفوسهم ، ليكون لهم قوة كقوة المسلمين — فقد أخرجت معها نساءها ، ينشدن لهم الأناشيد ، ويحرضنهم على القتال ، ليقاتل منهم من يقاتل دفاعاً عن عرضه ، مادام لا يجد في صدره حماسة لدينه .

أجل ، لقد اتخذت قريش من نسائهم وزراً[4] تحمي بهن ظهورها ، ولبئس وزراً الخود الرعابيب[5] ! « ومن ينشأ في الحلية[6] وهو في الخصام[7] غير مبين » ، يفيض على قريش قوة ، ويمنحها شجاعة ؟ !

* * *

والتقت الطائفتان في « أحد » ومالت إلى جانب المسلمين ، وجالت الخيل وأجلب[8] الناس ، وانكشفت قريش ، ووالت الأدبار[9] ، وتركت وراءها نساءها ، يمولن[10] ولا ينشدن !

ثم تراءت الدنيا للمسلمين ، وزين لهم الشيطان فتنتها ، فتركوا القتال ، وتسابقوا على الأسلاب[11] ونسوا نصيحة الرسول أن يثبتوا في أماكنهم ، فجالت خيل المشركين من ورائهم ، وحلقت عليهم[12] ، فاختلط أمرهم ،

---

(١) شدة .
(٢) هزموا .
(٣) أدركت .
(٤) حصنا وملجأ .
(٥) النساء .
(٦) تترى في الزينة والحلى .
(٧) الجدال .
(٨) ازدحم .
(٩) انهزمت .
(١٠) يبكين .
(١١) الغنائم .
(١٢) دارت .

وَتَصَدَّعَ بُنْيانُهم ، وأخذَ المسلمُ يَضْرِبُ المسلمَ لا يَعْرِفُه ، ونَفَذَ العدوُّ إلى الرَّسولِ ، فشَجَّ رأسَه[١] ، وكسرَ رَباعِيَتَه[٢] ، ونادَى مُنادِيهِمْ : قَتَلْتُ مُحَمَّدًا !!

وسَرَتِ الكلمةُ فى نفوسِ المسلمينَ ، فحَطَّمَتْ قُوَّتَهُمْ ، وأَذْهَلَتْهُمْ عن أنفُسِهِمْ[٣] !

كيفَ يُقاتِلونَ وقد طُمِسَتْ تلكَ الصورةُ العزيزةُ فى نفوسِهِمْ ، المُشْرِقةُ لأعْيُنِهِمْ ، الَّتى تدفعُهُمْ إلى الأمامِ دَفْعًا ؟ فخارَتْ قواهُمْ[٤] ، وتبدَّدَ شَمْلُهُمْ[٥] !

وبَيْنما كانَ بعضُ المسلمينَ يَجُولُ بِعَيْنَيْهِ فيما حوْلَه ، إذْ رأى عَيْنَى الرَّسولِ تَزْهَرانِ[٦] تحْتَ المِغْفَرِ[٧] ، فصاحَ فرحًا : كذبتُمْ فهذا رسولُ اللهِ حَيًّا ! فتجمَّعَ له حَفْنَةٌ من المسلمين ، وعقدُوا حولَهُ نِطاقًا ، وأجْلَبَ عليه المُشركونَ يُرِيدونَهُ لا يُريدونَ سِواهُ ، وأَبَى أصحابُه أَنْ يُسْلِموه ، وتلقَّوْا عنْهُ السِّهامَ بِنُحورِهم[٨] ، ودَفَعُوا العَدُوَّ عنْهُ ، واصْطَرَعُوا[٩] حَوْلَهُ واحداً بعْدَ واحدٍ !

فهذا « أَنَسُ بْنُ النَّضْر » يَجِدُ فيهِ قَوْمُه سَبْعِينَ ضَرْبةً ، وما تَعْرِفه إلا أُخْتُه من خاتَمٍ فى بَنانِه[١٠]

---

(١) جرح . (٢) سنه . (٣) غيبتهم عن وعيهم .
(٤) ضعفوا . (٥) تفرقوا . (٦) تلمعان (٧) الخوذة .
(٨) بصدورهم . (٩) قتلوا . (١٠) أطراف أصابعه .

وهذا « عبدُ الرَّحمٰنِ بن عَوْفٍ » تُصيبُه عِشرونَ جِراحةً ، وهو يدفعُ عنِ الرَّسُولِ !

« وأبُو دُجانَةَ » ينحنى عليهِ تاركاً ظهرَهُ يتلقَّى سِهامَ المشركينَ ، فتنغمِسُ فيهِ ولا يُبالِي ، حتى ليُشْبِهُ القُنفُذَ .

« وطَلْحةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ » يتلقَّى بيمينِهِ ما يتقاذفُ على الرَّسولِ ، حتى ينزِفَ دَمُه ، وتُشَلَّ يدُه !

ثم تنجلى هذهِ الفاشيةُ[١] ، ويثُوبُ[٢] المسلمونَ إلى رُشْدِهم ، ويَرْجِعُون إلى نَبيِّهم ، ويُظهرونَ قوةً لا تجملُ قريشاً تَطْمَعُ فيهم ، وتُغيرُ على بلدِهم ، فتكتفى بما كانَ منها ، وترْجعُ أدْراجَها .

وشَتَّانَ[٣] ما بَيْنَ بَدْرٍ وأُحُدٍ .

ففى « بَدْر » أسْلَمتْ قريشٌ أشْياخَها[٤] ، ما ذادَتْ[٥] عنهم ، ولا وقَفَتْ دونَهم ، كما فعلَ المسلمونَ بنبيِّهم ، وذلك لأنَّهُمْ لم يَملِكُوا عليهم قلوبَهم ، كما مَلَكَ الرَّسولُ قلوبَ المسلمينَ ، ولا رأَوْا أنَّ لهمْ رِسالةً يُؤَدُّونها كما رأَى المسلمونَ فى نَبيِّهمْ ، فهُوَ أحبُّ إليهم مِنْ آبائهمْ وأبْنائهمْ .

وأصابَ المُسلمينَ ما أصابَهُمْ إذْ غرَّتْهُمُ الدُّنْيا بزُخْرُفِها ، وطَمِعُوا فى أسْلابِها ، ونَسُوا أنْ يُثْخِنُوا[٦] فى عَدُوِّ اللهِ ، وقدْ وَلَّى ظَهْرَهُ ، فامْتَحَنَهُم

---

(١) الشدة . (٢) يعود . (٣) فرق كبير .
(٤) رؤساءها . (٥) دافعت . (٦) يقتلوا ويبالغوا .

اللهُ بالهزيمةِ كما امْتَحَنَهم بالنَّصْرِ ، وابْتلاهُمْ بالشَّرِّ ، كما ابْتلاهُمْ بالخيرِ ، ليَعلموا أنَّه يُصيبُهم ما يُصيبُ غيرَهم ، وأنَّ عليهمْ أن يَسْمَعُوا لِرسولِ اللهِ ، ولا يُخالِفُوا عَنْ أمْرِه .

ورَجَعْنا إلى المدينةِ ، وضَمَّدَ القومُ جِراحَهُمْ ، فَما بِتْنا غيرَ ليلةٍ ، حتى نادَى الرَّسولُ فينا بالخُروجِ خَلْفَ العَدُوِّ ، وألاَّ يَخْرُجَ إلاَّ مَنْ كان معَه في أُحُدٍ .

ورَحَلْنا وتَعَقَّبْنا قُرَيْشًا ، فإذا هُمْ قد أخَذُوا الطَّرِيقَ إلى مكَّةَ .

نَعَمْ ، لقد ثأَرَتْ قريشٌ لِنَفْسِها ، ولكنَّها لَمْ تَثأرْ لِدِينٍ ، ولَمْ تُحَطِّمْ قُوَّةَ المُسلمين .

* * *

وتَوالَتِ الأحْداثُ بَيْنَ قُرَيْشٍ وبَيْنَ المُسلمين ، وغَبَرَتْ عليهم سنَوَاتٌ . فلمَّا أشرفَ الإسلامُ على عامِه العِشْرِينَ ، كانَتْ قريشٌ قد سَئِمَتْ حَرْبَ المُسْلمينَ ، ويَئِسَتْ أن تَكْسِرَ محمدًا ، أو تخْضِدَ[1] شوْكَتَه ، ورأَتْ أنَّ نَجْمَهُ يَزْدَهِرُ[2] دائِمًا ، وأنَّ أصحابَهُ يَكْثُرُونَ في كلِّ مَكانٍ .

وأدْرَكَ المسلمونَ أنَّ عليهم أنْ يُذيعُوا دَعْوَةَ اللهِ في كلِّ سبيلٍ ، فلا يَقِفُوا جُهودَهم على قريشٍ وَحْدَها ، وأنْ يُحوِّلُوا وجوهَهُمْ إلى قبائلِ العربِ في طولِ الجزيرةِ وعَرْضِها ؛ فإذا ما غَدَتْ مُؤْمِنةً بربِّها ، وتَرَدَّدَتْ

---

(١) تقطع وتكسر .

(٢) يلمع ويسطع .

دعوةُ الإيمانِ فيها ؛ فإنَّ قريشاً لا تلبثُ أنْ تدخُلَ فيما دخَلَ فيه النَّاسُ ، ولا تقِفُ للسَّيْلِ يقتحِمُها[١] .

وانعقدتْ هُدْنَةٌ بينَ الرَّسولِ وبيْنَ قريشٍ في (الحُدَيْبِيَةِ[٢]) وكان بَينهمْ عهدٌ وميثاقٌ ، فلا قُرَيشٌ تحاربُ المسلمينَ ولا تُعينُ عليهم أحداً ، وكذلك المسلمونَ لا يُحاربونَها ولا يُعينونَ عليها .

وبذلكَ تنتصرُ الدِّينُ ، وَاعترفَتْ قريشٌ بعزَّتِه وعزَّةِ المُسلمينَ ، ولَمْ تَعُدْ تراهُمُ الهيئةَ الذليلةَ الطَّريدةَ مِنْ بلادِها .

وَأَدْرَكَ العربُ وَهْنَ[٣] قريش ، فسارَعُوا إلى المسلمينَ ، وَدَخَلُوا في حِماهم ، وَاتَّصلوا بحالِهم[٤] ، وَرَغِبُوا فيهم ورَهِبُوهم ، وَجاءَتْهُمُ الوُفُودُ مِنْ كلِّ فَجٍّ[٥] يقتبِسونَ[٦] مِنْ دِينِ اللهِ ، ويُرَدِّدُونَ كلمةَ اللهِ ، فازْدَادُوا شَوْكَةً وَمَنَعَةً[٧] !

والتفتَ المسلمونَ إلى «يَهُودَ» الَّتي خانَتْهُمْ ، وَنكَثَتْ[٨] عُهودَها معَهُمْ ، فكانَ بَيْنهم وبَينَها حسابٌ عَسيرٌ .

أَمَّا أَنَا فأقمْتُ بعدَ «أُحُدٍ» في المدينةِ ، مُهاجِرًا إليها كما هَاجرَ السَّابقونَ .

---

(١) يجتاحها ويزيلها .
(٢) موضع بقرب مكة على طريق جدة .
(٣) ضعف .
(٤) بعهودهم .
(٥) طريق وجهة .
(٦) يستنيرون .
(٧) قوة وامتناعا .
(٨) نقضت .

نَكَثَتِ اليهودُ بعهودِ المسلمينَ ، وساعدُوا قُرَيْشاً عليهم ، وأمدُّوها بسلاحٍ وأموالٍ ، وكلَّما ازدادَ الإسلامُ قوَّةً ازدادُوا له حِقْدًا ، فأخرجَهُمُ المسلمونَ مِنَ المدينةِ .

أمَّا « قَينُقاعُ » فخرجُوا إلى (أَذْرِعاتٍ[١]) ، وتناوَلَتْهُمْ أوْبِئةُ الشَّامِ ، فقضَتْ عليهم ، وكَفَى اللهُ المؤمنينَ قِتالَهم !

وأمَّا « النَّضِيرُ » ، فجلَتْ إلى (خَيْبَرَ) ، وأقامُوا شَوْكَةً في طريقِ الشَّامِ ، يفترونَ على دينِ اللهِ وعلى رسولِه ، وتَصِفُ ألْسِنَتُهمُ الكذبَ[٢] ، ويزعمونَ أنَّهم يجدون ما يقولونَ في التَّوْراةِ وكُتُبِ الأنبياءِ ، فيُضِلُّونَ الناسَ بغيرِ علمٍ ، ويحُولونَ بينَ العربِ وبينَ دينِ اللهِ .

ثمَّ إنَّهم فوْقَ ذلك ألَّبُوا[٣] العربَ على المسلمينَ ، وجمعوهم ليومِ « الخندقِ » المشهود ، وحاصَرُوا المدينةَ وأرادُوا اقتحامَها ، ولولا أنْ فتَّ اللهُ في عَضُدِ الأحزابِ[٤] ، وصَرَفهم عنِ المدينةِ ، لبلَغُوا مِنَ المسلمينَ ما يشتهون !.

والآنَ ، وقدْ هادَنَ المسلمونَ قريشاً ، آنَ لهمْ أنْ يؤدِّبُوا يهودَ ، ويسيرُوا إليهم في خَيْبَرَ ، معْقِلِهم[٥] الحصينِ . فإنْ تقوَّضَتْ دَوْلَتُهمْ ، ذهبَتْ رِيحُهم[٦] ، ولمْ تقُمْ لهم قائمةٌ أبدًا !

---

(١) بلدة بالشام . (٢) يتقولون الكذب على الإسلام . (٣) جمعوا .
(٤) خذلهم ، وأحبط عملهم . (٥) حصنهم . (٦) ضعفوا .

وخرجنا من المدينة فى جيش يجب[١] ، واتجهنا صوب[٢] الشمال منشدين :

لأهمّم[٣] لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة[٤] علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا[٥] علينا وإن أرادوا فتنة[٦] أبينا

وعلى توقيع هذا النشيد المطرب ، وترجيع صوت الحداة[٧] اللين ، سارت قافلتنا ، تحت ظلال الراية البيضاء .

وما زلنا نصعد فى النجاد ، وننهبط فى الأودية ، حتى تراءت لعيوننا حصون « خيبر » شامخة تشق السماء ، وقد لفها غلس[٨] الدجى .

وعلى قيد[٩] أميال منها وقف النبى صلى الله عليه وسلم يتأملها ، فوقف الركب بوقوفه ، فرفع يديه يناجى ربه ويقول :

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن[١٠] ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين .

فإنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها ، وشر أهلها ، وشر ما فيها » .

---

(١) كبير . (٢) جهة . (٣) اللهم . (٤) ثباتا وأمنا .
(٥) ظلموا . (٦) كفرا . (٧) سائقو الركب . (٨) ظلام .
(٩) مقدار . (١٠) حملن .

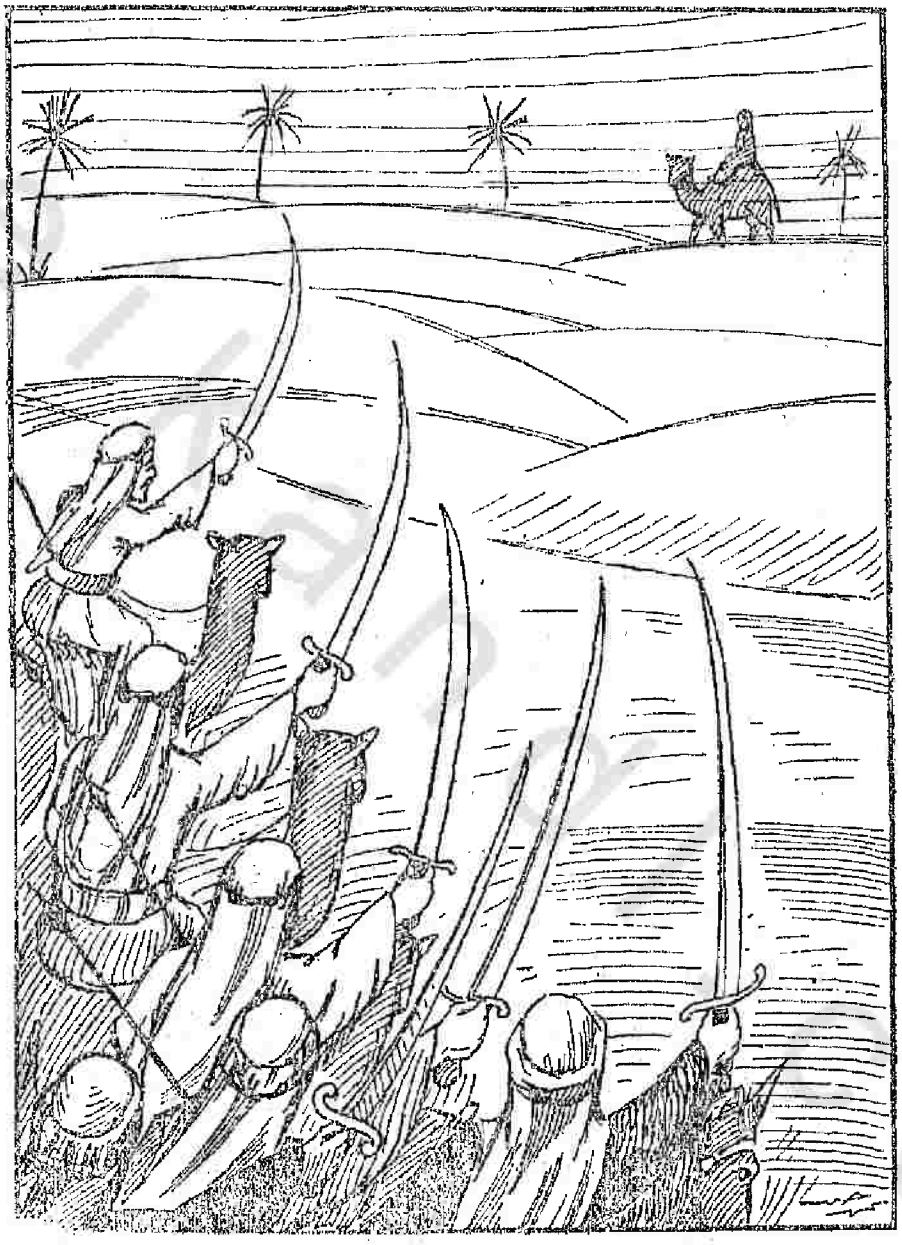

اتجهنا نحو الشمال إلى خيبر

وأمضَيْنا ليلتَنا على مَرْأًى منها ، فلمَّا أصبَحْنا ، قامَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول :

« اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ ، هَلَكَتْ خَيْبَرُ ! إنَّا إذا نزَلْنا بِساحَةِ[1] قَوْمٍ ، فساءَ صَباحُ المُنْذَرِينَ[2] ! » .

وانطَلَقَ المسلمونَ يُكَبِّرونَ . وكأنَّهم كُلَّما رَفَعُوا بالتَّكْبِيرِ أصْواتَهُمْ ، بلَغُوا ما أرادُوا مِنْ إظهارِ إخلاصِهِمْ لِرَبِّهِمْ ، وإنَّ مِنَ الجِبالِ لَما يهتزُّ لِدُعائِهِمْ ، وإنَّ منها لما يتصدَّعُ[3] مِنْ خَشْيَةِ اللهِ !

فقالَ لهم النبيُّ : « اربَعُوا على أنْفُسِكُمْ[4] ، فإنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أصَمَّ ، ولا غائِباً ، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعاً قَرِيباً وهُوَ مَعَكُمْ » .

وخرجَ عُمَّالُ « خَيْبَر » إلى مزارِعِهم ، فراعَهُمْ[5] جيشُنا ، فرجَعُوا صائِحِينَ بأهليهم : محمدٌ والخَمِيس[6] .

وفَزِعَتْ خَيْبَرُ ، وأغْلَقَتْ عليها أبْوابَها ؛ وحاصَرْناهُمْ ، وضَيَّقْنا عليهم السُّبُلَ ، ونَقَبْنا الجُدْرانَ والحُصونَ .

فأطلَّ علينا « حُيَيُّ بنُ أخْطَبَ » سَيِّدُ النَّضِير ، فلمَّا رأى الرايةَ البَيْضاءَ في يَمِينِ « عليِّ بن أبي طالب » ، رأى الموتَ الأحْمَرَ ! فقال :

تَبًّا لَكُمْ[7] ! واللهِ ما ذُقْنا العَذابَ إلاَّ تَحْتَ هٰذا اللِّواءِ[8] !

---

(١) جهة ومكان .
(٢) ما أسوأ صباح من نغزوهم !
(٣) يتشقق .
(٤) ابقوا على أنفسكم .
(٥) أفزعهم .
(٦) الجيش .
(٧) بعدا .
(٨) الراية .

أَلَمْ يَكْفِكُمْ أَنْ أَخْرَجْتُمُونَا مِنْ بُيُوتِنا « بِيَثْرِبَ » فما جاء بِكُمْ إِلَيْنا ؟

قال عليّ : يا عَدُوَّ اللهِ ، أَلَسْتَ الذي جَمَعْتَ علينا الأَحْزابَ ، فَصِرْنا فى مِثْلِ حَدَقَةِ البَعِيرِ (١) ! ثُمَّ هِجْتَ (٢) علينا « قُرَيْظَةَ » فَنَبَذَتْ (٣) لنا عَهْدَنا ، فوقَفْنا بَيْنَ عدوَّيْنِ : اليهودِ فى داخلِ المدينةِ ، وقريشٍ والعربِ فى خارِجِها ، فى يومٍ تَشِيبُ لهَوْلِهِ الوِلْدانُ (٤) !

ولكنَّ اللهَ مَنَّ علينا ، وَخَذَلَ عَدُوَّنا ، وجعلَ من ضِيقِنا فَرَجًا .

أَلَا تَذْكُرُ ذلك يا عَدُوَّ اللهِ ؟!

حُيَيّ : بَلَى ، وما نَدِمْتُ على ما فعلْتُ ، فَامْكُثوا ما شِئْتُمْ أَنْ تَمْكُثُوا ، أنتم فى الأرضِ ، ونحنُ فى السّماء (٥) ، وَلَنْ تَصِلُوا إِلَينا ! وإِنَّ سِهْمَكُمْ لَنْ يَخْرِقَ حَجَرًا ، وَإِنَّ خَيْلَكُمْ لَنْ تكون طَيْرًا ؛ وإِنَّ لَنَا فى كُنُوزِنا وَخَيْرَاتِنا لَسَعَةً !

علىّ : أَتَحْسَبُ أَنَّ حُصُونَكُمْ مانِعَتُكُمْ ؟ كَذَبْتَ ياعدوَّ اللهِ ! فلا عاصمَ (٦) اليومَ مِنْ أمرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ! إِنَّ الذى دَكَّ الجبلَ تَحْتَ أَقْدَامِ مُوسَى ، هوَ الذِى يَخْسِفُ (٧) بكم الحُصُونَ ، فَنَلْتَقِى على سَواءٍ (٨) ! وكأَنِّى بكم يا بَنِى « النَّضِيرِ » بَعْدَ لَيالٍ قد طاحَتْ (٩) رءوسُكُمْ ، وَصِرْتُمْ جَزَرَ السُّيُوفِ (١٠) ، فأَسْلِمُوا تَسْلَمُوا !

---

(١) فى ضيق شديد .
(٢) أثرت .
(٣) رمت .
(٤) يوم شديد .
(٥) فوق الحصون .
(٦) حافظ .
(٧) يدك .
(٨) متساوين فى المكان .
(٩) أبعدت .
(١٠) قطع .

حُيَيّ : لَنْ يَأْخُذَ منا وَعيدُكُمْ شيئاً .

علىّ : وَأَنْتُمْ لاتُعْجِزُونَ الله !.

وحاصَرْناهم أيّاما فلمّا أجهَدْناهم[1] قِتالاً ، وَضَيَّقْنا عليهم ، نَزَلُوا مِنْ حُصُونِهِمْ يُبارِزُونَنا ؛ فدارَتِ الدّائرَةُ عليهم[2] ، فَقَتَلْنا رجالَهم ، وسَبَيْنا نِساءَهُمْ وذُرِّياتِهِم !

* * *

وتقدَّمَ أعْرابىٌّ إلى « صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيّ » ، وهَمَّ أنْ يُمْسِكَ بها قائلاً: ها قَدْ وجَدْتُ عَرُوسى الّتى أنتظِرُها !

صَفِيَّةُ : ومَنْ تكون أنْتَ ؟

— : رَجُلٌ من كَلْبٍ .

صفية : لَسْتَ هُناكَ[3] ! مالَكَ وَسَيِّدةَ قُرَيْظَةَ والنَّضِير ؟ إنَّ الكريمةَ كُفءُ الكريمِ .

وبلغَ الرسولَ حَدِيثُهما ، وأعجَبَهُ عِزَّتُها على ذُلِّ قومِها ، فجبرَ كَسْرَها ، واختارَها زَوْجًا له ، ليُداوِىَ جِراحَها ، ويَصُونَ عليها كِبرياءَها !

وَبَنَى بها تحتَ قُبَّةٍ[4] ضُرِبَتْ له فى أثناءِ عَوْدَتِنا ؛ فلمّا قضَى اللّيلَ ، وخرَجَ للصلاةِ الأُولَى ، آنَسَ[5] على مَقْرَبَةٍ من بَيْتِه رَجُلا مُتَوَشِّحًا

---

(١) أتعبناهم . (٢) وقعت الهزيمة . (٣) لست من أكفائى .
(٤) خيمة . (٥) أبصر .

بسيفِهِ ، فخبطَهُ ضربةً جاءَ لِشَرٍّ ! فلمَّا دَنَا منهُ تعرَّفَهُ فإذَا هو « أبو أيُّوبَ الأنْصَارِيّ » .

فسألَهُ عمَّا وَقَفَ به هذا المَوْقِفَ ، فقالَ :

« يارَسُولَ اللهِ ، خِفْتُ عليْكَ هذهِ المَرْأَةَ[1] ، وَهِيَ امْرَأَةٌ ثَكلَى ، قُتِلَ أَبُوها وزَوْجُها ، وهي حديثَةُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ ، فخِفْتُها عليْكَ ! » !

فسُرَّ منه الرَّسُولُ ، وقال : « اللَّهُمَّ احْفَظْ أبا أيوبَ ، كما باتَ يَحْفَظُنِي ! » .

وحدَّثَ (صَفِيَّةُ) بِذلِكَ ، فقالَتْ : واللهِ يا رسولَ اللهِ لأَنْتَ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ أَبِي وأُمِّي وَأَنَا عَلَى دِينِك ! .

* * *

وَاسْتَأْذَنَ « الحجَّاجُ بنُ عُلاطٍ السُّلَمِيُّ » نَبِيَّ اللهِ أَنْ يَذْهَبَ إلى مكَّةَ ، لِيَجْمَعَ منها أمْوَالَه ، قَبْلَ أَنْ يَفْشُوَ إِسْلامُه ، فَيَنْقُصُوهُ حَقَّه ، ثم يَعُودَ إليهمْ فى المدينةِ ، فأَذِنَ له .

وكانَتْ قريشٌ تَتَسَمَّعُ أخبارَ الرَّسولِ معَ خَيْبَرَ ، وتَتَمَنَّى أَنْ تَدُورَ الدائرةُ على المسلمينَ[2] ، فتَكْفِيهِم يَهودُ شَرَّ قتالِهِمْ !

وأَخَذُوا يَرْصُدونَ الطُّرُقَ ، لعلَّهم يَقِفُونَ على خَبَرٍ يُرْوِي غَلِيلَهُمْ ، فرأَوْا أعْرابِيًّا قادِمًا عليهم ، واسْتَوْضَحُوهُ ، فإذَا هو « الحَجَّاجُ » .

فطَارُوا إليهِ وقالُوا : هٰذَا لَعَمْرُ اللهِ[3] عِنْدَه الخَبَرُ !

---

(١) يقصد السيدة صفية . (٢) يهزموا . (٣) يمين الله .

فقالَ : وما ذاكَ ؟

: بَلَغَنا أنَّ الباطِعَ[١] خَرَجَ إلى خَيْبَرَ ، وهِيَ بَلَدُ « يَهُودَ » ، وريفُ الحِجازِ[٢] .

الحَجّاج : بَلَغَنى ذٰلِكَ ، وعِنْدِى مِنَ الخبَرِ ما يَسُرُّكُمْ !

— : إيهِ[٣] يا حَجّاجُ !

الحجاج : هُزِمَ هزيمةً لَمْ تَسْمَعُوا بِمِثْلِها قَطّ ! وقُتِلَ أصْحابُه قَتْلاً لَمْ تَسْمَعُوا بِمِثْلِهِ قَطّ ! وأُسِرَ محمدٌ أسْراً ، وقالُوا لا نَقْتُلُه حتّى نَبْعَثَ بِهِ إلى أهْلِ مكةَ ، فَيَقْتُلُوه بَيْنَ أظْهُرِهِمْ[٤] بِمَنْ كانَ أصابَ مِنْ رِجالِهِم !

فصاحَتْ قريشٌ طَرَباً ؛ وقالُوا لأنْفُسِهِمْ : قَدْ جاءَكُمُ الخبرُ ، وهٰذا محمدٌ إنّما تَنْتَظِرونَ أنْ يُقْدَمَ بِهِ عليكُمْ ، فَيُقْتَلَ بَيْنَ أظْهُرِكُمْ .

وقالَ الحجّاج : فَأعِينُونى عَلَى جَمْعِ مالِى بِمكّةَ ، وعَلَى غُرَمائى[٥] ، فإنّى أُرِيدُ أنْ أقْدَمَ خَيْبَرَ ، فأُصِيبَ مَن فَلَّ[٦] محمدٍ وأصحابِه ، قَبْلَ أنْ تَسْبِقَنى التُّجّارُ إلى ما هُنالِكَ .

فقالوا : لَكَ ما تُحِبُّ وَتَرْضَى ، وأعانوه حتّى جمعَ مالَه .

ولَمّا سَمِعَ « العباسُ بنُ عبدِ المطّلب » الخبرَ ، جاءَه وهو كالمرْأةِ الثَّكْلَى[٧] ، وقالَ :

---

(١) يقصدون النبى ، ويزعمون أن الرسول قطع رحمهم . (٢) الريف : المكان الخصب.
(٣) حدثنا وزدنا . (٤) بينهم . (٥) من لى عليهم ديون .
(٦) بقية جيشه المنهزم . (٧) الفاقدة ولدها .

« وَيْحَكَ[١] يا حَجَّاجُ ! ما تَقُول ؟ »

الحجاج : أَكَاتِمٌ أنتَ عَلَيَّ خَبَرِي ؟

العباس : إِى وَاللهِ ؛

الحجاج : فَالْبَثْ[٢] عَلَيَّ شَيْئاً ، حتَّى يَخِفَّ مَوْضِعِى[٣] .

قال الحجاج : ثم جاءَ بَعْدَ ساعةٍ إِلَيَّ ، فقلْتُ له :

« الخبرُ وَاللهِ على خِلافِ ما قلتُ لهم ؛ خَلَّفْتُ رسولَ اللهِ وقَدْ فَتَحَ خَيْبَرَ ! وخلَّفْتُهُ واللهِ مُعْرِساً[٤] بابْنةِ مَلِكِهِمْ ؛ وما جِئْتُكَ إلا مُسْلِماً ! وإِنَّ قُرَيْشاً لَتَحْسِبُنِى لاَ أَزَالُ على دِينِها . فَاطْوِ[٥] الخبرَ عنِّى ثلاثاً ، حتَّى أُعْجِزَ القومَ[٦] ، ثُمَّ أَشِعْهُ[٧] ، فإِنَّهُ واللهِ الحقُّ » !

العبّاس : وَيْحَكَ ! أَحَقٌّ ما تقُول ؟ !

الحجاج : ما قُلْتُ لكَ إلاَّ الحقَّ .

العباس : ولكنَّك قلْتَ للنّاسِ وقلْتَ ، ودِينُ محمدٍ لا يَرْضَى الكذبَ !

الحجاج : اسْتَأْذَنْتُهُ فى أنْ أقولَ فأَذِنَ ، لأَجْمَعَ مالِي وأُهاجِرَ إِلَى المدينةِ . والآنَ أَذْهَبُ .

العباس : عَلَى عَيْنِ[٨] اللهِ .

ثُمَّ تحدَّثَ العباسُ بما كانَ منه بعْدَ ذٰلِكَ فقال :

---

(١) عجبا لك . ويل لك .
(٢) فانتظر .
(٣) يفترق الناس عنى .
(٤) متزوجا .
(٥) فاكتم .
(٦) يعجزوا عن اللحاق بى .
(٧) أظهره وأذعه .
(٨) فى رعاية الله .

لمَّا كانَ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ تخلَّقْتُ[١] ، وأخذْتُ عصاىَ ، وخرَجْتُ أطُوفُ بالبيْتِ .

فقالت قريشٌ : يا أبَا الفضْلِ ، هٰذا واللهِ التَّجلُّدُ[٢] لِحرِّ[٣] المُصيبَةِ !

فقلْتُ : كلَّا واللهِ الذِى حلَفْتُمْ بِهِ ، لقد فتَح محمدٌ « خيْبرَ » ، وأعْرسَ[٤] بابنةِ مَلِكِهِمْ ، وأحْرزَ[٥] أمْوالَهُمْ !.

فدارتِ الأرضُ بقريشٍ ساعةً ، ثمَّ أفاقوا لِأنْفُسِهِم ، وقالُوا : مَنْ جاءكَ بما زَعمْتَ ؟

العباس : الَّذى جاءكُمْ بما جاءكُمْ به ، ولقدْ دخلَ الرَّجلُ عليكُمْ مُسْلِماً ، فأخذَ منكمْ أمْوالَهُ ، وانْطلقَ يلْحَقُ بمحمدٍ وأصْحابِهِ .

قريش : يالعَدُوِّ اللهِ ! أفْلتَ مِنَّا الخَبيثُ ؛ أمَا واللهِ لَوْ علِمْنَا مكانَه ، لَكانَ لَنَا وَلَهُ شأْنٌ ! أوْلَى له[٦] !

العباس : أوْلَى لِلظَّالمين !

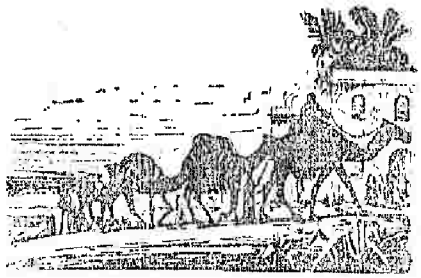

---

(١) تعطرت .
(٢) إظهار الصبر .
(٣) لشدة .
(٤) تزوج .
(٥) أصاب .
(٦) ويل وعذاب له .

قاتلهم الله ! أيقتلون من يدعوهم إلى الإيمان ؟

سرت هذه الكلمة بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما سمع النبي أن « شرحبيل بن عمرو الغساني » ، من ملوك الشام ، قتل « الحارث بن عمير » الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم ، بكتاب إلى ملك « بصرى [1] » ، يعرض فيه الإسلام عليه ، ويدعوه إليه .

ويل لهم ! يدعوهم إلى الجنة ويقتلونه ! ؟

وامتلأ المسلمون غيظاً ، أن قتل صاحبهم في غير حرب ولا جهاد ، وإنما قتل غيلة وغدرا ؛ وودوا لو يذهب جيش منهم ، يؤدب تلك العصابة الباغية [2] .

قال سارح :

وأصبحنا في المدينة ، وإذا بثلاثة آلاف من المسلمين ، يرغبون في أن يسيروا إلى الشام ، يثأرون [3] لصاحبهم .

واختار الرسول لهم ثلاثة أمراء ، يتولون عليهم أميرا بعد أمير . هم : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، من المهاجرين . وعبد الله ابن رواحة ، من الأنصار .

---

(١) بلد في الجنوب الشرقي من دمشق بالشام .
(٢) الظالمة .
(٣) ينتقمون .

وأدرك الأمراء أن الرسول لم يكتف بتأمير واحد عليهم، لأمر يعيشه ولا يبديه لهم .

ولما تهيأ الجيش للخروج من المدينة ، ودّع الناس أمراء رسول الله وسلّموا عليهم .

فلما ودّع «عبد الله بن رواحة» فيمن ودّع من الأمراء ، بكى !.

فقالوا : ما يبكيك يابن رواحة ؟

عبد الله : أما والله ما بي حب الدنيا ، ولا صبابة بكم[1] ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله عز وجل ، يذكر فيها النار، تلك هي: «وإن منكم إلا واردها[2] ، كان على ربك حتماً مقضياً» .

فلست أدري : كيف لي بالصدر بعد الورود[3] ؟

فقال المسلمون : صحبكم الله ، ودفع عنكم ، ورد كم إلينا صالحين !.

فقال عبد الله :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع[4] تقذف الزبدا[5]

أو طعنة بيدي حران[6] مجهزة[7] ... بحربة تنفذ[8] الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثي[9] : ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

---

(١) حرارة شوق .
(٢) مامن إنسان إلا ويعرض على النار فيقضي ماشاء الله بها حسب عمله .
(٣) كيف الرجوع منها بعد غشيانها .
(٤) دم .
(٥) مايشبه رغوة الماء .
(٦) متعطش للقتل .
(٧) قاضية .
(٨) تخرق .
(٩) قبري .

وخرجَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُشَيِّعُهُمْ ، حتَّى إذا ودَّعَهُمْ ، قالَ عبد الله :

فَثَبَّتَ اللهُ ما آتاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسَى (١) وَنَصْرًا كالَّذِي نُصِرُوا

فقال الرَّسول : « وأَنْتَ فَثَبَّتَكَ اللهُ يَابْنَ رَوَاحَةَ » .

فقال عَبْدُ الله :

أَنْتَ الرَّسُولُ ، فَمَنْ يُحْرَمْ نَوَافِلَهُ (٢) ... وَالْوَجْهَ مِنْهُ ، فَقَدْ أَزْرَى (٣) بِهِ الْقَدَرُ

ثم سارُوا حتَّى نزلُوا بأرْضِ الشام ، وتسامعَ الرُّومُ بجَيْشِ العربِ يغْزُوهُمْ فى دِيارهم ، فجمَعُوا له كلَّ ما يَقْدِرُونَ عليه ، وأجْلَبُوا عليه مِنْ كلِّ مكان ، فوجدَ المُسْلِمُونَ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بهمْ ، ووَقَعُوا بين مائةِ ألفٍ من عرَبِ الشَّامِ ، وَمِثْلِها من جُنودِ الرُّومِ ! وأَصْبَحُوا فِيهِمْ كالشَّعْرةِ السَّوْداءِ فى الفَرَسِ الشَّهْباءِ (٤) !

فلبِثُوا يُفكِّرونَ فى أمْرِهم ، وقَالُوا : نَكْتُبُ إلى رسولِ اللهِ ، فنُخْبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُوِّنا ؛ فإِمَّا أَنْ يُمِدَّنا بالرِّجالِ ، وَإِمَّا أَنْ يأمُرَنا بأمْرٍ فنَرْضَى له .

فقامَ عبدُ اللهِ بنُ رَوَاحةَ وقالَ : « واللهِ يا قَوْمِ إِنَّ الَّتى تَكْرَهونَ لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبونَ ، تِلْكَ الشَّهادةُ (٥) . وَما نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ ولا قُوَّةٍ ولا كَثْرَةٍ ؛ ولا نُقَاتِلُهُمْ إلاَّ بهذا الدِّينِ ، الَّذِى أَكْرَمَنا اللهُ بِهِ ؛ فانْطَلِقُوا فإِنَّما هِيَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ : إِمَّا ظُهورٌ وانْتِصارٌ ، وَإِمَّا شَهادَةٌ وَجَنَّةٌ ! .

---

(١) نبى الله موسى عليه السلام .
(٢) خيره وعطاياه .
(٣) نقص .
(٤) البيضاء .
(٥) الموت فى سبيل الله .

فقالَ النَّاسُ : قَدْ وَاللهِ صدَقَ « ابْنُ رَوَاحَةَ » .

وانْحَازَ المُسلمونَ إلى قَرْيَةٍ يُقَالُ لها (مُؤْتَة) ، فالْتَقَتِ الجيُوشُ عِنْدَها وَالْتَحَمَ المُسْلمونَ بالعَدُوِّ !.

وقاتلَ «زَيْدُ بْنُ حارثةَ» برايةِ رسولِ اللهِ، حتى أَثْخَنَتْه الجِرَاحُ[1] وقُتِلَ!

ثمَّ أخذَ الرَّايةَ منْهُ « جَعْفَرُ بنُ أبي طالبٍ » وأخذَ يَرْتَجِزُ :[2]

يا حبَّذَا الجَنَّةُ وَاقْتِرَابُها ... طَيِّبَةٌ وبارِدٌ شَرَابُها

والرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذابُها ... كافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أنْسابُها

عَلَيَّ إنْ لاَقَيْتُها ضِرَابُها !

وقاتَلَ أشدَّ قِتالٍ ، وأصابَتْهُ ضَرْبَةٌ فى يَمينِه ، فتَاقَى الرايةَ بِشِمالِه وقاتلَ ، فأصابَتْهُ أُخْرَى فى شِمالِه ، فاحْتَضَنَ اللِّواءَ بِعَضُدَيْهِ حتَّى قُتِلَ ! .

فأَخَذَ «عبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَةَ» الرَّايةَ ، ثمَّ تقدَّمَ بها وهُوَ عَلَى فَرَسِه ، فجَعَلَ يَسْتَنْزِلُ نفسَه[3] ، وَيَتَرَدَّدُ بَعْضَ التَّرَدُّدِ ، ثمَّ قال :

أَقْسَمْتُ يا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ ... لَتَنْزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ

إنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّهْ[4] ... مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّهْ ؟!

قَدْ طالَمَا قَدْ كُنتِ مُطْمَئِنَّهْ ... هَلْ أَنْتِ إلاَّ نُطْفَةٌ فى شَنَّهْ[5] ؟!

* * *

(١) أثقلته . (٢) يقول رجزا ، وهو ضرب من الشعر . (٣) يسألها التقدم للقتال .
(٤) صيحة القتال، أو صوت القوس . (٥) قطرة ماء نمت فى شيء كالقربة .

يَا نَفْسُ إلا تُقْتَلِى تَمُوتِى ... هٰذَا حِمَامُ المَوْتِ[1] قَدْ صَلِيتِ[2]!

وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ[3] ... إِنْ تَفْعَلِى فِعْلَهُمَا[4] هُدِيتِ!

ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَه وتقدَّم وقاتَلَ حتَّى قُتِلَ!.

قُتِلَ الأُمَرَاءُ الثَّلاثَةُ الذِينَ عَيَّنَهُمُ الرَّسولُ على الجيْشِ، فاصْطَلَحَ المُسْلِمونَ عَلَى رَجُلٍ منهم يَحْمِلُ الرَّايَةَ مِنْ بَعْدِهم، فكان «خالدَ بنَ الوليدِ».

فلمَّا أَخَذَها دافَعَ القومَ، وحاجَزَهُم[5]، ثم انْحَازَ وانْحَيَّز عنْه مِنْ غيرِ هَزِيمَةٍ، وبات ثمَّ أَصْبَحَ وقدْ غيَّرَ تَعْبِئَةَ العسكرِ، فتوهَّمَ العدوُّ أنهُ جاءهمْ مَدَدٌ، فلمَّا حَمَلَ عليهم ولَّوْا فلمْ يَتْبَعْهُمْ، ورأى الرُّجُوعَ بالمسلمينَ هو الغَنيمةَ العُظمى، فأقبلَ بهم قافِلاً إلى المدينةِ.

* * *

وأصبحَ النبيُّ فى المدينةِ غداةَ مَصْرَعِ القومِ مَهْمُومًا، يرَى الناسُ الحُزْنَ فى وجْهِه! فلما صلَّى بالمسلمينَ الصلاةَ الأُولَى[6]، جلسَ إلى أصحابِهِ، وأَدْرَكَ المسلمونَ أن عندَ الرَّسولِ نَبَأً يُرِيدُ أَنْ يُفْضِيَ[7] به إليهم، فانْتَظَرُوا خاشِعينَ كأَنَّ على رُءُوسِهِمُ الطَّيرَ!.

فقالَ الرَّسولُ بعدَ فَتْرَةٍ من الصَّمْتِ:

«أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بنُ حارِثَةَ ...»

---

(١) الحمام: الموت، ويقصد القتال المفضى إليه. (٢) ذقت.
(٣) ما تمنيته من الجهاد. (٤) فعل زيد وجعفر. (٥) مانعهم ودافعهم.
(٦) صلاة الصبح. (٧) يذيعه.

وتطلّعَ إلى الأفقِ البعيدِ ، فأدركَ المسلمونَ أنّه يحدّثهم عن الجيشِ الّذي أرسلوهُ ليدعّموهم ، واشتاقوا لمعرفةِ خبرِه .

وأتمّ الرسولُ حديثَهُ فقال : « فقاتلَ بها حتّى قُتِلَ شهيدًا ! » .

فظهرَ الحزنُ على وجوهِ المسلمينَ ، واسترجعوا لله[1] خاشعينَ .

ثم قالَ : « ثمّ أخذها جعفرٌ . . . »

واضطربتْ قلوبُ المسلمينَ ، يخشَوْنَ على جعفرٍ مصرعَ صاحبِه ، فوصلَ الرّسولُ كلامَه : « فقاتلَ بها حتّى قُتِلَ شهيدًا ! » .

ثمّ سكتَ الرّسولُ برهةً ، وأطرقَ برأسِه ، فتغيّرتْ وجوهُ الأنصارِ وظنّوا أنّ صاحبَهم « عبدَ الله » بدا منهُ بعضُ ما يكرهونَ .

ثم رفعَ الرّسولُ رأسَه وقال :

« ثمّ أخذها عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ ، فقاتلَ بها حتّى قُتِلَ شهيدًا ! » .

فسُرّتِ الأنصارُ ، أنْ لمْ يخذُلْهُمْ صاحبُهم ، فلحقَ بصاحبَيْه !

ثم أتمّ الرسولُ حديثَه فقالَ :

« لقدْ رُفِعُوا إليّ في الجنّةِ ، فيما يرى النّائمُ على سُرُرٍ من ذهبٍ ، فرأيتُ في سريرِ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ ازورارًا[2] عنْ سريرَيْ صاحبَيْه ، فقلتُ : عمّ هذا[3] ؟

---

(١) قالوا : « إنا لله وإنا إليه راجعون » (٢) انحرافا ، وانخفاضا . (٣) لماذا ؟

فقيل لى : مَضَيا ، وتردَّدَ عبدُ اللهِ بعضَ التَّردُّدِ ، ثُمَّ مَضَى ! ورأيتُ جعفرًا يطيرُ مَعَ الملائكةِ فى الجنَّةِ ، وجناحاهُ مُضرَّجانِ[1] بالدَّمِ ! »

* * *

ولمَّا انتهى الرَّسولُ مِنْ حديثِهِ ، قامَ عَنْ أصحابِهِ إلى بيتِ « جعفرٍ » .

قالتْ « أسماء » زوجُ جعفرٍ : وكُنْتُ قد عجنْتُ عجينى ، وغسلْتُ بَنِىَّ ودهنْتُهُمْ ، وإذا أنا برسولِ اللهِ يطرقُ البابَ . فلمَّا دخلَ ، قالَ : « ائْتِنِى ببَنِى جعفرٍ ! »

قالتْ : فأتيتُهُ بهِمْ ، ولا أدرى شيئًا .

فأخذَ الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم يتشمَّمُهم ، وذرَفَتْ عيناه[2] !

فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ، بأبى وأمّى[3] ! ما يُبكيكَ ؟ أبلغكَ عَنْ جعفرٍ وأصحابِهِ شىء ؟

قال : « نعمْ ، أُصيبوا هذا اليومَ ! »

قالتْ : ففَلَبنى الحزنُ ، وجعلْتُ أصيحُ ، واجتمعْتُ علىَّ النِّساء ! ثمَّ خرجَ الرَّسولُ وأرسلَ إلينا مَنْ يَفُضُّ مأتمنا[4] .

ثم أنزلَنا فى بيتِهِ ثلاثةَ أيام ضُيوفًا عليه ، نَطْعَمُ ونَشْرَبُ عِنْدَه ، ومازال بنا ، حتَّى خفَّفَ عنَّا بعضَ حُزْنِنا .

---

(١) مصبوغان .
(٢) بكى .
(٣) أفديك بأبى وأمى .
(٤) المأتم : جماعة النساء مطلقا .

جعفر الطيار

وبعد شهرٍ أقبلَ خالدٌ بالجيشِ قافلاً[١] ، فلمّا دنَوْا مِنَ المدينةِ تلقّاهُمْ رَسُولُ اللهِ والمُسْلمونَ ، ولقيَهُمُ الصِّبْيانُ يَشْتَدُّونَ[٢] ، ورَسُولُ اللهِ مُقْبِلٌ مع القومِ على دابّتِهِ .

فقالَ : « خُذوا الصِّبيانَ فاحْمِلُوهُمْ[٣] ، وأعْطُونِي ابْنَ جَعْفرٍ » فأُتِيَ بعبدِ اللهِ بْنِ جعفرٍ ، فأخذَهُ وحَمَلَهُ بين يَدَيْه .

وجعلَ النّاسُ يَحْثُونَ على الجيشِ التُّرابَ[٤] ! ويَقُولُونَ :

يا فُرّارُ ! فَرَرْتُمْ فى سَبيلِ اللهِ ، مِنْ أجلِ اللهِ[٥] !

فيَقُولُ الرَّسولُ : « لَيْسُوا بالفُرّارِ ، ولَكِنَّهُمُ الكُرّارُ[٦] إنْ شاءَ اللهُ تعالَى ! »

* * *

قالَتْ « أُمُّ سَلَمَةَ » زَوْجُ الرَّسولِ لامْرأةٍ وَلَدِها :

مالِي لا أرَى « سَلَمَةَ » يَحْضُرُ الصَّلاةَ معَ رسولِ اللهِ ، ومَعَ المسلمينَ ؟

قالَتْ : واللهِ ما يَسْتَطِيعُ أنْ يَخْرُجَ ! كُلّما خَرَجَ صاحَ بِهِ النّاسُ : يا فُرّارُ ! فذَلَّ فى سبيلِ اللهِ ، حَتَّى قَعَدَ فى بَيْتِهِ ، فَما يَخْرُجُ مِنْهُ ! .

---

(١) راجعا . (٢) يجرون . (٣) احملوهم على دوابكم رحمة بهم .
(٤) يثيرون التراب فى وجهه غضبا عليه . (٥) هربتم من الموت فى الجهاد .
(٦) الراجعون للجهاد .

وغاظ قريشًا أن ظهر المسلمون على «يهود»، وفتحوا «خيبر» ذات الحصون المنيعة التي تستعصي على العرب أجمعين، ونالوا منها خيراتها، وكنوزها، وأسلحتها، وحشروا أن يتسلطوا كذلك على قبائل العرب، ويكون لهم ملك كبير، فلا يعودوا قلة ضعافًا، فحقدوا عليهم، ونقضوا ميثاق «الحديبية»، الذي عقدوه بينهم، بأن أعانوا حلفاءهم على «خزاعة» حلفاء المسلمين، فقتلوا منهم وشردوهم.

وجاءت خزاعة إلى الرسول تستنصره[1]، وتبلغه ما كان من قريش، إذ خفرت ذمته[2]، ونقضت عهده، فأنشد شاعرهم بين يديه:

إن قريشًا أخلفوك الموعدا[3]
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا[4]
وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا[5]
وقتلونا ركعًا وسجدا!
فانصر هداك الله نصرًا أبدا[6]

---

(١) تسأله أن ينصرها. (٢) نقضت عهده. (٣) العهد والميثاق.
(٤) زعموا أنكم ضعاف. (٥) أغاروا علينا ليلا ونحن في الوتير (اسم مكان).
(٦) نصرا دائما.

ونظرَ إلى الرَّسولِ ، ماذا يقولُ ؟

فقال : « نُصِرْتَ يا عَمْرَو بْنَ سالِمٍ ! » .

فقرَّتْ عَيْنُ الرَّجلِ[١] ، ورجعَ إلى قَوْمِهِ يُخْبِرُهُمْ بما قالَ الرَّسولُ .

وأدْرَكَتْ قُرَيْشٌ ما فعلَتْ ، وخَشِيَتْ أنْ يَطِيرَ الخبرُ إلى المُسْلِمينَ ، فأرْسَلُوا زَعِيمَهم « أبا سُفْيانَ بْنَ حَرْبٍ » لِيَشُدَّ[٢] العَقْدَ الذى بَيْنَهم ، ويَزِيدَ فى مُدَّتِهِ .

فسارَ أبُو سُفْيانَ حتَّى قدِمَ المَدِينةَ على ابْنَتِهِ « أُمِّ حَبِيبَةَ » زَوْجِ رَسُولِ اللهِ .

فلما ذهبَ ليَجْلِسَ على فِراشِ الرَّسولِ ، طوَتْهُ عَنْه !

فقال لها : أرَغِبْتِ بِى عَنْ هذا الفِراشِ ، أمْ رَغِبْتِ بِهِ عَنِّى[٣] ؟

قالَتْ : هُوَ فِراشُ النَّبِىِّ ، وأنْتَ رجلٌ مُشْرِكٌ نَجِسٌ[٤] .

قال : واللهِ لقَدْ أصابَكِ بَعْدِى يا بُنَيَّةُ شَرٌّ[٥] !.

وجاءَ إلى النبىِّ صلى الله عليه وسلم فى المسجدِ ، وأخذَ يكلِّمه فلا يَرُدُّ عليه ، ويَسْتَشْفِعُ بخاصَّتِه ، فلا يَجِدُ شَفِيعاً يَشْفَعُ له ؛ فرجعَ إلى قومِهِ خائباً حزيناً ! .

ثمَّ تجهَّزَ الرسولُ لِلْقتالِ ، واستَنْفَرَ[٦] الأعْرابَ من حَوْلِ المدينة ؛ ولا يَعْلَمُ

---

(١) فرح . (٢) ليؤكد المعاهدة . (٣) أوجدتنى أعظم من أن أجلس عليه أم العكس .
(٤) لأن الكفر نجس . (٥) ما كنت كذلك وأنت عندى .
(٦) طلبها للخروج معه للجهاد .

أحدٌ أينَ يريدُ، حتى تجمَّعَ للمسلمينَ جيشٌ لجبٌ، فى عشرةِ آلافِ رجلٍ! فسارَ بهمْ صوبَ مكةَ، ثمَّ أعلنَ لهمْ عزمَه.

أمَّا المهاجرونَ فودُّوا لو كانتْ لهمْ أجنحةٌ يطيرونَ بها، ألمْ يشبُّوا فيها، ويفتحوا أعينَهمْ على أرضِها وسمائِها، ويقضوا فيها أوقاتَ صباهمُ العزيزةَ؟

فلما استوى عودُهمْ[1]، وأشربوا حبَّ الوطنِ[2] أُخرجوا منهُ، فتسلَّلوا منْ «مكة» واحدًا بعدَ واحدٍ، هاربينَ بدينهم. وهاهمْ أولاءِ الآنَ يزحفونَ إليها فى جيشٍ عظيمٍ، تهتزُّ منهُ الجبالُ، وتتلفتُ له الأفلاكُ، ويفتخلعُ له قلبُ العدوِّ!

خرجوا منْ مكةَ ليلاً، ورجعوا إليها نهارًا، تحتَ عينِ الشمسِ المبصرةِ! خرجوا منها ضعافاً إلاَّ من قلوبهم، وعادوا إليها أقوياءَ أعزَّاءَ!.

فهذهِ أسيافُهمْ فى أيمانِهم[3]، ودروعُهم على ظهورِهم وجنوبِهم، تكفلُ لهم أنْ يدخلوا مكةَ فاتحينَ بإذنِ اللهِ.

أجلْ، تلكَ أسيافُهمُ التى نالتْ منْ زعمائِهمْ فى «بدر»، لا تزالُ فيها بقيةٌ تقيمُ الصعرَ[4]، وتصفعُ الأعناقَ!

أمَّا النبىُّ التى ضاقتْ بهِ «مكةُ»، وما ضيَّقها عليهِ إلاَّ الأعداءُ الأشقياءُ، فقدْ ابتسمتْ له اليومَ فى عينِه، وفتحتْ أذرعَها لتستقبلَ سيِّدَها

---

(١) كبروا ونضجوا.
(٢) عرفوا وأدركوا.
(٣) أيديهم اليمنى.
(٤) الكبر والعجب.

فسار إليها مستبشرًا بدين الله أن يظهر فيها[١] ، وكلمة الله[٢] تدوى في مشارقها .

لقد آن للمسجد الحرام أن يتطهر من أصنامه ، ويرجع إلى دينه أيام إبراهيم ، بيت الله وحده لاشريك له ، وآن للأصنام أن تُكب[٣] على وجوهها ، وتُنسف نسفًا[٤] ! وآن للنبي أن يدعو إلى ربه جهارًا بين ربوعها ، بعد أن دعا إليه سرًا .

فمن وقف دونه ، واعترض سبيله ، فهناك سيوف الله ، وهناك عقاب الله !

وآن لقريش أن تتحطم على صخرة الإسلام ، فقد حاولت عشرين عامًا أن تقضي عليه ، وتطفئ نوره ، وأبى الله إلا أن يقضي عليها ، ويطفئها ، ويتم نوره ، ولو كره الكافرون !

* * *

وبينما كنا نسير في طريقنا قابلنا « العباس بن عبد المطلب » مهاجرًا إلينا في أهله ، فبعث الرسول بأهل بيته إلى المدينة ورده معنا .

ولما رأى العباس عددنا وسلاحنا ، وعرف أننا إن وصلنا إلى مكة عنوة[٥] أثخنا فيها[٦] ، وأصبنا أهلها ، أشفق عليها أن تستحل دماؤها ،

---

(١) يعلو وينتصر .
(٢) دعوة الإسلام وهي الشهادة .
(٣) تقلب .
(٤) تحطم وتذرى في الهواء .
(٥) جبرا وقهرا وغلبة .
(٦) قاتلنا وآذينا .

وهي البلدُ الحرام[١]، ووَدَّ لو خرجتْ قريشٌ للرَّسولِ تَسْتَأْمِنُهُ[٢] على أنفُسِها، وتخلعُ عنهُ أصنامَها!

فلمَّا حطَطْنا رِحالَنا ذاتَ مساءٍ عندَ «مَرِّ الظَّهْرانِ[٣]»، وأشعلْنا نيرانَنا تُداعِبُ الهواءَ، وتُنيرُ الصَّحْراءَ، انتطى العباسُ بغلةَ الرَّسولِ وطارَ بها في طريقِ مكَّةَ.

فقالَ العبَّاسُ: جِئْتُ الأَراكَ[٤] لعلِّي أجدُ بعضَ الحطَّابةِ، أو صاحبَ لبنٍ[٥]، أو ذا حاجةٍ، يأتي مكةَ فيُخبِرُهم[٦] بمكانِ رسولِ اللهِ — فقدْ عُمِّيَتْ[٧] أخبارُهُ عليهمْ — ليخرُجوا إليهِ فيَستأمنوهُ، قبلَ أن يدْخُلَها عليهم عَنْوَةً. فواللهِ إنِّي لأسيرُ إليها، وألتمسُ ما خرجتُ له، إذ سمعتُ صوتَ «أبي سفيانَ بنِ حَرْب» و«بُدَيلِ بْنِ وَرْقاء» وهُما يتراجعانِ.

وأبو سفيانَ يقول: ما رأيتُ كاللَّيلةِ نيرانًا قطُّ ولا عسكرًا، فعرَفْتُ صوتَه، فناديتُ: يا أبا حنظلة.

قال: أبو الفضلِ!؟

العبَّاس: نعَمْ.

أبو سُفيانَ: مالَكَ؟ فِداكَ أبي وأمي!

---

(١) يحرم فيها القتال إلا إذا بدأ به الكافرون. (٢) تطلب الأمان.
(٣) موضع بالقرب من مكة. (٤) اسم مكان. والأراك شجر. (٥) راعي إبل.
(٦) يخبر قريشا. (٧) خفيت.

العبّاس : وَيْحَكَ[1] يا أبا سفيانَ ! هذا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في النّاسِ ، واصَبَاحَ قُرَيْشٍ واللهِ[2] !.

أبو سفيان : فما الحيلةُ ؟

العبّاس : واللهِ لَئِنْ ظَفِرَ بِكَ لَيَضْرِبَنَّ عنقَكَ ؛ فارْكَبْ عَلَى عَجُزِ هذِهِ البَغْلَةِ[3] ، حَتَّى آتِيَ بكَ رسولَ اللهِ .

فلمّا أتيتُ بهِ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، دخَل « عمرُ » عليْنا يَقُول :

يا رسولَ اللهِ ، هذا أبو سفيانَ ، قَدْ أمكنَ اللهُ منه بِغَيْرِ عقْدٍ ولا عَهْدٍ[4] ، فدَعْنِي أضْرِبْ عُنُقَه .

قلت : يا رسولَ اللهِ إنى قَدْ أجَرْتُه[5] .

فسكَتَ غَيْرَ طويلٍ ، ثمّ قَالَ : « اذْهَبْ ياعبّاس إلى رَحْلِكَ[6] ، وأْتِنِي بهِ صَبَاحًا » .

فلمّا أصْبَحْنَا ودخَلْنا عَلَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم نَطَقَ بِشهادَةِ الحقِّ ، وأصْبَحَ مِنَ المُسْلِمين !

فقُلتُ لِرسولِ اللهِ : إنَّهُ رجلٌ يُحبُّ الفَخْرَ فاجْعَلْ له ذِكْرًا .

فقال ، دَعْهُ يُنادِي فى قريشٍ : « مَنْ دَخلَ المَسْجِدَ الحرامَ فهو آمِنٌ ، ومَنْ دخلَ دارَ أبى سفيانَ فهو آمِنٌ ، ومَنْ أغْلَقَ عليه بابَه فهو آمِنٌ » .

---

(١) ويل لك ! .
(٢) ماأسوأ صباحها !
(٣) اركب خلفى .
(٤) أمان منا .
(٥) صرت جاراً له أحميه .
(٦) خيمتك .

وَوَقَفْتُ بِأَبِي سُفْيَانَ عِنْدَ مَضِيقِ الوَادِي ، فَوْقَ رَبْوَةٍ[١] مِنَ الأَرْضِ ، تَسْتَعْرِضُ جُيُوشَ المُسْلِمِينَ ، تَزْحَفُ نَحْوَ مَكَّةَ كَتِيبَةً إِثْرَ كَتِيبَةٍ ! فَرَأَى مَا خَلَعَ قَلْبَهُ ! ومَالَ عَلَيَّ يَقُول :

« يَا أَبَا الفَضْلِ ، لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الفَدَاةَ عَظِيماً ! »

فقلت : إِنَّهَا النُّبُوَّةُ[٢] .

أَبُو سُفْيَان : فَنَعَمْ إِذَنْ[٣] .

العباس : النَّجَاءَ[٤] إِلَى قَوْمِكَ .

فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ ، وَأَخَذَ يَصْرُخ :

« يَا مَعْشَرَ قُرَيْش ، هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ بِمَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ[٥] ، فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ » .

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ « هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَة » فَأَخَذَتْ بِلِحْيَتِهِ[٦] ، وقَالَتْ « يَا آلَ غَالِبٍ[٧] ، اقْتُلُوا هَذَا الشَّيْخَ الأَحْمَقَ[٨] ! »

فقال : أَرْسِلِي لِحْيَتِي ، وَأُقْسِمُ لَئِنْ لَمْ تُسْلِمِي أَنْتِ لَتُضْرَبَنَّ عُنُقُكِ ادْخُلِي بَيْتَكِ » . فَتَرَكَتْهُ ، ودَخَلَتْ بَيْتَهَا .

وقالتْ قُرَيْشٌ : قَاتَلَكَ اللهُ ! وما تُغْنِي عَنَّا دَارُكَ[٩] ؟

---

(١) مرتفع . ربوة . (٢) إنه نبي لا ملك . (٣) نعم ، إذن هي النبوة
(٤) الفرار والسرعة . (٥) لا طاقة لكم بقتاله . (٦) أمسكت بها .
(٧) هم قريش أبناء غالب . (٨) تريد زوجها . (٩) تنفعنا .

لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما

قال : « ومَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمِنٌ ، ومَنْ أغلقَ عليه دارَهُ فهو آمِنٌ ! »
فتفرَّقَ الناسُ إلى دُورهم وإلى المسجدِ .

* * *

قال سارحٌ : ودخلْنا مكَّةَ ، فرأيتُ الرَّسُولَ يُطأطِئُ رأسَهُ تواضُعاً لِلّهِ ، حتَّى يكادُ يَمَسُّ رَحْلَه[1] ، شُكْرًا لِلّهِ أنْ صَدَقَه وَعْدَه . ولمَّا اطْمأنَّ قليلاً بها ، جاءَ البَيْتَ الحرامَ ، فطافَ بِهِ سَبْعاً فوقَ راحلَتِه ، واسْتَلَمَ الرُّكنَ بِمِحْجَنٍ[2] في يدِهِ ، ولمَّا قَضَى طَوافَه ، أخذَ بابَ الكعبةِ ، وقدْ استَكَفَّ النّاسُ[3] حولَه في المسجدِ ، فقامَ فيهِمْ وقال :

« . . . لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَه ، لا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدَه ، وَنَصَرَ عَبْدَه ، وَهَزَمَ الأحْزَابَ[4] وَحْدَه .

« يامَعْشَرَ قريش : إنَّ اللهَ قَدْ أذْهَبَ عنكُمْ نَخْوَةَ[5] الجاهِلِيَّةِ ، وَتَعَظُّمَها بالآباءِ . النَّاسُ لِآدمَ ، وآدمُ مِنْ تُرابٍ !.

« يأيُّها النَّاسُ ، إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ » .

« يامَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، ماتَرَوْنَ أنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ »

وسكَتَ قليلاً ، ونَظَرَ القَوْمُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْض ، يَقُولونَ لِأنْفُسِهِمْ :

---

(١) الرحل للبعير كالسرج للحصان .
(٢) بعصا معوجة الطرف .
(٣) أحاطوا به ينظرون إليه .
(٤) كفار العرب واليهود يوم الخندق .
(٥) تعصبهم للآباء والأقارب بغير حق .

ماذا يَفْعلُ الملوكُ إذَا دَخلُوا القُرَى ، وَفتَحُوا البلادَ ، إلاَّ قتلاً وتخريبًا ؟ وماذَا يَفْعَلُ الوَتُورُ[1] إذا تحكَّمَ فى وَاترِهِ ، والمطرودُ إذا تمكَّنَ مِنْ طارِدِه ، وَالضَّعيفُ إذَا تقوَّى على مُؤْذِيهِ ، إلاَّ تنكيلاً وَتعْذيباً ؟

وماذا يَفْعلُ رجلٌ عادَتْهُ قريشٌ جَميعاً ، وَصبَّتْ عليهِ كُلَّ صنُوفِ العُدْوانِ ، حتَّى حرَمَتْهُ الطَّعامَ وَالشَّرابَ ، وَحرَمَتْ قومَهُ لأَجْلِهِ أسبابَ الحياةِ ، ثلاثَ سنينَ متعاقباتٍ[2] ؛ ما يأكلونَ فيها إلاَّ وَرَقَ الشَّجرِ ، كما تأكلُ الأنعامُ ، وما يتساقطُ إليهم مِنْ أيْدِى المُشْفِقينَ ؟

وَإنَّ قُرَيْشًا لتذْكُرُ ذلِكَ جَيِّداً ، وَلكنَّها لا تَوَدُّ الجزاءَ لِنَفْسِها[3] ؛ وَكيْفَ تقضِى عَلَى نَفْسِها بجزاءِ الظُّلْمِ وَالعُدْوانِ ؟

فقالُوا بَعْدَ بُرْهةٍ هامِسينَ ، لا يَرْفَعُونَ رُءوسَهُمْ خَجَلاً وَخِزْيًا :

« لا نَرَى فِيكَ إلاَّ خيْرًا ، أنْتَ أخٌ كَرِيمٌ ، وابْنُ أخٍ كَرِيمٍ ! »

وماذَا يعْمَلُ الرسولُ لِقَوْمِه ، وقَدْ اختارَهُ اللهُ لهُمْ نبيًّا ، ولمْ يَجْعَلْهُ جَبَّاراً شَقِيًّا ؟ أَيْئَسُوا هُمُ الَّذينَ كانُوا يُؤْذُونَهُ ، ويَبْلُغونَ مِنْهُ ما يَشاءونَ ، فإذَا مازَادَ شَرُّهُمْ ، واهْتزَّ لِسانُه بالدُّعاء ، كانَ لهُمْ لا عليْهِم ، فقالَ : « اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِى فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ » !

وَقَدْ كانَ هٰذَا أيَّامَ طُغْيانِهِمْ وَكِبْرِيائِهِمْ ، فكيْفَ بهِمُ الآنَ ، وهُوَ يَراهُمْ

---

(١) القتول له .
(٢) وقت أن حوصر فى شعب بنى هاشم .
(٣) لاتريد جزاء الشر بمثله .

تحت أقدامهم صاغرين[1] ، قد طارت حيثهم ، وزالت دولتهم ، وذهبت ريحهم ؟ وإنهم ينتظرون ما يحكم به عليهم ، ويعلمون فيه ما يطمع الأثيم[2] ، في القاضي الرحيم !

ونظر الرسول لهم ، ووسعت رحمته جهلهم ، فقال يخاطبهم :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء[3] » !

فشاع السرور في وجوههم ، وانقلبوا إليه ، يسلمون على يديه !

* * *

ودخلت قريش في دين الله ، ونادى بلال في المسجد : الله أكبر ، الله أكبر !.

وغشى[4] الظلام وجوه الأصنام ، فحجبت على وجوهها ، وأعانت قريش عليها ! وصاح النبي فيها صيحة الحق : « قل جاء الحق وزهق[5] الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » .

وأصبحت مكة بلدا مؤمنا ، رجع إليها دينها الذي ولد فيها ، رجع فتيا قويا ، وتجددت لها ملة إبراهيم ، وظلت أم القرى ، يحج لها العرب جميعا .

ذلك هو الفتح المبين ! .

---

(١) أذلاء .
(٢) المذنب .
(٣) جمع طليق : وهو غير الأسير .
(٤) غطى .
(٥) اضمحل وضعف .

وَلَمَّا تَمَّ الفتحُ ، وقفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على « الصَّفَا[1] » يَدْعُو اللهَ ويشكرُهُ أنْ هَدَى قومَه بَعْدَ ضلالٍ ، وَرَدَّهُ إلى بَلَدِه بَعْدَ فِراقٍ !

وَجَعَلَ يُجِيلُ[2] بِعَيْنَيْهِ فى مكةَ فيرَى النُّورَ قد عادَ إليها ، ويرَى المسجدَ الحرامَ يتضوأُ[3] هُدًى ، ويُشِعُّ بِرًّا وإيمانًا ، فينخفضُ رأسُه لله ، ويزدادُ دُعاءً وشُكْرًا .

وأحْدَقَ[4] بِهِ الأنصارُ ، يَلْحَظُونَ ما يَرْتَسِمُ على وجهِ نَبِيِّهِم مِنَ المشاعرِ النَّبيلةِ ، وما يَسْرِى فى نَفْسِه مِنَ الفرحِ والسُّرُورِ ، فتهامَسُوا قائلينَ : « أتَرَوْنَ رَسُولَ اللهِ إذْ فتحَ اللهُ عليهِ أرْضَهُ وبلدَهُ يُقِيمُ بها ؟ »

ومرَّتْ عليهم لَحْظَةٌ قاسيةٌ ، إذْ خَشُوا أنْ يَرْجِعُوا بدُونِه إلى بَلَدِهِمْ فلا تَطِيبُ لهم الحياةُ بَعْدَ أن عرَفُوه وصَحِبُوه ، فتُصْبِحُ المدينةُ غيرَ المَدِينةِ !

ولحظَ الرَّسولُ ما كانَ مِنْ تَهامُسِهِمْ ، فلمَّا فَرَغَ من دُعائِه ، سألَهُمْ عمَّا يَقُولونَ ، فتَمَنَّعُوا قليلاً ، ثم أجابُوه بِمَا فى أنْفُسِهِمْ ، فتبسَّمَ وقالَ لَهُمْ : « مَعاذَ اللهِ[5] ! المَحْيَا مَحْيَاكُمْ ، والمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ ! »

---

(١) جبل بخارج مكة .
(٢) يدير .
(٣) يبسط .
(٤) أحاط .
(٥) أعوذ بالله من هذا .

ومَكثْنا فى « مكةَ » زُهاءَ شَهْرٍ ، جِيرانَ حَرَمِ اللهِ وبَيْتِهِ المُطَهَّرِ ، ثمَّ سَمِعْنا أنَّ قبائلَ مِنْ « هَوازِنَ وثَقِيف » تَسْتَعِدُّ لِحَرْبِنا .

فنَهَضْنا إليها ، وأخَذْنا نَخْتَرِمُ شِعابَ الجِبالِ[1] فى طَرِيقِنا إليْها ، مُعْجَبِينَ بكَثْرَتِنا ، فلمَّا استَقْبَلْنا وادِى « حُنَيْنٍ » انحَدَرْنا فى واد مِنْ أوْدِيةِ « تِهامَةَ » أجْوَفَ ذِى خُطوطٍ ، وأخَذْنا نَنْحَدِرُ فيهِ انحِدارًا ، وكُنَّا فى عَمايَةِ[2] الصُّبْحِ ، وكانَ القومُ قدْ سَبَقُونا إلى الْوادِى ، فكَمِنُوا لنا فى شِعابِهِ وأحْنائِهِ[3] ومَضايِقِهِ ، وقَدِ اجْتَمَعُوا وتَهَيَّئُوا لنا وأعَدُّوا .

فوَاللهِ ما راعَنا ونَحْنُ مُنْحَطُّونَ إلاَّ الكَتائِبُ[4] قَدْ شَدُّوا عَلَيْنا[5] شَدَّةَ رَجُلٍ واحِدٍ ، وكانُوا رُماةً ، فانْطَلَقَ النَّاسُ مِنَّا راجِعِينَ ، لا يَلْوِى[6] أحَدٌ على أحَدٍ !

وانحازَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم ذاتَ الْيَمِينِ ثابِتًا فى مكانِهِ ، لم يَثْبُتْ مَعَهُ إلاَّ عَمُّهُ العَبَّاسُ وابْنُهُ الفَضْلُ ، وعلىٌّ وأبو سُفيانَ بنُ الحارِثِ ابنا عَمِّهِ ، وأبُو بكرٍ وعمرُ ، وأُسامَةُ بنُ زيدِ بن حارِثَةَ ، فى أُناسٍ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ وأصْحابِهِ لا يَزِيدونَ عَنْ مِائَةٍ !

---

(١) نخترق طرقها . (٢) ظلام . (٣) منحنياته .
(٤) الفرق . (٥) هجموا . (٦) يقف وينتظر

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم وقدْ رأى الناسَ يَفِرُّونَ :

« إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ ! هَلُمَّ إِلَيَّ ! أَنَا رَسُولُ اللهِ ! أَنَا النبيُّ لا كَذِبْ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِبْ » !

فلاَ مِنْ سَمِيعٍ ولاَ مِنْ مُجِيبٍ ، فقَدْ حَمَلَتِ الإِبِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، واضْطربَ النَّاسُ !.

وشَمِتَ به أَهْلُ مكَّةَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا أَخِيرًا بأَلْسِنَتِهِمْ ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ ، فتحرَّكَ الضِّغْنُ (١) فى نُفُوسِهِمْ .

فقال أَبو سفيانَ بنُ حَرْبٍ : لا تَنْتَهِى هَزِيمَتُهُمْ دُونَ البَحْرِ ! .

وقالَ آخرُ : الآنَ بَطَلَ السِّحْرُ (٢) .

فلَمَّا رأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ الناسَ لَمْ يَعُودوا ، قالَ : « يا عَبَّاسُ اصْرُخْ : « يامَعْشَرَ الأنصارِ ! يا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ ! (٣) » .

فصرَخَ العبَّاسُ . وكانَ جَهُورِىَّ (٤) الصَّوْتِ ، فأَجابُوا : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ (٥) يا رَسُولَ اللهِ !

وَتَراجَعُوا حتَّى إن الرجلَ منهم لَيَثْنِى بَعِيرَهُ فلاَ يَقْدِرُ عَلَى ذلِكَ ، فيَأْخُذُ دِرْعَه فيَقْذِفُها فى عُنُقِه ، ويأْخُذُ سَيْفَهُ وتُرْسَهُ (٦) ، وَيَنْزِلُ عَنْ بَعِيرِهِ ، وَيُخَلِّى سَبِيلَهُ ، ويَقْصِدُ الصَّوْتَ حتَّى ينتهىَ إِلَى رسولِ الله .

---

(١) الحقد . (٢) يزعم سحر النبى .
(٣) شجرة ، بايع الأنصار تحتها النبى على الموت فى موقف من مواقف الجهاد .
(٤) مرتفع . (٥) طاعة لك . (٦) مايتلقى عليه المحارب ضربات السيوف

فأَمَرَهُمُ الرَّسُولُ أَنْ يَصْدُقُوا الحَمْلَةَ[١] عَلَى المُشْرِكِينَ ، فأطاعُوا ، وَقَاتَلُوا ، ورَسولُ اللهِ يَنْظُرُ إلى المعركةِ الدَّائِرَةِ بَيْنَهُمْ ، ويقول : « الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ[٢] ! »

وما هِيَ إلاَّ ساعَةٌ ، حتَّى هَزَمْنَا العَدُوَّ شرَّ هَزِيمةٍ ، وغَنِمْنَا منهم أموالَهم ونِساءهم وأَبْنَاءَهم !

* * *

نَعَمْ ، لقَدْ غَنِمْنَا منهم سِتَّةَ آلافٍ مِنَ الذَّرارِيِّ والنِّساءِ ، وَأَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفَ بعيرٍ ، وأَرْبعينَ أَلْفَ شاةٍ ، وأَرْبَعَةَ آلافِ أُوقيَّةٍ مِنَ الفضةِ !

كلُّ هذا وضَمَمْنَاهُ بَيْنَ يَدَيِ الرَّسولِ ، أَتُرَاها شَفَلَتْهُ و بلغَتْ مِنْ قَلْبِه مَبْلَغا ؟ أَتَرى الدُّنيا تسلَّطتْ عليه بصَفْرائِها و بَيْضائِها[٣] ، كما تتَسَلَّطُ بِفِتْنَتِها عَلَى الْعالَمِينَ ؟ ! أَتُراهُ يَخْتَزِنُ مِنْ هٰذِهِ الأَمْوالِ قُوتَ عامٍ أَوْ أعوامٍ ؟ !

ما فَعَلَ النبيُّ من ذٰلِكَ شَيْئاً ، فَجَمَعَ هٰذِهِ الأَمْوالَ وانْتَظَر « هَوازِنَ » أَنْ يَقْدَمُوا عليه مُسْلِمِينَ مُعْتَذِرِينَ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، فلَمْ يرجعْ أحدٌ إليه .

فأَخَذَ يُقَسِّمُ المالَ ، يُؤَلِّفُ بِهِ القلوبَ[٤] لِدِينِ اللهِ !

فأَغْدَقَ[٥] عَلَى مَنْ ضَعُفَ إسلامُهُمْ يتألَّفُهم ، وَأَجْزَلَ[٥] إلى مَنْ لَمْ يُسْلِموا لِيُحَبِّبَهُمْ فى دِينِ اللهِ .

---

(١) يصبروا على قتالهم ويثبتوا .
(٢) اشتدت الحرب . والوطيس : التنور .
(٣) بذهبها وفضتها .
(٤) يحبب به القلوب .
(٥) فأعطى كثيراً .

فأعطى « أبا سُفيانَ بْنَ حَرْبٍ » ـ الذى لا يرى المِزَّةَ إلاَّ فى الغِنى ـ أربعين أُوقيَّةً مِنَ المالِ ، ومائةً مِنَ الإبلِ وكذلكَ أعطى ولَدَيْه « مُعاوِيةَ ويَزِيدَ » !

وأعطى « حَكِيمَ بْنَ حِزامٍ » مِثْلَ أبى سُفيانَ ، فاستزادَه[1] ، فأعطاهُ مِثْلَها ، ثمّ استزادَهُ فأعطاهُ مِثْلَها !

وقال : « ياحَكِيمُ ، إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ[2] ، فمَنْ أخذَهُ بِسَخاوَةِ[3] نفسٍ بُورِكَ فيهِ ، ومَنْ أخذَهُ بإشْرافِ نَفْسٍ[4] لَمْ يُبارَكْ لهُ فيهِ ، وكانَ كالذى يأْكُلُ ولا يَشْبَعُ ! واليدُ العُلْيا[5] خَيْرٌ مِنَ اليدِ السُّفْلَى[6] ! » .

فأخذَ حكيمٌ : المائةَ الأُولَى ، وتركَ ماعَداها .

ثمّ قالَ : « واللهِ الذى بَعَثَكَ بالحَقِّ ، لا أَرْزَأُ[7] أحدًا بَعْدَكَ شَيْئًا ، حَتَّى أُفارِقَ الدُّنْيا ! » .

فكانَ الخُلَفاءُ بَعْدَ رسولِ اللهِ ، يَعْرِضُونَ عليه العَطاءَ الذى يَسْتَحِقُّه مِنْ بيتِ المالِ ، فلا يأْخُذُه ويقولُ :

عاهَدْتُ الرَّسُولَ ، وَلاَ أَخْفِرُ[8] بِعَهْدِى !

وأعطى الرَّسولُ « صَفْوانَ بْنَ أُمَيَّةَ » ـ وكانَ على كُفْرِهِ ـ شِعْبًا[9] مَمْلوءًا إبِلاً وَغنَماً ، رآهُ يَنظُرُ إليهِ ، فقالَ له النبىّ :

« هَلْ يُعْجِبُكَ هٰذا » ؟ قالَ : نَعَمْ .

---

(١) طلب الزيادة .
(٢) كالبقلة الخضرة الحلوة .
(٣) بسماحة ، وتعفف
(٤) بطمع وحرص .
(٥) التى تعطى .
(٦) التى تأخذ .
(٧) لا أصيب ، وأسأل .
(٨) لا أخون .
(٩) طريقا بين جبلين .

قال النبيّ : « هُوَ لَكَ » .

قال صفوانُ : ماطَيِّبٌ بِمِثْلِ هٰذا نَفْسُ أَحَدٍ ، وكانَ هذا سببَ إسلامِهِ .

* * *

ولمّا رأى جُفاةُ الأعرابِ ما فعلَهُ الرّسولُ بالغنائمِ ، اجْتَمَعُوا عليْهِ ، وصارُوا يقولونَ لَهُ : اقْسِمْ علينَا . حَتّى أَلْجَئُوهُ إلى شجرَةٍ ، فخطِفَتْ رِداءَهُ[1] ، فقالَ :

« رُدُّوا رِدائِي أَيُّهَا النّاسُ ، فوَاللهِ إنْ كانَ لِي شَجَرُ تِهامَةَ[2] نَعَمًا[3] لَقَسَمْتُهُ عليكمْ ، ثمّ ما أَلْفَيْتُمُونِي[4] بَخِيلاً ، ولا جَبانًا ، ولا كَذُوداً»[5] .

ثمّ قامَ إلى بَعِيرِهِ ، وأَخَذَ وَبَرَةً مِنْ سَنامِهِ ، وقالَ :

« أَيُّها النّاسُ ، واللهِ مَالِي مِنْ غَنِيمَتِكُمْ ولا هٰذِهِ الوَبَرَةُ ! إلاّ الخُمُسَ[6] والخُمُسُ مَرْدُودٌ عليكمْ ، فأَدُّوا الخِياطَ والمِخْيَطَ[7] ، فإنّ الغُلُولَ[8] يكونُ على أَهْلِهِ عارًا وشَنارًا[9] يومَ القِيامةِ ! »

فصارَ كلُّ مَنْ أخذَ شيئاً منَ الغنائمِ خِلْسَةً يردُّه وإنْ كانَ زهيداً ، ثمّ شَرَعَ الرّسُولُ يَقْسِمُ الأَموالَ ، فأصابَ الرّاجِلَ[10] أَرْبعةٌ مِنَ الإبلِ وأَرْبعونَ شاةً ، والفارِسَ ثلاثةُ أَمْثالِ ذٰلِكَ .

---

(١) ثوبه . (٢) شرقي الحجاز مما يلي البحر . (٣) إبلا .
(٤) وجدتموني . (٥) معطيا بمشقة . (٦) حق الله والرسول من المغنم .
(٧) الخيط والإبرة . أي أتفه شيء . (٨) الخيانة ، والاختلاس . (٩) عيبا .
(١٠) الواحد من المشاة .

فقالَ رجلٌ من المنافقينَ : هٰذِهِ قِسْمَةٌ ما أُرِيدَ بها وَجْهُ اللهِ !

فَغَضِبَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حتّى احمرَّ وَجْهُهُ وقالَ : « وَيْحَكَ ! مَنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ أَعْدِلْ » .

فقالَ عُمَرُ وخالِدٌ : دَعْنا يا رَسولَ اللهِ نَضْرِبْ عُنُقَهُ !

فقال : « لاَ ، لعَلَّهُ أَنْ يكونَ يُصَلِّي ! »

قال خالد : وكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلسانِهِ ما لَيْسَ فى قَلْبِهِ

فقال النبيّ : « إنِّى لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنقُبَ[1] عن قُلوبِ النَّاسِ ، ولاَ أَنْ أَشُقَّ عَنْ بُطونِهِم ! » .

* * *

ولَمَّا أَعْطى رَسولُ اللهِ تِلْكَ العَطايَا لِقُرَيْشٍ وقَبائِلِ العربِ ، وتركَ الأَنْصارَ ، غَضِبَ بَعْضُهم وقالُوا :

« إنَّ هٰذا لَهُوَ العَجَبُ ! يُعْطِي قريشاً ويَتْرُكُنَا ، وسُيُوفُنا تَقْطُرُ[2] مِنْ دِمائِهِمْ ؟ ! » .

فدخَلَ عليْهِ « سَعْدُ بن عُبادَةَ » سَيِّدُ الخَزْرَجِ ، فقالَ : يا رَسُولَ اللهِ ، إنَّ هذا الحَيَّ[3] مِنَ الأَنْصارِ ، قَدْ وَجَدُوا[4] عليْكَ فى أَنْفُسِهِمْ ، لِمَا صَنَعْتَ فى هٰذَا المَغْنَمِ الَّذِى أَصَبْتَ ! .

قال : « وأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذٰلِكَ يا سَعْد[5] ؟ »

---

(١) أفتش . (٢) تسيل دما من قتلهم (٣) القوم والقبيلة .
(٤) غضبوا . (٥) ماموقفك ؟ .

سعد : يا رَسُولَ اللهِ ، مَا أَنَا إِلاَّ مِنْ قَوْمِي .

النبي : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هٰذِهِ الْحَظِيرَةِ .

فَلَمَّا اجتمعَ الأَنْصارُ ، أتاهُمْ رسولُ اللهِ ، فحمِدَ اللهَ وأَثْنَى عليه ، ثم قالَ : « يامَعْشَرَ الأَنْصارِ ، ما مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنكُمْ ؟ ومَوْجِدَةٌ[1] وَجَدْتُمُوهَا عَلَيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ ؟ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً ، فهداكُمُ اللهُ بِي ؟ وعَالَةً[2] ، فأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي ؟ وَأَعْداءً ، فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قلوبِكُمْ بِي ؟

قالوا : بَلَى ! اللهُ وَرَسُولُه أَمَنُّ[3] وأَفْضَلُ .

قال : أَلاَ تُجيبونَ يا مَعْشَرَ الأَنْصارِ ؟

قالوا : بِمَاذَا نُجِيبُكَ يا رسولَ الله ؟

قال : أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَصَدَقْتُمْ : أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فصَدَّقْنَاكَ ، ومَخْذُولاً[4] فنَصَرْنَاكَ ، وطَرِيدًا فآوَيْنَاكَ[5] ، وعَائِلاً فآسَيْنَاكَ[6] !

أَوَجَدْتُمْ[7] يا مَعْشَرَ الأَنْصارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ[8] من الدُّنْيا ، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ[9] إِلَى إِسْلاَمِكُمُ الثَّابِتِ الَّذِي لاَ يُزَلْزَلُ ! ؟ أَلاَ تَرْضَوْنَ يا مَعْشَرَ الأَنْصارِ ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والْبَعِيرِ ، وتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إِلَى رِحَالِكُمْ ؟

فَوالَّذِي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ ، لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصارِ !

---

(١) غضب .
(٢) فقراء .
(٣) أكثر فضلا .
(٤) مهزوما ومغلوبا .
(٥) أسكناك .
(٦) ساعدناك .
(٧) أغضبتم .
(٨) شيء يسير .
(٩) تركتكم .

ولَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً[١] ، وسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْباً ، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصارِ !

اللهمَّ ارْحَمِ الأَنْصارَ ، وأَبْناءَ الأَنْصارِ !! » .

فَبَكَى الأَنْصَارُ وارْتَفَعَ نَشِيجُهُمْ[٢] ، حَتَّى بَلُّوا لِحاهُمْ ! ، وقَالُوا :

« رَضِينَا بِكَ يارَسُولَ اللهِ حَظًّا ونَصِيباً ! » .

وأَخَذُوا يَعْتَذِرونَ إليه ، فرَضِيَ عَنْهُمْ ، واسْتَغْفَرَ لَهُمْ .

* * *

وانْطَلَقَ الرسولُ يَتَفَقَّدُ سَبْيَ[٣] هَوازِنَ ، وَإِذَا بامْرَأَةٍ كَهْلَةٍ مِنَ السَّبايَا تُقْبِلُ عليْهِ وتقولُ :

يا مُحَمَّد ، أَدْرِكْ أُخْتَكَ قَبْلَ أَنْ تكونَ مَوْلاةً[٤] لِلنَّاسِ !

— : ومَنْ أَنْتِ يَرْحَمُكِ اللهُ ؟ !

هى : أَمَا تَعْرِفُنِي ؟

— : لَوْ عرفْتُكِ ما سَأَلْتُكِ .

هى : أَنَا الَّتِي قاسَمْتُكَ ثَدْيَ حَلِيمَةَ

— : وَيْحَكِ[٥] ! أَأَنْتِ الشَّيْماء ؟ لقَدْ فرَّقَتْ بَيْنَنا يا أُخَيَّةُ[٦] سِنُونَ طِوالٌ ، أَشابَتِ الصَّغِيرَ ، وَأَفْنَتِ الْكَبِيرَ ! .

---

(١) طريقا . (٢) صوت بكائهم . (٣) يتعرف أسراهم .
(٤) جارية . (٥) رحمة لك . (٦) تصغير أخت .

وتهلل النبيُّ لها ، وحنا عليها ، وبسط لها من ردائه ، وأجلسها عليه ، وقال لها :

إن أحببتِ أن تبقى معي فأنتِ معززة مكرمة ، وإن أحببتِ أن أصلكِ[1] وأردكِ إلى قومك فعلتُ .

قالتْ : واللهِ إنكَ لأبرُّ الوصولُ[2] . خُلُقٌ فيكَ عرفناهُ مُذْ كُنْتَ طِفْلاً ! . الآنَ أسلمُ عليكَ ، وأشهدُ أنكَ رسولُ اللهِ !. وما بي رغبةٌ عنكَ[3] ، ولكنْ أحبُّ أنْ أرجعَ لمنْ بقيَ من أهلي ، ومعي صِلةُ محمدٍ أخي . فلعلَّ قلوبَهُمْ تلينُ ، ولعلَّهُمْ يأتونَ إليكَ مُسْلمينَ .

— : خُذي ما شِئتِ « يا شَيْماء » مِنْ نَعَمٍ وشاءٍ ، وارْجعي إلى قومكِ في رعايةِ اللهِ .

* * *

ثم جاء وفدُ « هوازنَ » في غداةِ يومٍ مُسْلمينَ تائبينَ ، فقال رئيسُهم : « يا رسولَ اللهِ ، إنَّا أصلٌ وعشيرةٌ ، وقدْ أصابَنا من البلاءِ[4] ما لمْ يَخْفَ عليكَ ، فامْنُنْ علينا[5] ، مَنَّ اللهُ عليكَ ! » .

ثم قام آخرُ فقال: « إنما في الحظائرِ[6] عمَّاتُكَ وخالاتُكَ وحواضنُكَ[7] اللاتي كُنَّ يكفُلْنَكَ؛ ولوْ أنَّا مَلَحْنا[8] للحارثِ بنِ أبي شمرٍ[9] ، أوْ للنُّعمانِ

---

(١) أعطيك صلة . (٢) الموصوف بالبر ، وصلة الرحم . (٣) ما أريد فراقك .
(٤) الضر . (٥) تفضل علينا بالعفو . (٦) أماكن السبايا .
(٧) هن أخوات حليمة وأقاربها ، أم النبي من الرضاع ، وزوجها أبيه من الرضاع .
(٨) أرضعنا . (٩) من ملوك الغساسنة بالشام .

ابْنِ المُنْذِرِ[١] ، ثُمَّ نَزَلَ بِنَا بِمِثْلِ الَّذِي نَزَلَتْ بِهِ[٢] ، رَجَوْنَا عَطْفَهُ ، وَعَائِدَتَهُ عَلَيْنَا[٣] ، وَأَنْتَ خَيْرُ المَكْفُولِينَ » .

فقال لَهُمُ النَّبِي :

« إِنَّ أَحَبَّ الحديثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ : إِمَّا السَّبْيَ وَ إِمَّا المَالَ ؛ وَقَدْ كُنْتُ انْتَظَرْتُكُمْ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّكُمْ لا تَقْدَمُونَ » .

فقالوا : ما كُنَّا نَعْدِلُ بِالأَحْسَابِ شَيْئًا[٤] ؛ ارْدُدْ إِلَيْنَا نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا ، فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا ، ولا نَتَكَلَّمُ فِي شَاةٍ وَلا بَعِيرٍ .

فقال : « أَمَّا مَالِي وَلِبَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ فهو لكُمْ ، فَإِذَا أَنَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ ، فقومُوا وقولُوا : نَحْنُ نَسْتَشْفِعُ بِرسولِ اللهِ إِلى المُسْلِمِينَ ، وبالمُسْلِمِينَ إِلى رسولِ اللهِ ، بَعْدَ أَنْ تُظْهِرُوا إِسْلامَكُمْ ، وَتَقُولُوا : نَحْنُ إِخْوَانُكُم فِي الدِّينِ » .

ففعلُوا ، فقالَ عليه السَّلامُ لأَصحابِه :

« أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هؤُلاءِ جاءُوا تَائِبِينَ ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ عليهم سَبْيَهُمْ[٥] ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَطِيبَ بِذلكَ فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ أَحَبَّ منكم أن يكونَ على حَظِّهِ[٦] حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يَفِيءُ[٧] اللهُ علينا فَلْيَفْعَلْ » .

فقالَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ : مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللهِ

---

(١) من ملوك الحيرة بالعراق .
(٢) غلبنا على أمرنا مثلك .
(٣) عفوه عنا .
(٤) أهلنا وشرفنا أفضل .
(٥) أسراهم .
(٦) نصيبه .
(٧) يعطينا من المغنم .

وامْتَنَعَ عنْ ذٰلِكَ جماعةٌ مِنَ الأَعْرابِ ، فأخذَهُ الرّسولُ منهم قَرْضا ، وَرَدَّ السَّبايا إلى أَهْلِيهِمْ .

* * *

وسأَلَهُمُ الرسولُ عن سَيِّدِ هَوازِنَ « مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ » . فقالُوا : هَرَبَ مَعَ ثَقِيفٍ .

فقال الرسولُ : أَخْبِرُوهُ أَنَّهُ إِنْ جاءَنِي مُسلِمًا ، رَدَدْتُ عليه أَهْلَهُ وَمالَه ، وأَعْطَيْتُهُ مِائَةً مِنَ الإِبلِ .

فلمّا بلغَ ذلك «مالِكًا» جاء النبيَّ مسلماً ، فرضيَ عنه الرسولُ ، وَأَعْطَاهُ وأَغْنَاهُ ، واسْتَعْمَلَه عَلَى مَنْ أسلمَ مِنْ قومِه .

قال سارح : ثم انْطَلَقْنَا راجِعِينَ إِلى المدينةِ .

وما أسْلَمَتْ قريشٌ وانهارَتْ أصْنَامُهَا ، حَتَّى تَدَاعَتْ[١] أوْثانُ العربِ فى كل صُقْعٍ[٢] ، وَتَلَفَّتَتِ القبائلُ إلى هٰذا الدِّينِ ، وجاءتِ الرَّسولَ من كل فَجٍّ عَمِيقٍ ، تُسْلِمُ على يَدَىْ صاحبِه .

فكُنَّا نرَى وُفُودَ العربِ تَفِدُ[٣] إلَيْنَا فى المدينةِ صَبَاحاً ومَسَاءً ، وَكأنَّهُمْ يَفِدُونَ لِلْمَوْسِمِ[٤] ، يَقْدَمونَ عَلَى الرَّسولِ ، فَيُعَلِّمُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ[٥] ، وَيَمْسَحُ جَهَالَتَهم ، وَيُبَدِّدُ بِنُورِهِ ضَلَالَتَهُمْ ، ثمَّ يَنْقَلِبُونَ إلى قَوْمِهِمْ مَصَابِيحَ هُدًى ، وَدُعَاةَ إيمانٍ .

وتوَالَتْ الوُفودُ مِنْ طُولِ الجزيرةِ وعَرْضِهَا ، ودخلَ فى هٰذا الدِّينِ مَنْ وَقَفَ يَتَصدَّى[٦] له زَمَاناً ، وكادَ لِصاحِبِهِ كَيْداً .

حَتَّى « ثَقِيفٌ » جاءَ زَعِيمُهم « عَبْدُ يالِيل » فى قَوْمِهِ لِيُسْلِمَ على يَدَيْهِ ! ذٰلِكَ الذى ذَهبَ إلَيْهِ الرَّسولُ بدِينِهِ ، يَحْمِلُهُ له فى دارِهِ فأبَاهُ ، وَأغْرَى به السُّفَهَاءَ ، ونالَ منه ما نالَ الأعْداءُ! .

جاءَ ذلك الرَّجُلُ بعْدَ أنْ فتح اللهُ على محمدٍ ، يَسْتَغْفِرُ ذَنْبَهُ ويَعْتَذِرُ ، ويَتُوبُ إلى اللهِ وَيَتُوبُ . ورَجَعَ من المدينةِ هِدَايةً لِقَوْمِهِ ، فآمَنُوا بإيمانِه .

---

(١) تساقطت . (٢) جهة . (٣) تجيء .
(٤) لأيام الحج . (٥) يطهرهم . (٦) يتعرض .

وكانَ الرسولُ مِثالاً مِنَ المحبَّةِ ، ومِثالاً من الرَّحمةِ مع هذهِ الوُفودِ ، فلا يَنهَهُمْ حتَّى تسرَّبَ إلى نفوسِهمْ الجامدةِ الجافيةِ[١] ، فغسَلَها منْ أدرانِ[٢] الشِّركِ ونقَّاها ، وما زالَ بهمْ حتَّى ارْتضَوْا دينَ اللهِ ، وخلعُوا عنهُمْ شهواتِهمْ الَّتى شبُّوا وشابُوا عليها .

ولقدْ كانَ يعرِفُ ما يَغلِبُ على هذهِ الأُممِ منْ رِجسِ[٣] الجاهليَّةِ ، فيبدأُ بأنْ يُطهِّرَهُمْ منها ويُزكِّيهِمْ ، ممَّا يشهدُ له بسعةِ العِلْمِ ، والقُدْرةِ الكاملةِ على التَّربيةِ والتَّهذيبِ ، وإحاطتِهِ بأدْواءِ[٤] النَّاسِ ، والتَّرفُّقِ بعِلاجِهِمْ فى أناةٍ[٥] وحِلْمٍ .

وإلاَّ فما بالُكَ بمُعلِّمٍ واحدٍ ، تتقلَّبُ بينَ يديْهِ ، أُممُ العربِ جميعاً ، وقدْ تمزَّقتْ أهْواؤهم[٦] ، وتباينَتْ[٧] طبائعُهُمْ ، فيقولُ لهم ، ويسمعُونَ منْه ، ثم يَصْدُرونَ عنه[٨] جميعاً راضينَ بقوْلِهِ ، مُطْمئنِّينَ لفعْلِهِ ؟

« ذلكَ فضْلُ اللهِ ، يُؤتيهِ مَنْ يشاء » .

* * *

وجلَسْنا صباحَ يومٍ إلى رسولِ اللهِ فى المسجدِ ، فقالَ لنا :

« سيَطْلُعُ عليكمْ من هاهُنا رَكْبٌ[٩] هُمْ خيْرُ أهْلِ المَشْرِقِ ،

---

(١) الغليظة .
(٢) أدناس .
(٣) نجس .
(٤) بأمراض .
(٥) تأن .
(٦) ميولهم .
(٧) اختلفت .
(٨) يرجعون .
(٩) راكبو الإبل

يُكَرِّهُوا عَلَى الإِسْلامِ ، قَدْ أَنْضَوْا[1] الرَّكَائِبَ ، وَأَفْنَوُا الزَّادَ . اللهمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ الْقَيْسِ[2] ! » .

فَلَمَّا أَتَوْا وَرَأَوُا الرَّسولَ ، رَمَوْا أَنْفُسَهُمْ عنِ الرَّكائبِ بِبابِ المسجدِ ، وَبَادَرُوا إِلَيْهِ ، يُسْلِمونَ عَلَى يَدَيْهِ .

فقالَ لهم رَسُولُ اللهِ : « مَرْحَباً بالقومِ غَيْرَ خَزَايَا[3] ولا نَدَامَى ! » .

قالُوا : « يا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ[4] بَعِيدةٍ ، وَإِنَّهُ يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هٰذا الحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ[5] ، وإِنَّا لا نَصِلُ إِلَيْكُمْ إِلَّا فِى شَهْرِ حَرَامٍ ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ[6] » .

فقالَ : « آمُرُكُمْ بِالْإِيمانِ باللهِ . أَتَدْرونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وصَوْمُ رَمَضانَ ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ .

وأَنْهَاكُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ[7] ، وَالْحَنْتَمِ[8] ، وَالنَّقِيرِ[9] ، وَالْمُزَفَّتِ[10] ! » .

فقال زَعِيمُهم : يارَسُولَ اللهِ ، إِنَّ أَرْضَنَا ثَقِيلَةٌ وَخِمَةٌ ، وَإِنَّا إِذَا لَمْ نَشْرَبْ هٰذِهِ الأَشْرِبَةَ ، عَظُمَتْ بُطُونُنَا ، فَرَخَّصَ[11] لَنَا فى مِثْلِ هٰذِهِ (وأشار إلى قبضة يده) .

---

(١) أتعبوا . (٢) قبيلة تسكن البحرين بساحل الخليج الفارسى . (٣) الخزى : الخجل.
(٤) مسافة . (٥) يقصدون عرب نجد . (٦) فيه بيان لحدود هذا الدين .
(٧) القرع . (٨) جرار مطلية بطلاء أخضر . (٩) أصل النخلة ينقر .
(١٠) ماطلى بالزفت ، وكل ماسبق آنية للنبيذ . (١١) جوز .

قال : « إنْ رَخَّصْتُ لك فى مِثْلِ هٰذِهِ ، شَرِبْتَ فى مِثْلِ هٰذِهِ (وفَرَّجَ الرَّسولُ مابَيْنَ يديه و بسطهما) ، حَتَّى إذا ثَمِلَ[1] أحَدُكم مِنْ شَرَابِهِ قام إلى ابنِ عمِّهِ فضربَ ساقَه بالسَّيْفِ ! »

قالوا : هذا واللهِ الحقُّ ، و إنَّا لَنَشْهَدُ أنَّك رسولُ اللهِ ، وَأَنَّنا بِكَ مُسْلِمون !

فدَعَا لهُمُ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بخَيْرٍ ، وَرَجَعُوا إلى عَشَائِرِهِمْ مُؤْمِنِينَ .

* * *

وَفِى أَصِيلِ يوْمٍ ، رجَعَ إلينا « عَلِىُّ بنُ أَبى طالب » بِمَغْنَمٍ وَأَسْرَى مِنْ طَيِّئٍ ، وَكانَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم وَجَّهَهُ إلى هُنَاكَ لِهَدْمِ صنمِها ، وَدَعْوَتِهِمْ إلى الإيمانِ ؛ فلمَّا أَبَوْا ذلِكَ حارَبَهُمْ وَهزَمَهُمْ ، واسْتاقَ نَعَمَهُمْ وَشَاءَهُمْ[2] ، وَسَبْيَهُمْ ، وعادَ إلَيْنَا بِشَىْءٍ كثيرٍ .

وكانَ فى السَّبايا امرأَةٌ جَزْلَةٌ[3] جَلِيلَةُ المَنْظرِ ، تَحْسَبُها مِنْ بَناتِ المُلوكِ . تِلْكَ هِىَ : « سَفَّانَةُ ابْنَةُ حاتِمِ الطَّائِىِّ[4] » .

وأُودِعَتِ السَّبايا فى حَظِيرةٍ بِجوارِ بابِ المَسْجِدِ .

فلما نَظَرَتْ سَفَّانَةُ رسولَ اللهِ ، قامَتْ ، وقالَتْ لَهُ :

« يا مُحَمَّدُ ، هلَكَ الوالدُ ، وغَابَ الرَّافِدُ[5] ، فامْنُنْ عَلَىَّ مَنَّ اللهُ عليْكَ ! »

قال : « ومَنْ رَافِدُكِ ؟ »

---

(١) سكر . (٢) غنمهم . (٣) عظيمة .
(٤) السفانة فى اللغة : اللؤلؤة . (٥) الكافل والمعين .

قالت : عَدِيُّ بنُ حاتِم .

قال : « الفارُّ منَ اللهِ ورسولِه » ! . وتَرَكَها ومَضَى .

وفِي اليَوْمِ التَّالِي قامتْ له وقالَتْ ، وزادَتْ :

« يا محمَّدُ ، هلَكَ الوالِدُ ، وغابَ الرَّافِدُ ، فإنْ رأيْتَ أنْ تُخْلِيَ عنِّي ، ولا تُشْمِتَ بِي أحْياءَ(١) العَرَبِ ، فإنَّ أبِي سَيِّدُ قَوْمِه ، كانَ يَفُكُّ العانِيَ(٢) ، ويَحْمِي الذِّمارَ(٣) ، ويُفَرِّجُ عَنِ المَكْروبِ ، ويُطْعِمُ الطَّعامَ ، ويُفْشِي السَّلامَ ، ولَمْ يَطْلُبْ إليهِ طالِبٌ قَطُّ حاجةً فَرَدَّهُ ، أنَا ابْنَةُ حاتِمٍ طَيِّئٍ ! » .

فتأثَّرَ الرسول وقالَ لَها : « يا جارِيَةُ هٰذِهِ صِفَةُ المُؤْمِنِ ، لَوْ كانَ أبُوكِ إسْلامِيًّا لَتَرَحَّمْنا عليْهِ! خَلُّوا عَنْها(٤) ، فإنَّ أباها كانَ يحِبُّ مكارِمَ الأخْلاقِ.

ولٰكِنْ لا تَعْجَلِي بِخُرُوجٍ حَتى تَجِدِي مِنْ قَوْمِكِ مَنْ يكونُ لَكِ ثِقَةً(٥) ، يُبَلِّغُكِ إلى بلادِكِ ، ثمَّ آذِنِينِي(٦) » .

وَبَعْدَ أيَّامٍ رأتْ قَوْمًا من قُضاعَةَ تَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفونَها ، فقالَتْ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : « يامحمَّدُ ، قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِي ، لِي فِيهِمْ ثِقَةٌ وَبَلاغٌ(٧) » .

فكَساها رسولُ اللهِ ، وَحَمَلها على راحِلَةٍ ، وأعطاها نَفَقَةً ، وَسَيَّرَها مُكَرَّمَةً مُعَزَّزَةً !.

فلَمَّا رأتْ ذٰلِكَ منه قالَتْ :

---

(١) قبائل . (٢) الأسير . (٣) مايجب على المرء حمايته .
(٤) أطلقوها حرة . (٥) من تثقين به . (٦) أعلميني .
(٧) يبلغونى لقصدى .

« شَكَرَتْكَ يَدٌ افْتَقَرَتْ بَعْدَ غِنًى[١] ، وَلاَ مَلَكَتْكَ يَدٌ اسْتَغْنَتْ بَعْدَ فَقْرٍ[٢] ، وَأَصَابَ اللهُ بِمَعْرُوفِكَ مَوَاضِعَهُ[٣] ، وَلاَ جَعَلَ لَكَ إِلَى لَئِيمٍ حَاجَةً ، وَلاَسْلَبَ نِعْمَةَ كَرِيمٍ إِلاَّ جَعَلَكَ سَبَباً لِرَدِّهَا عَلَيْهِ! »[٤]

فَسُرَّ النبيُّ بِدُعَائِهَا ، وسأَلَ رَبَّهُ هِدَايَةَ قَوْمِهَا .

* * *

وسارَتْ سَفَّانَةُ إِلَى الشَّامِ ، مُتَّجِهَةً شَطْرَ أَخِيهَا « عَدِيٍّ » .

قالَتْ : وكانَ « عَدِيٌّ » سَيِّدَ طَيِّ ، وكانَ نَصْرَانِيًّا ، ويَسِيرُ فِى قَوْمِهِ بِالمِرْبَاعِ[٥] ، وكانَ أَشَدَّ الناسِ كَرَاهَةً لِمُحَمَّدٍ وَدِينِهِ الجَدِيدِ !

فَلَمَّا سَمِعَ بِغَزْوِ المسلمينَ قَبَائِلَ العَرَبِ ، قال لغُلَامٍ له كانَ رَاعِيًا لإِبِلِهِ : « أَعِدَّ لِي مِنْ إِبِلِي جِمَالاً ذُلُلاً[٦] سِمَاناً ، فَاحْتَبِسْهَا قَرِيباً مِنِّى ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِجَيْشِ مُحَمَّدٍ قَدْ وَطِئَ هٰذِهِ البِلَادَ ، فَآذِنِّى[٧] » .

فأَتَاهُ الغُلَامُ فِى غَدَاةٍ وقالَ :

« يَاعَدِيُّ ، ما كُنْتَ صانِعاً إِذا غَشِيَتْكَ خَيْلُ مُحَمَّدٍ[٨] ، فَاصْنَعْهُ الآنَ ؛ فَإِنِّى قَدْ رَأَيْتُ رَايَاتٍ ، فَسَأَلْتُ عَنْهَا ، فَقِيلَ : هٰذِهِ جُيُوشُ مُحَمَّدٍ ! » !

فقالَ عَدِيٌّ لِلْغُلَامِ : « قَرِّبْ إِلَيَّ أَجْمَالِي » .

---

(١) بعد عز . (٢) اغتنت بعد فقر . (٣) جعل معروفك فى أهله.
(٤) جعلك منقذا للكرام . (٥) يأخذ ربع الغنائم . (٦) سهلة السير .
(٧) فأعلمنى . (٨) خالطتك وجاءتك .

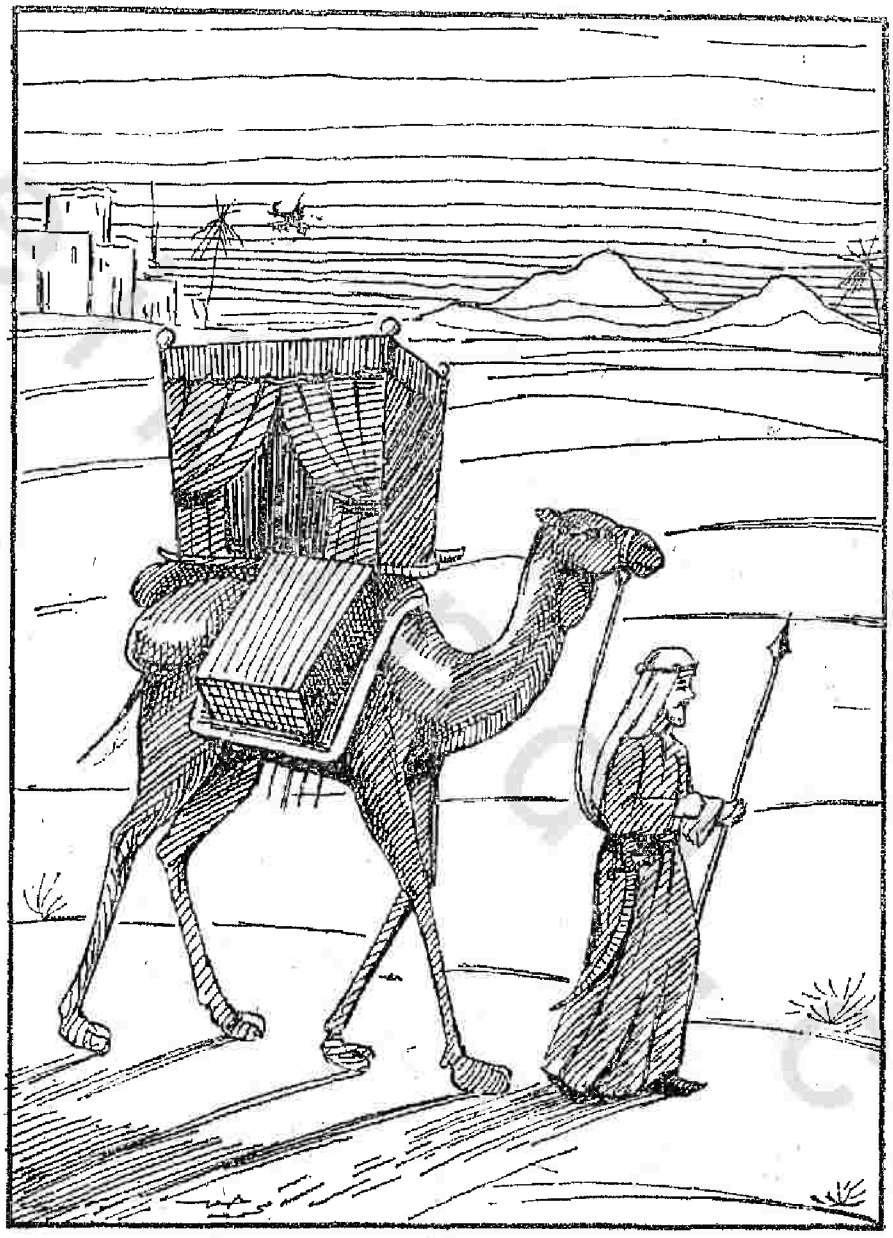

وسارت سفانة إلى الشام

فقرَّبها الغُلامُ منه ، فرَحَلَ بأهْلِهِ وَوَلَدِه ، وقالَ : أَلْحَقُ بأهْلِ دِينِي مِنَ النَّصارَى بالشَّام !

وَأَنْساهُ الهَوْلُ[1] أَنْ يَأْخُذَنِي معه إلى حَيْثُ يَسْتَقِرُّ ! فما هِيَ إلاَّ ساعَةٌ حتَّى وَقَمْتُ أَسِيرَةً لِلْمُسْلِمِينَ !

فلمَّا عُدْتُ إلى «عَدِيٍّ» بالشَّامِ ، وقَصَدْتُ خَيْمَتَهُ ، قامَ يُحَدِّقُ فى الظَّعِينَةِ[2] فلمَّا تَبَيَّنَنِي ، كادَ يَذُوبُ مِنَ الخَجَلِ ! ، وَجَرَى إِلَيَّ يَقولُ : مَرْحَبًا بِابْنَةِ حاتِمٍ !

قلتُ : القاطِعُ[3] الظَّالِمُ ! ، اشْتَمَلْتَ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ ، وتَرَكْتَ عَوْرَتَكَ[4] بَقِيَّةَ والِدِكَ ؟

قالَ : أُخَيَّةُ ، لا تَقُولِي إلاَّ خَيْرًا ، فَوَاللهِ مَالِي مِنْ عُذْرٍ ، لَقَدْ صَنَعْتُ ما ذَكَرْتِ .

فَسَكَتُّ حتَّى سَكَنَ عَنِّى الغَضَبُ ، ثُمَّ قالَ لِي :

يا أُخَيَّةُ ، ماذَا تَرَيْنَ فى هٰذَا الرَّجُلِ ؟

قلت : مَنْ هُو ؟ قالَ : مُحَمَّدٌ .

قلتُ : واللهِ ما رأَيْتُ مِنْه إلاَّ خَيْرًا ، أَرَى وَاللهِ أَنْ تَلْحَقَ بِهِ سَرِيعًا ، فإنْ يَكُنِ الرَّجلُ نَبِيًّا فَلِلسَّابِقِ إِلَيْهِ فَضْلُه ، وَإِنْ يَكُنْ مَلِكًا فَلَنْ تَذِلَّ عِنْدَهُ .

---

(١) الفزع . (٢) المرأة فى الهودج . (٣) قاطع الرحم والقرابة .
(٤) أختك ، والنساء عورة .

قال : هٰذَا وَاللهِ هُوَ الرَّأْيُ . ونَهَضَ إِلَى مُحَمَّدٍ

* * *

قالَ سارح : ودَخَلَ علَيْنَا فى المسجدِ أعْرابىٌّ ، فى هَيْئَةٍ وشَارَةٍ[1] حَسَنَةٍ ، فسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ، وَسَأَلَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟

قالَ : أَنَا عَدِىُّ بْنُ حَاتِمٍ .

فقامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وانْطَلَقَ بِهِ إِلَى بَيْتِهِ ، وبَيْنَ فى طَرِيقِهِ ، إِذْ لَقِيَتْهُ امْرأَةٌ ضَعِيفَةٌ كَبِيرَةُ السِّنِّ ، فاسْتَوْقَفَتْ رسولَ فوقفَ لهـا طَوِيلاً تُكلِّمه فى حَاجَتِها .

فقَالَ عدِىٌّ فى نَفْسِه : وَاللهِ ما هٰذا بِمَلِكٍ .

ثمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ حتَّى دخلَ بيْتَه ، فتَناوَلَ وِسادَةً مِنْ أَدَمٍ[2] ، حَشْوُها لِيفٌ ، فقَذَفَها إِلَى « عَدِىٍّ » ، وَقالَ : اجْلِسْ على هٰذِهِ ، فاسْتَحْيَا « عَدِىٌّ » وقالَ : بَلْ أَنْتَ فَاجْلِسْ عليها .

فقَالَ الرَّسولُ : « بلْ أَنْتَ فاجْلِسْ » .

فَجلسَ « عَدِىٌّ » وقَدْ ملأَتْ هَيْبَةُ الرَّسولِ نَفْسَه ، وَأَكْبَرَ تَواضُعَه ، وتَحقَّقَ فى نَفْسِه أَنَّهُ ليْسَ بِمَلِكٍ ، ولا يُشْبِهُ المُلُوكَ فى شَىْءٍ !.

ثمَّ قَالَ الرسولُ : « إِيهِ[3] يَاعَدِىُّ بْنُ حاتِمٍ ، أَلَمْ تَكُنْ رَكُوسِيًّا[4]

---

(١) هيئة ومنظر . (٢) جلد . (٣) تحدث وزدنى حديثا

(٤) أى بين النصارى والصابئين تأخذ من شريعة هؤلاء وهؤلاء .

قالَ : بلى .

قال الرسولُ : « أَوَ لَمْ تَكُنْ تَسِيرُ فى قَوْمِكَ بالمِرْبَاعِ[1] ؟ »

قالَ : بَلَى !

قال الرسولُ : « فإنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ يَحِلُّ لَكَ فِى دِينِكَ » .

قال عَدِىٌّ : أأنْتَ أعْلَمُ بِدِينِى مِنِّى ؟

قال النبىّ : نَعَمْ .

ثُمَّ عَدَّدَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم لَهُ أشْياءَ يَفْعَلُها اتِّباعًا لِعاداتِ العربِ ، وَلَيْسَتْ مِنْ دِينِ المَسِيحِ فى شَىْءٍ .

فَأَطْرَقَ عدِىٌّ بِرَأْسِهِ ، وَأدْرَكَ أنَّهُ أمَامَ نَبِىٍّ يَعْلَمُ ما يَجْهَلُهُ النَّاسُ .

ثُمَّ قالَ النبىُّ : « يا عَدِىُّ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ . أَسْلِمْ تَسْلَمْ . أَسْلِمْ تَسْلَمْ . يا عَدِىُّ ، إنَّما يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخُولِ فى الدِّينِ ما تَرى !

« تَقُولُ : اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ ، ومَنْ لاَ قُدْرَةَ لَهُمْ ، وَقَدْ رَمَتْهُمُ[2] العَرَبُ ، مَعَ حاجَتِهِمْ . فَوَاللهِ لَيُوشِكَنَّ المالُ أنْ يَفِيضَ فِيهِمْ ، حَتَّى لاَ يُوجَدُ مَنْ يَأْخُذُه !

« وَلَعَلَّكَ إنَّما يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخولِ فيهِ ، ما تَرَى مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ ، وَقِلَّةِ عَدَدِهِم . أتَعْرِفُ الحِيرَةَ[3] ؟

---

(١) تأخذ لنفسك ربع الغنائم .

(٢) نبذتهم

(٣) من مدن العراق .

عدِيّ : لَمْ أَرَها ، وَقَدْ سَمِعتُ بِها .

النبيّ : « فوَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هٰذَا الأَمْرُ ، حَتَّى تَخْرُجَ المَرْأَةُ مِنَ الحِيرَةِ ، تَطُوفُ بِالبَيْتِ (١) ، مِنْ غَيْرِ جِوارِ أَحَد !

« ولَعَلَّكَ إِنَّما يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخولِ فيهِ أَنَّكَ تَرَى المُلْكَ والسُّلْطانَ فى غَيْرِهِمْ !

« وَأَيْمُ اللهِ (٢) لَيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالقُصورِ البِيضِ (٣) مِنْ أَرْضِ بَابِلَ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ !

« يا عَدِيُّ ! أَسْلِمْ تَسْلَمْ ! »

عدِيّ : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رسُولُ اللهِ ! .

* * *

قالَ عدِيّ : ولَقَدْ عِشْتُ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فرَأَيتُ القُصورَ البِيضَ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ قَدْ فُتِحَتْ ، وجاسَتْ خيولُ المسلمينَ فى أَرْضِ فارِسَ ، ورأَيْتُ المَرْأَةَ تَخْرُجُ مِنَ الحِيرَةِ عَلَى بَعِيرِها ، لا تَخَافُ حَتَّى تَحُجَّ البَيْتَ الحرامَ !

وَأَيْمُ اللهِ لَسَوْفَ تَتَحقَّقُ الثَّالِثَةُ ، فَيَفِيضُ المالُ بَيْنَ المسلمينَ حَتَّى لا يُوجَدُ مَنْ يَأْخُذُه ! .

---

(١) الكعبة بمكة . (٢) أصلها : وأيمن الله : جمع يمين . (٣) مدائن كسرى .

قالَ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ : قالَتْ لِي امْرأَتِي مرَّةً لو صَنَعْتَ كَذا وكَذا . . .

قُلْتُ لها : ومَالَكِ أَنْتِ ؟ وما تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُه ؟

قالتْ لِي : عَجَبًا لَكَ يَابْنَ الخطَّابِ . ما تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ ، وإِنَّ ابْنَتَكَ « حَفْصَةَ » لَتُرَاجِعُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ !.

قالَ عمرُ : فأَخَذْتُ رِدَائِي ، ثُمَّ قَصَدْتُ «حَفْصَةَ» فقُلْتُ لها: أَيْ بُنَيَّةُ[1] ، إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ !؟

قالت : وَاللهِ إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ .

قلت : تَعْلَمِينَ أَنِّي أُحَذِّرُكِ عُقُوبَةَ اللهِ ، وغَضَبَ رَسُولِهِ ! يا بُنَيَّةُ ، لا يَغُرَّنَّكِ هٰذِهِ الَّتِي قَدْ أَعْجَبَها حُسْنُها[2] ، وحُبُّ رسولِ اللهِ إِيَّاها !.

ثُمَّ خَرَجْتُ حتَّى دخَلْتُ عَلَى « أُمِّ سَلَمَةَ » زَوْجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لِقَرَابَتِي مِنْهَا فكَلَّمْتُهَا ؛ فقالَتْ لِي أُمُّ سلَمَةَ :

« عَجَبًا لَكَ يابْنَ الخطَّابِ ! قَدْ دَخَلْتَ فِي كلِّ شَيْءٍ ، حَتى تَبْتَغِيَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأَزْوَاجِهِ ؟»

---

(١) يابنتى ، وكانت زوجة الرسول . (٢) يقصد عائشة رضى الله عنها .

فأخذتني أخذًا كسرتني به عن بعض ما كنت أجد .

ثم قلت لها : بالله يا أم سلمة إلا أخبرتني : أتراجع نساء النبي صلى الله عليه وسلم الرسول ويغضبنه ؟

قالت : ويأتمرن به أيضًا[1] !

قلت : ما تقولين ؟

قالت : يكدن له ، ويأتمرن به !

قلت : واعجبا[2] ! وماذا فعلن من ذلك ؟

قالت : تعود الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدور على نسائه بعد صلاة العصر ، فيلبث عند كل واحدة برهة ، فلبث عند زينب في يوم أكثر مما كان يلبث ، فأخذت الغيرة عائشة وحفصة وسائر نسائه .

وقالت عائشة : أيتنا دخل عليها بعد زينب ، فلتقل : إني أجد ريح مغافير[3] !

فدخل على واحدة منهن ؛ فقالت له : أكلت مغافير ؟

قال

قالت : فما هذه الريح ؟ وهي تعلم أن الرسول لا يطيق الرائحة الكريهة .

فقال : سقتني زينب شربة من عسل .

---

(١) يتشاورن ، ويتفقن عليه .
(٢) يا عجبي
(٣) شيء كالصمغ حلو ولكن له رائحة كريهة

قالَتْ : جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ[1] .

وقالَتْ لهُ الثَّانِيَةُ والثَّالِثَةُ مِثلَ ذٰلِكَ ، فَحَرَّمَ رَسُولُ اللهِ العَسَلَ عَلَى نَفْسِهِ !

عمر : أَكَذٰلِكَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِ مَا أَحَلَّ اللهُ ؟ صَدَقَ رَسُولُ اللهِ :

« إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ[2] ! »

وَلٰكِنِّي أَسْأَلُكِ باللهِ ، ماسَبَبُ ذٰلِكَ التَّجَنِّي[3] عَلَى رَسولِ اللهِ ؟

قالت : وَلَدُهُ « إِبْرَاهِيمُ » .

قال عمر : إِنَّهَا الْغَيْرَةُ دَخَلَتْكُنَّ يا أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ .

* * *

كانَ « المُقَوْقِسُ[4] » عَظِيمُ الْقِبْطِ قَدْ أَهْدَى لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم جارِيَتَيْنِ ، فأخذَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم « مَارِيَةَ » وأعْطَى « حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ » شاعرَ الأَنْصارِ أُخْتَهَا « سِيرِينَ » .

وولَدَتْ « مارِيَةُ » للنبيِّ صلى الله عليه وسلم إبْرَاهِيمَ ، فسُرَّ بِهِ رَسولُ اللهِ أَيَّما سُرُورٍ ! فإِنَّ نِسَاءَهُ اللَّاتِي تَزَوَّجَ مِنْهُنَّ لَمْ تُنْجِبْ له فِيهِنَّ غيرُ « خَدِيجَةَ » رَحِمَهَا اللهُ .

وَوَلَدَتْ له خَدِيجَةُ مِنَ الذكورِ : القَاسِمَ وَالطَّاهِرَ[5] وَلَمْ يَلْبَثَا إِلَّا كما يَلْبَثُ الزَّهْرُ النَّاضِرُ ! فَسُرْعانَ ماطَوَاهُما الذُّبُولُ ، وَاسْتَبَقَا إِلى رَبِّهِما !

---

(١) أى رعت نحله شجر العرفط الذى يثمر المغافير .

(٢) اللاتى آذين يوسف بأن أغرين امرأة العزيز بحبه لما قلن فيه : « ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم » . أى إنكن من جنسهن .

(٣) اختلاق الذنب له .

(٤) حاكم مصر .

(٥) ويلقب بالطيب .

وَوَلَدَتْ لَهُ خَدِيجَةُ بَنِيَّاتٍ ، وَاسْتَبَقْنَ إِلَى بَيْنِهِنَّ كَذَلِكَ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى ، فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَلَمْ تَبْقَ لَهُ مِنْهُنَّ إِلَّا « فَاطِمَةُ » زَوْجُ « عَلِيٍّ » .

فَإِذَا مَا رُزِقَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِوَلَدٍ ، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى السِّتِّينَ ، فَإِنَّهُ لَا شَكَّ يَبْعَثُ فِي نَفْسِهِ البَهْجَةَ ، وَيُفِيضُ فِي قَلْبِهِ السُّرُورَ !

وَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَأْخُذُ « إِبْرَاهِيمَ » الطِّفْلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيُنَاغِيهِ (١) وَيَشُمُّهُ وَيَضُمُّهُ ، وَأَعَدَّ لَهُ حَاضِنَةً ، وَأَعْطَاهَا مِنَ الْغَنَمِ مَا تَكْفِي دِرَّتُهُ (٢) لِشِبَعِ ذَلِكَ الطِّفْلِ الْعَزِيزِ .

وَأَفْرَدَ لِأُمِّهِ مَسْكَنًا فِي عَالِيَةِ الْمَدِينَةِ ، وَأَخَذَ يَزُورُهَا فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ ، لِيَطْمَئِنَّ عَلَى طِفْلِهِ ، وَيَسْعَدَ بِرُؤْيَتِهِ .

وَكُلَّمَا رَأَى مَلَامِحَهُ قَدْ تَفَتَّحَتْ ، وَأَسِرَّتَهُ قَدْ أَفْصَحَتْ (٣) ، رَأَى صُورَتَهُ فِي ذَلِكَ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ ، فَازْدَادَ لَهُ حُبًّا ، وَعَلَيْهِ حَنَانًا !

وَرَأَى أَزْوَاجُ الرَّسُولِ ذَلِكَ ، فَلَسَعَتْهُنَّ عَقَارِبُ الْغَيْرَةِ ، وَأَخَذْنَ يَتَآمَرْنَ عَلَيْهِ ، وَيَكِدْنَ لَهُ .

وَوَسِعَهُنَّ خُلُقُ الرَّسُولِ ، فَرَدَّ جَهَالَتَهُنَّ بِحِلْمِهِ ، وَتَسَرُّعَهُنَّ بِرِفْقِهِ ، وَإِسَاءَتَهُنَّ بِإِحْسَانِهِ ! وَلَكِنَّهُنَّ أَوْغَلْنَ (٤) فِي ذَلِكَ وَتَمَادَيْنَ ، حَتَّى وَجَدَ (٥)

---

(١) يناجيه ويحادثه .
(٢) لبنه .
(٣) قسمات وجهه وخطوطه قد وضحت .
(٤) زدن .
(٥) غضب .

عليهنّ الرّسولُ ، فاعتزلهنّ شهرًا ، لا يجلسُ إليهنّ ، ولا يكلّمُ أحدًا في شأنهنّ !.

وذاعتْ بين الناسِ مُغاضبةُ الرّسولِ صلى الله عليه وسلم لنسائِهِ ، وتألّمَ المسلمونَ ، وخشُوا أنْ يكونَ قد طلّقهنّ ، وتعرّضَ أمّهاتُ المؤمنينَ لغضبِ اللهِ ورسولِهِ !.

وكانَ الرّسُولُ يقْضِي في هذهِ الأثناءِ أكثرَ وقتِهِ في خِزانةٍ لهُ ذاتِ مَشْرَبةٍ[1]، لا يصْعَدُ الصّاعِدُ إليها إلاّ على جِذْعِ نخلةٍ ، خشنةِ الدّرَجِ .

وحزِنَ أصحابُ الرّسُولِ لِحُزْنِ نبيّهمْ ، وغضِبُوا لغضبِهِ ، ولكنّهمْ تأدّبُوا أنْ يُخاطِبُوه في أمْرٍ يخُصُّه .

وأهمّ[2] ذلكَ « عمرَ بنَ الخطّابِ » ، وعزّ عليه أنْ يُغضِبَ رسولَ اللهِ أيُّ إنْسانٍ كانَ !

فقامَ مِنَ المسجدِ ذاتَ يومٍ ، وقصدَ خِزانةَ الرّسُولِ ، ونبيُّ اللهِ فيها ، وغُلامُه « رَباحٌ » على عتبتِها .

حتّى إذا جاءَ مِنْ تحتِها نادَى : يا رَباحُ ! اسْتأذِنْ لِي عَلَى رسولِ اللهِ . ولكنّ « رَباحاً » لمْ يقُلْ شيئاً ، فكرّرَ عمرُ النّداءَ ، ورَباحٌ لمْ يُجِبْ مرّةً أخْرَى ، فرفَعَ عمرُ صوْتَهُ قائلاً :

يا رَباحُ ، اسْتأذِنْ لِي عِنْدَكَ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فإنّي

---

(١) غرفة بها موضع يشرب فيه الماء . (٢) أحزن .

أَظُنُّهُ حَسِبَنِي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ « حَفْصَةَ » ، فَوَاللهِ لَئِنْ أَمَرَنِي بِضَرْبِ عُنُقِهَا لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا ! .

وَأَذِنَ لَهُ رسولُ اللهِ، فصَعِدَ عمرُ إلى الخِزانةِ، ودخلَ ، فلمّا جلسَ أجالَ بَصَرَهُ فى الرَّسُولِ وما حَوْلَهُ وَبكى ! .

فقالَ الرَّسولُ : وما يُبْكِيكَ يابنَ الخَطّاب ؟

عمر : ما أَرَاهُ يارَسولَ اللهِ ، إنَّكَ لعَبْدُ اللهِ وحَبِيبُهُ ، وتَعِيشُ فى خِزَانةٍ ليْسَ فِيها إلاّ قَبْضَةٌ (١) مِنْ شَعِيرٍ ، ومِثْلُها مِنْ قَرَظٍ (٢) ، وتَجْلِسُ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَتْ فى جَنْبِكَ ، ولَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ غيرَ ذٰلِكَ .

النبىّ : « كُنْ فِى الدُّنْيَا كأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » .

ثم قال عمر له بعد حديث : يا رسولَ اللهِ ، ما يَشُقُّ عليْكَ (٣) مِنْ أَمْرِ النِّساءِ ؟ إنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فإنَّ اللهَ معَكَ ، وَجِبْرِيلُ وَمِيكائِيلُ وَأَنَا وأَبُو بَكْرٍ (٤) والمُؤْمِنُونَ معَكَ » .

ثمّ أخذَ يُحَدِّثُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم حتَّى تَحَسَّرَ الغَضَبُ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللهِ وضَحِكَ ! فلما رأى عمرُ ذٰلِكَ ، ذَكَرَ لهُ ما شاعَ بيْنَ المسلمينَ فى المسجدِ منْ أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم طلَّقَ نِساءَهُ .

فلَمَّا ذَكَرَ النبىُّ أنَّهُ لَمْ يُطَلِّقْهُنَّ ، اسْتَأْذَنَهُ فى أَنْ يُبَشِّرَ بذٰلِكَ المُسْلِمِينَ ، فأَذِنَ لَهُ .

---

(١) ملء اليد . (٢) ثمر شجر السنط . (٣) مايصعب عليك .
(٤) خص نفسه وأبا بكر لأنهما والدا حفصة وعائشة من أزواجه .

فنادى عمرُ بأعلى صوته : أبشروا أيها المسلمونَ ، إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمْ يُطلّقْ نساءَهُ .

* * *

وبلغَ إبراهيمُ ستّةَ عشرَ شهرًا ، وقدْ نما جسمُهُ ، وزكتْ نفسُه[1] ، وتفتّحتْ زهرتُه ، فأصبحَ قرّةَ عينِ والديْه .

فكانَ الرّسولُ صلى الله عليه وسلم إذا فرغَ منَ القيامِ بأمرِ المسلمينَ ، ذهبَ إليْهِ وناغاهُ وداعبَه ! .

وفي يومٍ مرضَ إبراهيمُ ، فقامتْ أمُّهُ تمرّضُهُ ، ومعَها أختُها «سيرينُ» . ثمّ اشتدّتْ بهِ العلّةُ[2] ، فقصدَ إليهِ الرّسولُ صلى الله عليه وسلم في يومٍ مُعتمدًا على يدِ « عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ » ، فرأى إبراهيمَ في حجرِ أمّهِ يجودُ بنفسِه[3] !

فأخذَهُ منها ، ووضعَهُ على صدرِهِ ، وقدْ ألصقَ كبدَهُ بكبدِهِ ! وجاءتْهُ سكراتُ[4] الموتِ ، فأخذَ الحزنُ يفيضُ في قلبِ رسولِ اللهِ ويطفحُ[5] منه على وجهِهِ الكريمِ ، ويبدُو على قسماتِهِ[6] !

ويقولُ : « إنّا يا إبراهيمُ لا نُغْني عنكَ[7] منَ اللهِ شيئًا ! »

---

(١) نمت ، وطهرت .
(٢) المرض .
(٣) يموت .
(٤) شدة الموت .
(٥) يظهر .
(٦) صفحة وجهه .
(٧) لانستطيع مساعدتك .

ثُمَّ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ[1] حِينَمَا جَادَ إِبْرَاهِيمُ بِنَفْسِهِ ، وَأَصْبَحَ جُثْمَانًا بَارِدًا لَا حَرَاكَ بِهِ ! ، وَصَاحَتْ أُمُّهُ : وا وَلَدَاهُ !

وَتَسَاقَطَتْ دَمَعَاتُ الرسولِ عَلَى خَدِّهِ وقالَ :

« يا إِبْرَاهِيمُ ، لولاَ أَنَّهُ أَمْرٌ حَقٌّ[2] ، وَوَعْدٌ صِدْقٌ ، وأَنَّ آخِرَنَا سَيَلْحَقُ بأَوَّلِنا ، لَحَزِنَّا عَلَيْكَ بِأَشَدَّ مِنْ هٰذَا ! » .

وَلَبِثَ بُرْهَةً ثُمَّ قال :

« تَدْمَعُ العَيْنُ ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ ، ولاَ نَقُولُ إِلاَّ ما يُرْضِي الرَّبَّ[3] ! إِنَّا بِفِراقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ » .

وَخَشِيَ « عبدُ الرحمنِ بْنُ عَوْفٍ » أَنْ يَتَمَكَّنَ الحزنُ مِنْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم و يُخْرِجَهُ عَمَّا عُهِدَ فيه من الحِلْمِ ، فذَكَّره بما نَهَى عَنْهُ المسلمين مِنَ الحزنِ .

فقالَ : « ما عَنِ الْحُزْنِ نَهَيْتُ ، وَإِنَّمَا نَهَيْتُ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ بِالْبُكَاءِ !

وَإِنَّ ما تَرَوْنَ بِي ، أَثَرُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ مَحَبَّةٍ وَرَحْمَةٍ .

وَمَنْ لَمْ يُبْدِ الرَّحْمَةَ ، لَمْ يُبْدِ غَيْرُهُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ ! »

ثُمَّ أَمَرَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم بتَجْهِيزِهِ ، وَحُمِلَ على سَرِيرٍ صَغِيرٍ ، وشَيَّعَهُ النَّبِيُّ وَعَمُّهُ العَبَّاسُ ، وطائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ دُفِنَ ، بَعْدَ أَنْ صَلَّى

---

(١) بكى .
(٢) الموت لابد منه .
(٣) لا نقول قولا يغضب الله ، كما يفعل الجهال فى صراخهم وندبهم .

عليه ، ثم سوّى الرسولُ على قبره بيده ، ورشّ الماء وأعلم عليه بعلامة ، وقال : « إنها لا تضرُّ ولا تنفعُ ، ولكنها تقرُّ[1] عينَ الحيّ ، وإنّ العبدَ إذا عمل عملاً ، أحبّ اللهُ أن يتقنه » .

ووافق موته كسوف الشمس ، فرأى المسلمون في ذلك ما يشبه المعجزة وقالوا : انكسفت الشمسُ لموت إبراهيم !

ولم يستطع رسولُ صلى الله عليه وسلم على ما به من الهمّ ، أن يسكت على تلك القالة[2] الباطلة التي شاعت بين المسلمين .

فدعا الناسَ إلى المسجد ، ووقف يخطبهم على الرغم مما به ، وقال : « إنّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ[3] من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ! فإذا رأيتم ذلك ، ففزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » .

فأزال الرسولُ جهالةَ القوم ، بهذا القولِ الفصل ، ولم يستغلّ ضعفهم وسذاجتهم[4] ، ليزيد في شأنه وشأن ولده ، وإنها النبوّة وكفى !

* * *

ورجع أزواجُ النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد موت إبراهيم عن كيدهنّ ، ودخلهنّ الأسف والمرحمة لرسول الله ، والندم على ما فرط منهنّ ، وعدن إليه تائبات نادمات ، فرضي عنهنّ ، ووسعهنّ خلقه العظيم .

---

(١) تفرح .
(٢) القول والكلمة .
(٣) دليلان باهران على قدرة الله .
(٤) بساطة نفوسهم .

جَلَسَ «عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ» فِي المَسْجِدِ، يَقْرَأُ هٰذِهِ الآيَةَ الكَرِيمَةَ، ويُرَدِّدُهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[1] ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

وكَانَ ابْنُ عَوْفٍ كُلَّمَا انْتَهَى مِنْهَا ، عَادَ فَقَرَأَهَا ، يَتَرَنَّمُ بِهَا ، ويَتَدَبَّرُ مَعْنَاهَا .

فَقَالَ الصَّحَابَةُ : مَا بَالُ ابْنِ عَوْفٍ يُرَدِّدُ هٰذِهِ الآيَةَ لا يَعْدُوهَا ، مَا ذٰلِكَ إِلَّا لِأَمْرٍ ؟

فَدَنَوْا مِنْهُ ، وقَالُوا : يَابْنَ عَوْفٍ ، سَمِعْنَاكَ تُرَدِّدُ هٰذِهِ الآيَةَ لا تَعْدُوهَا ، فَلِمَ ذٰلِكَ ؟

قَالَ : أَجَلْ ، إِنَّهُ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، هٰذَا مَا شَهِدَ بِهِ اللهُ لِنَبِيِّهِ ، وهٰذَا مَا شَهِدْتُهُ بِعَيْنِي لِرَسُولِ اللهِ .

قالوا : ومَاذَا شَهِدْتَ يَابْنَ عَوْفٍ ؟

قَالَ : جَاءَ بِالْأَمْسِ أَعْرَابِيٌّ[2] إِلَى رَسُولِ اللهِ يَطْلُبُ مِنْهُ شَيْئًا ، فَأَعْطَاهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَأَحْسَنْتُ إِلَيْكَ يَا أَعْرَابِيُّ ؟

---

(١) عزيز عليه مشقتكم . (٢) ساكن الصحراء .

فقال الأعرابيّ : لا أحسنتَ ولا أجملتَ[1] !

فغضبتْ لرسولِ اللهِ وغضبَ أصحابُهُ ، وهمّمنا بأنْ نبطشَ بالأعرابيّ[2] ، فكانَ يجزي السيّئةَ بالشرّ ، ولكنّ رسولَ اللهِ أمرَنا أنْ نكفَّ عنه[3] ، فكففنا ، ثمّ أخذَ الأعرابيّ إلى بيتِه وزادَهُ شيئًا .

وقال له : أأحسنتُ إليكَ يا أعرابيُّ ؟

الأعرابيُّ : نعمْ ، فجزاكَ اللهُ مِنْ أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا !.

فقالَ لهُ النبيُّ : « إنّكَ قلتَ ما قلتَ ، وفي نفسِ أصحابي مِنْ ذلكَ شيءٌ ، فإنْ أحببتَ فقلْ بينَ أيديهمْ ما قلتَ الآنَ بينَ يدَيَّ ، حتّى يذهبَ ما في صدورِهمْ عليكَ! » .

قالَ : نعمْ .

وبعدَ ساعةٍ جاءنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم والأعرابيُّ حيثُ كنّا لا نزالُ في مجالسِنا ، ثمّ قال :

« إنّ هذا الأعرابيّ قالَ ما قالَ فزِدْناهُ ، فزعمَ أنّهُ رضيَ . أكذلكَ ؟ » .

الأعرابيُّ : نعمْ ، فجزاكَ اللهُ مِنْ أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا !

فقالَ عليه السلامُ :

« مَثَلي ومَثَلُ هذا ، مثلُ رجلٍ لهُ ناقةٌ شردتْ عليهِ ، فاتبعَها الناسُ ، فلمْ يزيدوها إلاّ نفورًا ؛ فناداهمْ صاحبُها : خلّوا بيني[4] وبينَ ناقتي ، فإني

---

(١) لاصنعت حسنا ولا جميلا .
(٢) نقتله .
(٣) نمنع عنه شرنا .
(٤) اتركوني .

أَرْفَقُ بها مِنْكُمْ وأعلَمُ ؛ فتوسَّدَهَا بَيْنَ يديها ، فأخذَ لها مِنْ قُمَامِ الأَرْضِ (١) فَرَدَّمَهَا ، حتى جاءتْ واستناخَتْ (٢) ، وشدَّ عليها رَحْلَهَا (٣) ، واستوَى عليها (٤) .

وإنِّى لَوْ تَرَكْتُكُمْ حيثُ قالَ الرَّجُلُ ماقالَ فقتلْتُمُوهُ ، دَخَلَ النَّارَ !

قال عبد الرحمن : فهلْ رأيتُمْ مِنْ إنسانٍ مِثْلَ هذِهِ الرَّحمة ؟ إنَّ الرَّسولَ لَمْ يَغْضَبْ أنْ نالَ الأعرابىُّ مِنْه ، ولكنْ كَرِهَ أنْ يَدْخُلَ الأعرابىُّ النَّارَ بِسَبَبِه ، فما زالَ بِهِ حتى هَداهُ إلى سَواءِ السَّبيلِ !

* * *

أبو بكر : وأيُّنَا يُطِيقُ مايُطِيقُ الرَّسُولُ ؟ وأيُّنَا يُجَارِيهِ أو يَلْحَقُهُ فى خُلُقِه ؟

فَرَسُولُ اللهِ يَجُوعُ وَيُطْعِمُ المساكينَ ، وَيُحْمَلُ إليهِ المالُ مِنْ كُلِّ الجهاتِ فلا يُبْقِى لِنَفْسِهِ وَلا لِبَيْتِهِ شَيْئًا ، ويُنْفِقُ مَالَ اللهِ عَلَى عِبَادِ اللهِ !

أمَّا سِيرَتُه فى بَيْتِه ، فقَدْ حَدَّثَتْنى عَائِشَةُ (٥) فقالَتْ :

« لَمْ يَمْتَلِئْ جَوْفُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم شِبَعًا قَطُّ ، وَلَمْ يَبُثَّ (٦) شَكْوَى إلى أَحَدٍ ، وَالْفَاقَةُ (٧) أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْغِنَى .

وإنهُ لَيَظَلُّ جائِعًا يَلْتَوِى طُولَ لَيْلَتِهِ مِنَ الجوعِ ، فَلا يَمْنَعُهُ ذٰلِكَ

---

(١) القمامة : الكناسة . (٢) برك . (٣) ما يجلس عليه الراكب
(٤) جلس . (٥) بنت أبى بكر وزوج الرسول . (٦) يظهر .
(٧) الفقر .

صيـــــامَ يَوْمِه ! ولوْ شاء سَأَلَ رَبَّهُ جَمِيعَ كُنُوزِ الأَرْضِ وثِمارِها ، ورَغَدِ[1] عَيْشِها .

ولقدْ بَكَيْتُ سِرارًا رَحْمَةً له ، ومَسَحْتُ بِيَدِي عَلَى بَطْنِهِ مِمَّا رَأَيْتُ مِنْ جُوعِهِ ، وقُلْتُ له : نَفْسِي لَكَ الفِداء ! لَوْ تَبَلَّغْتَ[2] مِنَ الدُّنْيا ما يُقَوِّيكَ ؟

فيقُولُ : « يا عائِشَةُ ، مالِي وَلِلدُّنْيا ؟ إِخْوانِي مِنْ أُولِي الْعَزْمِ[3] مِنَ الرُّسُلِ ، صَبَرُوا عَلَى ما هُوَ أَشَدُّ مِنْ هٰذا ، فَمَضَوْا عَلَى حالِهِمْ ، فَقَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، فَأَكْرَمَ مَآبَهُمْ ، وأَجْزَلَ ثَوابَهُمْ ! فأَجِدُنِي أَسْتَحِي إِنْ تَرَفَّهْتُ[4] فِي مَعِيشَتِي ، أَنْ يُقَصَّرَ بِي غَدًا دُونَهُمْ . وما مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللُّحُوقِ بِإِخْوانِي وَأَخِلَّائِي » .

وقال : « إِنِّي عُرِضَ عَلَيَّ أَنْ تُجْعَلَ لِي بَطْحاءُ[5] مَكَّةَ ذَهَبًا !

فقُلْتُ : لا يارَبِّ ، أَجُوعُ يَوْمًا ، وأَشْبَعُ يَوْمًا .

فأَمَّا اليَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ ، فأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وأَدْعُوكَ .

وَأَمَّا اليَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فأَحْمَدُكَ وأُثْنِي عَلَيْكَ ! » .

وقالَتْ عائشة : « وإِنَّا آلَ محمدٍ لَنَمْكُثُ شَهْرًا ما نَسْتَوْقِدُ نارًا[6] إِنْ هُوَ إِلَّا التَّمْرُ وَالْماءُ[7] ! »

---

(١) سعة .
(٢) لو اكتفيت بما يمسك رمقك .
(٣) أصحاب العزائم والإرادة .
(٤) اتسعت ، وتحسنت .
(٥) واديها المتسع .
(٦) لانوقد نارا للطبخ .
(٧) طعامنا تمر وماء فقط .

هذا ياقَوْمُ طعامُ النبيِّ فى بَيْته ، فأيُّكمْ يَعيشُ عَلَى مَا يحيَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ؟ ! .

* * *

قال عمر : وأمَّا فَرْشُهُ فحدَّثتنى عَنْهُ حَفْصَةُ[١] فقالَتْ :

« فِراشُ الرسولِ فى بَيْتِهِ مَسْحٌ[٢] نَثْنِيهِ ثَنْيَتَيْنِ ، فينَامُ عليْهِ فَثَنَيْنَاهُ لَيْلَةً بِأَرْبَعٍ[٣] ، فلمَّا أصْبَحَ قالَ : « مَا فَرَشْتُمُولِى اللَّيْلَةَ ؟ »

فَذَكَرْنَا لهُ ذٰلك .

فقالَ : « رُدُّوه بِحالِهِ ، فإنَّ وَطْأَتَهُ[٤] منَعَتْنِى اللَّيْلَةَ صَلاَتِى ! » .

هٰذَا فِرَاشُهُ الوَطِىء ، فكَيْفَ بِفُرُشِ الناسِ التى تَنْفَسِحُ فِيها الأجْسَامُ ؟

أجَلْ ، أيُّنَا يُطِيقُ مَا يُطِيقُ الرَّسولُ ؟ وأيُّنَا يَخَافُ اللهَ كما يَخَافُ الرَّسولُ ؟ فَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ :

« لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ! أرَى مالاَ تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَالا تَسْمَعُونَ !

أطَّتِ السَّماءُ[٥] ، وَحَقَّ لها أنْ تَئِطَّ ! مافِيها مَوْضِعُ أرْبَعِ أصَابِعَ إلاَّ وَفِيهَا مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلهِ[٦] !

---

(١) بنت عمر وزوج الرسول .
(٢) جلد .
(٣) ثنيناه أربع ثنيات .
(٤) لينه .
(٥) صوتت وصاحت من خشية الله .
(٦) « ولله يسجد من فى السموات والأرض »

وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ! وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ(١) تَجْأَرُونَ(٢) إِلَى اللهِ تَعَالَى ! لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ(٣) ! »

فقلتُ له : أتتكلَّفُ هذا(٤) ، وقد غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ ؟

قالَ : « أفلا أكونُ عبدًا شكورًا ؟ ! » .

* * *

وقال أبو هُرَيْرَةَ : ما رأيتُ أحدًا أطيبَ نفسًا مِنْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ولا أشدَّ منهُ تواضُعًا ، فلقد سمعتُهُ يقولُ :

« خُيِّرْتُ بَيْنَ أنْ أكونَ نبيًّا مَلِكًا ، أوْ نبيًّا عبدًا ، فاخْتَرْتُ أنْ أكونَ نبيًّا عبدًا ! » .

وخرجَ الرسولُ علينا مرَّةً مُتوكِّئًا على عصًا ، فقُمْنا لهُ إجْلالاً ، فقالَ لنا :

« لا تقوموا كما تقومُ الأعاجمُ(٥) ، يُعظِّمُ بعضُهم بعضًا ! »

وإنَّهُ ليضعُ طعامَهُ على الأرضِ(٦) ، فيأكلُ ويقولُ : « آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ ! » .

---

(١) الطرق فى الجبال . (٢) تصيحون بالدعاء للغفران

(٣) تكسر وينتهى أمرها لاحساب ولا عقاب . كما يفعل بالناس .

(٤) أتتحمل . (٥) مالبسوا بالعرب . (٦) على سفرة بالأرض لاعلى خوان .

وكان يعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد إذا دعاه ، ويجلس حيثما ينتهي به المجلس ، وليس كذلك أخلاق الناس

ويكره من يطريه ويقول : « لا تطروني[1] كما أطرت النصارى ابن مريم[2] ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله »

ولقد رأيته يحج على رحل رث[3] ، وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم ، وهو يقول : « اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة » .

ودخلت السوق معه مرة ، فاشترى سراويل ، وقال للوزان[4] : زن وأرجح[5] ! ثم قام البائع فوثب إلى يد الرسول يقبلها ، فجذب الرسول يده وقال : « هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم ! »

ثم أخذ السراويل ، فذهبت لأحمله ، فقال : « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله ! »

* * *

قال أنس بن مالك : تحدثتم عما شاهدتم من الرسول في لحظات ، وأما أنا فماذا أقول ، وماذا أدع[6]

ولقد خدمت الرسول صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي : أف[7]

---

(١) لا تمدحوني وتبالغوا . (٢) بالغوا في تعظيمه فجعلوه إلها وابن إله . (٣) بال .
(٤) من يتسلم النقود منه . (٥) استوف حقك كاملا .
(٦) ماذا أترك . (٧) كلمة ضجر ، وهي أخف كلمة يقولها إنسان لخادمه

قط ، وما قال لشيء فعلته : لِمَ فعلته ؟ ولا لشيء تركته : لِمَ تركته ؟

وما انتقم[1] أحد أذن رسول الله ليحادثه فنحى رأسه ، حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه !

وما أخذ أحد بيده فيرسل يده ، حتى يرسلها الآخر ! ولم يره أحد مادًّا رجله بين أصحابه حتى يضيق بها على أحد ، وإنه يبدأ من لقيه بالسلام ، ولا يقطع على أحد حديثه ، حتى يتجوز ، فيقطعه بنهي أو قيام .

* * *

وما وصل الصحابة إلى هذا الموضع من تذكر سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوه مقبلاً على المسجد ، وطلع عليهم بوجهه الكريم ، فسلم وأمسك أصحابه عن الكلام ، ثم جاس بينهم ، وتهيأ للحديث فأنصتوا إلى ما يقول ، وإنها لحكمة الله تهدي من يشاء

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله[2] ... »

ثم سكت قليلاً . فود كل واحد أن يكون أحد السبعة ، وأن له عملاً يجعله في ظل الله يوم القيامة ، ونظرت عيونهم إلى الجنة وهي تدنو منهم شيئاً فشيئاً ... كيف لا يستظلون بظل الله ، وقد استظلوا بظل رسوله ؟!

ثم وصل الرسول حديثه فيهم ، فقال

---

(١) تناول أذنه ليساره بحديث (٢) لا ملجأ إلا هو

١ — « الْإِمَامُ[١] الْعَادِلُ ... »

فقالُوا فى أنفسِهِمْ : هذا مِثالٌ لِلعَدْلِ ، فلا يَشْتَهِرُ العَدْلُ إلاَّ مِنْ حاكِمٍ .

٢ — ثم قالَ : « وشابٌّ نَشَأَ فِى عِبادَةِ اللهِ . . . »

فقالُوا : وهٰذا مثالٌ للصَّلاحِ ، فالشَّبابُ شُغْلَةٌ وثَوْرَةٌ ، فإنْ صَلَحَ فنِعْمَ[٢] هُوَ .

٣ — ثم قال : « وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ[٣] فى المَسْجِدِ . . . »

قالوا : وهٰذا مِثالٌ للتَّقْوَى .

٤ — ثم قال : « وَرَجُلانِ تَحابَّا فى اللهِ ؛ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ ، وتَفَرَّقَا عَلَيْهِ . . . »

قالوا : وهٰذانِ مثالٌ لِلْأُخُوَّةِ الصَّالِحَةِ الْبَرِيئَةِ .

٥ — ثم قال : « وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمالٍ إلَى نَفْسِها ، فقالَ إنِّى أَخافُ اللهَ . . . »

قالُوا : وَهٰذا مِثالٌ لِلْعِفَّةِ .

٦ — ثم قالَ : « وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ فَأَخْفَى ، حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ . . . »

قالُوا : وهذا مِثالٌ لِلْإِحْسانِ .

٧ — ثم قال : « وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ فى خَلاءٍ[٤] ، ففَاضَتْ عَيْناهُ[٥] ! » .

قالوا : وهذا مِثالٌ لِكامِلِ الْإِيمانِ .

وانْتَهى الرَّسول مِنْ حَدِيثِهِ والقوم يفكرون ويعتبرون ! .

---

(١) الحاكم . (٢) نعم الشباب (٣) مشغول بالصلاة فيه .
(٤) فى خلوة ، ذكرا صحيحا بالنظر فى ملكوته وتأمل قدرته .
(٥) بكى خوفا ورهبة .

وَأَذَنَ رَسُولُ اللهِ فِي النَّاسِ لِلْحَجِّ ، فَخَرَجْنَا إِلَى أُمِّ القُرَى[١] ، وخَرَجَ إِلَيْهَا المُسْلِمُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[٢] ، واجْتَمَعَ بِهَا مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ، يَعْبُدُونَ اللهَ وَرَاءَ إِمَامٍ وَاحِدٍ ، وَيُنَادُونَ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ[٣] ! لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ! الحَمْدُ وَالنِّعْمَةُ لَكَ ، وَالمُلْكُ لا شَرِيكَ لَكَ ! » .

حَتَّى إِذا مَا أَشْرَفَ الرَّسُولُ عَلَى مَكَّةَ ، ورَأَى البَيْتَ ، قالَ : « اللَّهُمَّ زِدْهُ تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً ، ومَهَابَةً ونُوراً » .

وطَافَ بِهِ وصَلَّى فيهِ ، وَشَرِبَ مِنْ زَمْزَمَ ، ثُمَّ سَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ[٤] سَبْعاً راكِباً عَلَى راحِلَتِهِ ، ونَحْنُ مِنْ خَلْفِهِ ، نَسْعَى بِسَعْيِهِ ، ونَقِفُ بِوُقُوفِهِ .

حَتَّى إِذا صَعِدَ الصَّفَا ، هَتَفَ يَقُولُ :

« لاَ إِلهَ إِلا اللهُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، لاَ إِلهَ إِلا اللهُ وحْدَهُ ، أَنْجَزَ[٥] وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ! » .

فلمَّا كانَ التاسِعُ مِنْ ذِي الحِجَّةِ ، توجَّهْنَا إِلَى عَرَفَةَ[٦] ، وقامَ فِينَا خَطِيباً ، فلما قالَ :

---

(١) مكة .
(٢) طريق بعيد .
(٣) طاعة لك
(٤) جبلان بمكة يسعى بينهما فى الحج .
(٥) نفذ وعده
(٦) جبل يقف عليه الحجاج

« . . . أيُّها النَّاسُ اسْمَعُوا مِنِّي أُبَيِّنْ لَكُمْ ، فإنِّي لا أدْرِي لَعَلِّي لا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عامِي هذَا ، فِي مَوْقِفِي هذَا . . . »

تلفَّتَتْ إليْهِ قلوبُ المُسْلِمِينَ ، وتَساءَلُوا : لِماذَا لا يلْقَاهُمُ الرَّسُولُ فِي هذَا المَوْطِنِ مَرَّةً أُخْرَى ؟

فلما بَلَغَ إلى قولِهِ :

« فَلا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ » .

طافَتْ بِنا طَوائِفُ الظُّنونِ ، وأَحْسَسْنا أنَّهُ يَنْعَى (١) لنا نَفْسَه ، وأنَّ هذِهِ الحَجَّةَ حَجَّةُ الوَداعِ !.

فلما تلا علَيْنا قولَهُ تعالَى :

« اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، ورَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا » .

صَحَّ لدَيْنا ما كانَ حَدْسًا (٢) ، وأَدْرَكْنا أنَّهُ علَيْهِ السَّلامُ يُوَدِّعُنا !.

* * *

وَرَجَعْنا إلَى بلادِنا ، وتَفرَّقْنا إلى بُيوتِنا ، تَضْطَرِبُ نُفُوسُنا بِعَواطِفِ الفَرَحِ ، وعَواطِفِ الأَسَفِ .

الفَرَحِ : بِما أَدَّيْنا مِنْ فَرِيضَةِ اللهِ ، وعَرَفْنا مِنْ مَناسِكِ الحَجِّ .

والأَسَفِ : مِمَّا أَحْسَسْنا بِهِ نَحْوَ رَسُولِ اللهِ .

---

(١) يخبرنا بوفاته القريبة .

(٢) ظنا .

وأصبحنا في المدينة نلحظ النبيّ صلى الله عليه وسلم كلّ يوم يسوننا ، فإن آنسنا[1] فيه العافية طابت أنفسنا واستبشرنا ، وإن ألمّ به[2] طائف من المرض ، هلعت[3] قلوبنا ، وتجددت مخاوفنا !

ودخل علينا المسجد في يوم يهزّه المرض ، فوجبت أفئدتنا[4] ، حتى إذا ما صلّى بنا الغلاة ، عمد إلى المنبر ، فجلس عليه وقال : « إنّ عبدًا خيّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ، وبين ما عنده فاختار ما عنده ! » .

فسمعت صوت الصدّيق يرتفع في نشيج[5] قائلا :

« فديناك بآبائنا وأمّهاتنا يا رسول الله ! »

إذ فطن « أبو بكر » أنه ينعى لنا نفسه ، فما أطاق صبرًا .

ووصل الرسول خطبته فقال :

« أيها المسلمون : إنّ أمنّ[6] الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ، فلو كنت متخذًا خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام » .

فزاد الصدّيق بكاء ، وبكى المسلمون كثيرًا !

* * *

ورجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيته ، وألحّ عليه المرض ، فانقطع

---

(١) أبصرنا .
(٢) نزل به .
(٣) جزعت جزعا شديداً .
(٤) اضطربت .
(٥) النشيج : صوت البكاء .
(٦) أكثرهم فضلا .

عَنِ الخُرُوجِ إِلَينَا ، وأَمَرَ الصِّدِّيقَ أَنْ يُصَلِّيَ بِنَا ، وَازْدَادَ كَرْبُ المُسْلِمِينَ عَلَيْهِ ، وَأَشْفَقُوا أَلَّا يَرَوْهُ بَعْدَ ذَلِكَ !

وَإِنَّا لَفِي المَسْجِدِ ذَاتَ يَوْمٍ نَتَحَدَّثُ عَنْهُ ، إِذْ خَرَجَ إِلَيْنَا مِن بَابِهِ الَّذِي يُفْضِي عَلَيْنَا ، مُتَوَكِّئًا[1] عَلَى « عَلِيٍّ وَالْفَضْلِ بْنِ العَبَّاسِ » ، فَرَأَيْنَاهُ مَعْصُوبَ الرَّأْسِ[2] ، يَخُطُّ بِرِجْلَيْهِ عَلَى الأَرْضِ ! .

ثُمَّ جَلَسَ فِي أَسْفَلِ مِرْقَاةٍ[3] مِنَ المِنْبَرِ ، وَأَحَاطَتْ بِهِ قُلُوبُ المُسْلِمِينَ تُفَدِّيهِ ! ، فَلَمَّا حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ مِنْ مَوْتِ نَبِيِّكُمْ ، هَلْ خُلِّدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فَأُخَلَّدَ فِيكُمْ ؟ أَلَا إِنِّي لَاحِقٌ بِرَبِّي ، وَإِنَّكُمْ لَاحِقُونَ بِي ، فَأُوصِيكُمْ بِالمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ خَيْرًا ، وَأُوصِي المُهَاجِرِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَأُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ خَيْرًا ، فَإِنَّهُمُ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ[4] مِنْ قَبْلِكُمْ ، أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ .

أَلَمْ يُشَاطِرُوكُمْ[5] فِي الثِّمَارِ ؟ أَلَمْ يُوَسِّعُوا لَكُمْ فِي الدِّيَارِ ؟ أَلَمْ يُؤْثِرُوكُمْ[6] عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِهِمُ الخَصَاصَةُ[7] ؟ .

أَلَا وَإِنِّي فَرَطٌ[8] لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ لَاحِقُونَ بِي ! ، أَلَا فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ

---

(١) معتمداً .
(٢) مربوط .
(٣) درجة .
(٤) تبوأ الدار : نزلها ، والإيمان : تمكن منه .
(٥) يقاسموكم .
(٦) يخصوكم ويفضلوكم .
(٧) الفقر والحاجة .
(٨) الفرط : الذي يتقدم القوم فيعد الحياض وعلؤها لمن يأتي بعده .

الحَوْض[1] ، أَلَا فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرِدَهُ[2] عَلَيَّ غَدًا ، فَلْيَكْفُفْ يَدَهُ وَلِسَانَهُ إِلَّا فِيمَا يَنْبَغِي » .

ثُمَّ عادَ الرَّسولُ إلى بَيْتِهِ كما جاء ، بَيْنَ بُكاءِ المُسْلِمِينَ وَدُعائِهِمْ ! .

* * *

وَبَيْنَا كُنَّا فى صلاةِ الفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ ثالِثَ عشَرَ مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ فى السنةِ الحادِيَةَ عشْرَةَ منَ الهجرةِ — إذا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قدْ كَشَفَ سِجْفَ[3] حُجْرَةِ السيِّدةِ عائشةَ الَّتى تُشْرِفُ عَلَى المسجدِ ، فنظرَ إلَيْنَا وَنَحْنُ فى صفُوفِ الصَّلاةِ ، وكأَنَّما أَقَرَّ عَيْنَهُ أَنَّ هذا الدِّينَ يَسِيرُ عَلَى مارُسِمَ له ، فرأَيْنَاهُ يَبْسِمُ لنا ويَضْحَكُ ! .

فنكَصَ[4] إمامُنَا « أبو بكرٍ » على عَقِبِهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ ، وَحَسِبَ الرَّسُول يُرِيدُ الصَّلاةَ بِنَا ، وَكِدْنَا نَفْتَتِنُ فى صَلاتِنَا فَرَحًا برسولِ اللهِ ! .

ولكنَّهُ أشارَ إلَيْنَا : أنْ أَتِمُّوا صَلاتَكُمْ ، ثُمَّ دَخَلَ الْحُجْرَةَ ، وَأَلْقَى السِّتْرَ .

وقضَيْنَا صلاتَنَا يَشِيعُ فِينَا السُّرُورُ أَنْ شُفِيَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَوَجَدْنَاهُ طَيِّبَ النَّفْسِ ، ضَاحِكَ السِّنِّ ! .

وتفرَّقَ المسلمونَ إلى مَنَازِلِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، يَتَحَدَّثُونَ بِشِفَاءِ الرَّسولِ مُطْمَئِنِّينَ ،

---

(١) أمكنة الأشربة فى الجنه . (٢) يستق منه . (٣) ستر . (٤) فتراجع .

وَلَبِثْتُ فِى المسجدِ أُمَنِّى نَفْسِى أَنْ يَخْرُجَ الرَّسولُ مِنْ بَيْتِهِ ، فأكونَ أَوَّلَ مَنْ يَلْقَاهُ ، وَأَوَّلَ مَنْ يُبَشِّرُ المُسلمينَ بِشِفَائِهِ .

فلمْ تَأْتِ فَحْوَةُ هذا اليَوْمِ حَتى سَمِعْتُ بُكاءً فى حُجرةِ الرَّسولِ ، فاضْطَرَبَتْ نَفْسِى ، وَأَنْكَرْتُ سَمْعِى ! ولكنَّ البُكاءَ أَخَذَ يَتَعَالَى وَيَتَوَالَى ! وإذا بِهِ يَنْعَى رسولَ اللهِ !

فوَاللهِ لَوِ انْهَدَّ عَلَىَّ الجَبَلُ ، أَوْ سَقَطْتُ مِنَ السَّماءِ فَتَخَطَّفَتْنِى الطَّيْرُ مَا بَلَغَ ذلكَ مِنِّى مَبْلَغَ مَا سَمِعْتُ مِنْ وَفَاةِ الرَّسولِ ! ، وَلَوْ كَانَ يُفْتَدَى لَفَدَيْتُهُ بِرُوحِى ، وطَارِفِى (١) وَتِلَادِى (٢) ، وَلَكِنَّهُ أَجَلُ اللهِ ، لاَقَى حَبِيبَ اللهِ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ !

وتَسَامَعَ النَّاسُ بِوَفَاةِ الرَّسولِ ، فَصَارُوا بَيْنَ مُكَذِّبٍ وَمُصَدِّقٍ ، وَغَابَ عَنِ الرَّاشِدِينَ رُشْدُهُمْ ، وَكَأَنَّهُمْ فى يَوْمِ الفَزَعِ الأَكْبَرِ (٣) يُحْشَرُونَ ! فَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ، وهو هُوَ فى عَقْلِهِ وَشَجَاعَتِهِ ، يَذْهَلُ عَنْ رُشْدِهِ (٤) حِينَمَا يَسْمَعُ الخَبَرَ ، وَيُجَرِّدُ سَيْفَهُ ، وَيُقْسِمُ أَنَّهُ يَضْرِبُ بِهِ مَنْ يَقُولُ بِمَوْتِ الرَّسولِ ! كَأَنَّ النبىَّ لا يَجْرِى عليهِ مَا يَجْرِى على سائرِ النَّاسِ !

وعادَ أبو بكرٍ مِنْ دارِهِ ، وَهِىَ فى أَقْصَى المدينةِ حِينَمَا بَلَغَهُ خَبَرُ رسولِ اللهِ ، وَهُوَ فى غَيْرِ هَيْئَتِهِ ، فَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ ، وَإِزَارُهُ يَخُطُّ الأَرْضَ مِنْ خَلْفِهِ ! .

---

(١) نعمتى الحديثة .
(٢) ونعمتى القديمة .
(٣) يوم القيامة .
(٤) يغيب عن صوابه .

ودخل على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حُجْرَتِهِ ، وكشف عَنْ وَجْهِهِ ، وَقَبَّلَ ما بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وقال له ، ولا يكاد يُبِينُ :

« يا رَسُولَ اللهِ ، ما أطْيَبَكَ حَيًّا وَمَيِّتًا ! بأبى أنْتَ وَأُمِّى ! أمَّا المَوْتَةُ الَّتِى كَتَبَ اللهُ عَلَيْكَ فَقَدْ ذُقْتَهَا ، وَلَنْ تَمُوتَ بَعْدَهَا أبَدًا[1] ! » .

وخرج على المسلمين فرآهم قد أطْرَقُوا[2] برءوسهم مِنْ عِظَمِ ما نالَ مِنْهُمْ ، وَعَبَرَاتُهُمْ تَسِيحُ عَلَى لِحاهُمْ ، وآهاتُهُمْ تَصْعَدُ إلى السَّماء

ورأى عُمَرَ شامِرًا سَيْفَهُ يَخْطُبُ فِيهِمْ أنَّ محمداً لَمْ يَمُتْ

ووقف أبو بكر فى النّاسِ ، فتطلّعوا إليه صامِتِينَ فقال : « أيها النّاسُ مَنْ كانَ يَعْبُدُ محمداً ، فإنّ محمدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ ، فإنّ اللهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ ! » .

فسقطَ عمرُ على الأرْضِ ، وهو يَنْظُرُ إلى أبى بَكْرٍ نظْرَةَ الحائرِ الوَلهانِ ، وعرفَ أنّ محمداً شَرِبَ منَ الكأسِ الّتى دارَتْ عَلَى سائرِ النّاسِ !

فلمّا قرأ أبو بكْرٍ :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ[3] مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُم[4] ؟ وَمَنْ ينْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ » .

قال عمرُ : وكأنّى لَمْ أسْمَعْ بهذِهِ الآيةِ إلاَّ الآنَ .

---

(١) ستحيا حياة أبدية فى الجنة .
(٢) نكسوا .
(٣) سبقت .
(٤) رجعتم إلى الكفر والضلال .

* * *

وَجُهِّزَ الرَّسولُ ، ووُضِعَ فَوْقَ السَّرِيرِ لِيُصَلِّيَ عليه المُسلِمونَ ! ودَخَلْنا عليهِ أَرْسالاً [1] مُتتابِعينَ ، نُصَلِّي عليهِ بلاَ إمامٍ ، وتَبْكي قلوبُنا مَا تَسْتطيعُ البُكاءَ !

أَجَلْ ، إنَّها لآخِرُ ساعةٍ نَرَى فيها الرَّسولَ في الدُّنيا ، فما أَصْعَبَ عَلَى قُلوبِنا الَّتي انْطَوَتْ عَلى حُبِّهِ أَنْ يَغيبَ عَنها الحبيبُ أَبَداً ! .

وما أَشَقَّ عَلَى عُيونِنا الَّتي سَعِدَتْ بِرُؤْيَتِهِ صَباحاً ومَساءَ ، أَنْ يُفارِقَها أَبَداً ! ، فَما قِيمةُ الدُّنيا إذَا غابَ الأَحِبَّةُ عَنْها ؟ .

فوَدَّ كُلُّ مُسْلِمٍ أَنْ يَبْقَى في حَضْرَتِهِ مَاشاءَ ، لِيَتَزَوَّدَ منه النَّظَراتِ الأَخيرَةَ ، عَسَى أن تُطْفِئَ لَوْعَتَه ، أَوْ تُهَدِّئَ ثَوْرَتَه !

ثُمَّ حفَرْنا لَحْدَهُ الشَّريفَ في حُجْرَةِ عائشةَ أمِّ المُؤْمِنينَ ، وأَنْزَلْناهُ إلَى رَوْضَتِهِ [2] المُبارَكَةِ ، وتَرَكْناهُ في جِوارِ اللهِ ، وَأَكْرِمْ بِهِ مِنْ جِوارٍ

وأَخَذْنا نُرَدِّدُ في أَنْفُسِنا قَوْلَه تعالَى

« يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي في عِبَادِي ، وَادْخُلِي جَنَّتِي » ؟ .

تم طبع هذه القصة بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده
القاهرة فى ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٨ هـ
٧ أبريل سنة ١٩٤٩ م

---

(١) طوائف .

(٢) قبره الطاهر .

الفهـــرس

الفصل	الموضوع	الصفحة
الأول	عند حليمة فى مضارب بنى سعد .	٥
الثانى	« « « « « . وعودته إلى مكة .	١٠
الثالث	فى مكة . زيارة قبر والده بالمدينة . وفاة أمه . موت جده .	١٦
الرابع	فى مكة ، يرعى الغنم . بعده عن لهو الفتيان .	٢٣
الخامس	سفره إلى الشام بتجارة خديجة . أخلاقه فى سفره . زواجه من خديجة بعد عودته .	٣٢
السادس	حياته فى كنف خديجة . زيد بن حارثة . حليمة .	٤٢
السابع	فى غار حراء يتحنث . مطالعة الكون . ضلالات قريش .	٤٩
الثامن	قريش والأصنام . نزول الوحى على النبى عليه السلام .	٥٧
التاسع	أصداء الدين فى مكة . فتنة الموالى . سخرية قريش . من المسلمين . عنادهم .	٧٠
العاشر	فى دار الندوة . امتحان النبى بالجاه والمال . قطيعة قريش لبنى هاشم . صحيفة الكعبة .	٨١
الحادى عشر	وفاة خديجة وأبى طالب . دعوته إلى الإسلام فى خارج مكة . فى الطائف .	٩٤
الثانى عشر	عودته إلى مكة ، تعرضه للقبائل . وفد يثرب . مبايعة الأنصار له . استعداده للهجرة إلى المدينة .	١٠٥

الفصل	الموضوع	الصفحة
الثالث عشر	حديث الهجرة . الغار . استقبال الرسول فى المدينة . حياته الأولى بها .	١١٦
الرابع عشر	صلة حياته فى المدينة ، بناء المسجد وساكن النبى . الصلاة . طوائف المدينة : اليهود . المنافقون . موقف المسلمين نحو قريش .	١٢٢
الخامس عشر	سفر عير قريش إلى الشام . تربص المسلمين لهم عند بدر . معركة بدر . مقتل رؤساء قريش . انتصار المسلمين .	١٤٦
السادس عشر	قريش بعد بدر . الكفار يريدون اغتيال النبى بالمدينة .	١٦٣
السابع عشر	معركة أحد .	١٦٩
الثامن عشر	المسلمون يفتحون خيبر . زواج النبى من صفية . قريش وخيبر . خدعة قريش .	١٧٦
التاسع عشر	غزوة مؤتة . إخبار الرسول بما لم يبلغ أصحابه . زيد . جعفر الطيار عبد الله بن رواحة .	١٨٦
العشرون	فتح مكة . خضوع قريش للنبى : عفو الرسول عنهم .	١٩٥
الحادى والعشرون	يوم حنين : حرب هوازن وثقيف . الشياء .	٢٠٧
الثانى والعشرون	وفود العرب للإسلام . عدى بن حاتم وسفانة .	٢١٨
الثالث والعشرون	حياة الرسول مع أزواجه . إبراهيم . وفاته .	٢٢٩
الرابع والعشرون	أخلاق الرسول يتحدث بها أصحابه .	٢٣٨
الخامس والعشرون	حجة الوداع . عودته إلى المدينة . وفاته	٢٤٧